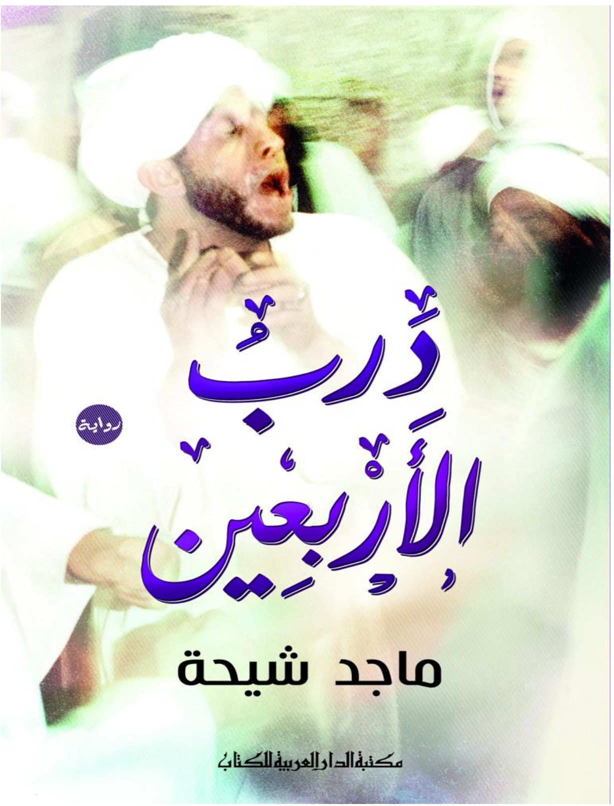

دَرْبُ الأَرْبَعِين

رواية

ماجد شيحة

مكتبة الدار العربية للكتاب

الإهداء

إليك: أبي: طه علي إبراهيم:

لا زلت أبحث فيّ لأهديك مني شيئا خالصا منك،

ولكنك تظل دائما... موضوعي الوحيد

أخي الكبير: مظهر طه علي شيحة

الذي علمني الفارق بين قلم الدراسة وقلم الأدب

طار ظل حكايتك أمامي فاختلطت حكايتي بحكايتك فصرتُ امتداد حلمك ورضاك عن نفسك، فهل رضيت عني؟؟

زوجتي العزيزة: رحاب محمد عبدالرؤوف

كل الحب برد صيف، وحبك أعراض الفصول الأربعة،

لا حرف خططته إلا تحدوه أنفاسك ونظرات عينك، حفظك الله لي، أبدا ما دامت الكلمات على صفحاتها.

الزمان مكان سائل، والمكان زمان متجمد

ابن عربي

الفصل الأول

خرج ولم يعد...

بلغة الحكاية يمكنني أن أقول إن (كل شيء بدأ) في غرفة الضيافة لأخي الأكبر خليفة، ولكني لا أستطيع أن أستخدم تلك اللغة في رواية حكايتي، فالحكاية التي عشت أحداثها أوصلتني إلى قناعة مؤكدة، وهي أنه في هذا العالم لا بداية لحدث ولا نهاية، فالأحداث إذا كانت تبدو لنا وكأنها تبدأ فهي لا تنتهي، فقط تضيف جزءًا من الفوضى ولا تزيلها، وفي حكايتي التي سأرويها هنا كانت الفوضى عارمة، بئر تسكن فيه الملائكة، وجمان هاربة من قوافلها لا تظهر إلا ساعات الشروق والغروب، وراعٍ غامض يجول الصحراء بين مصر والسودان ينتظرني منذ سبعمائة عام ليحكي لي كيف بدأ الأمر معه ولم ينتهِ..

ترك أبي البيت ذات مساء، هذه بداية أخرى مرادفة لبداية غرفة الضيافة، ورغم أن لغة هذه البداية أقرب إلى لغة الجرائد إلا أنها تظل

اللغة الأصلح لرواية المأساة الخاصة لعائلتنا بشكل مختصر موجز، خرج أبي ولم يعد، خروج غير معلل،لم يكن مريضًا أو مجنونا أو يائسا، كان رجلا عاديا، وهذا يشبه - في الزمن الذي بدأت فيه بكتابة الشطر الأول من حكايتي هذه - رجلًا مشى تحت مطر عنيف ثم عاد إلى بيته دون أن يبتل، الابتلال بالأحداث لم يكن من عاداته، فطيلة حياته بدا لي أبي وكأنه يعيش خارج الزمان والمكان، مثل صائدي اللؤلؤ الذين ينقبون عنه في رمال البحر أسفل نواقيس زجاجية بينما أطنان الماء المهلكة تزمجر فوقهم لا يأبهون بها..

أربعة رؤساء لمصر وعدد لانهاية له من الوزارات ورؤساء المجلس المحلي ونواب مجلس الشعب وخمسون إماما للمسجد وواحد وعشرون مؤذنا وسبعون سنتيمترا زادت في ارتفاع الشارع نتجت من أنقاض البيوت القديمة المبنية بالطوب اللبن بعد أن غاصت وأصبحت طين الشتاء للشوارع الضيقة، وعدد لا بأس به من حُصر المسجد الذي بلي من مرور الأقدام المبللة عليه بماء الوضوء، وعدد من مرات قليلة أمطرت فيها السماء مطرها النادر في الصيف، وحرائق اشتعلت وانطفأت، ولم يغير أبي من عاداته حتى في اليوم الذي غادرنا فيه، يستيقظ قبل الفجر، يتوضأ ويصلي في المسجد، لا يعود حتى يقوم بالدوران حول كتلة البيوت التي تضم بيتنا أكثر من عشرين مرة، كان يستطيع أن يسير على قدميه لمسافة خمسة كيلومترات دون أن ينهج أو تتسارع أنفاسه، وأن يعيش على الماء والخبز والملح المخلوط بالكمون لأيام، شعر رأسه الأبيض المنحول لم يكن إحدى علامات تقدمه في السن بقدر

ما كان علامة على شراسة الزمن الذي عاشه، كان أبي إذا جلس ظهر عليه السن وإذا سار انتفض بداخله شاب يأبى أن ينحني للزمن رغم ألم الظهر، لا يمرض إلا ليلفت انتباهنا، وعندما يرى تداعينا إليه بالقلق عليه تبدو لامبالاته، ولا يهتم بالرد على تساؤلاتنا ليس من صمم، بل رغبة في عقابنا على مرات فائتة كان يجب أن نطمئن عليه بذات السؤال ولم نفعل، ثم لا يخبرنا أنه بخير إلا ليصرفنا عن التفافنا المزعج حوله وليخلو بأفكاره، أية أفكار كانت تدور في رأس أبي بعد أن ماتت امي، أية أفكار ظلت تدور لمدة ثلاث سنوات من بعد موت أمي في رأس عجوز تجاوز الستين من عمره حتى دفعته لأن يتركنا ويرحل !!..

طيلة شهر كامل تعاملنا مع اختفاء أبي بطريقة سماها خليفة - أخونا الأكبر - ناضجة، لا بلاغات للشرطة ولا فزع ولا حركة زائدة عن ما سبق بحيث تجعل الناس يظنون أن هناك ما يُريب، وكنا نقول لمن يسأل عن أبي إنه خرج إلى زيارة بعيدة لأحد أقاربنا وأعجبته المعيشة هناك فقرر البقاء قليلا، تدريجيا عرف الناس حقيقة ما حدث، تسرب الخبر وصار واقعا لا فكاك من روثه، وكنت أعلم أن الأمور لن تُحسم بتغييب الوضع، بينما الصورة تتجسد في كل يوم يمر على اختفاء أبي، صورة الأخوة الثلاثة الذكور، الذين يسكنون على حافة المصيبة، الأوسط يولي ظهره لجريان الأمور فيها والأصغر هرب من مشاكل حياته وغرق في مشاكل العمل والأكبر يحمل عصا طويلة كلما حمل جريان الماء إليه جثة أمر من الأمور المعلقة دفعها بعيدا عنه..

كانت هذه هي البداية، اجتمعت أنا وخليفة في غرفة الضيافة عنده بدون حضور أخينا الثالث مؤمن، لا اقتراحات مسبقة ولا وصاية لأحد منا على ما سيفعله الآخر، فقط مجرد إثارة لغبار الحزن الراكد ليزكم أنوفنا فندمع ثم ينصرف كل واحد فينا إلى شقته..

غبار هذه المرة كان خبرا جديدا عن أبي، ولكنه قد لا يشكل فارقا لو اعترانا الفتور في مناقشته كعادة كل التطورات في أمر اختفاء أبي منذ شهر كامل، أحد زملاء خليفة في الدراسة كان يعمل كمدير فرع ريفي في بنك الإسكندرية، أخبره بأن أبي منذ اختفى لم يقم بصرف أي مبلغ من رصيده في فرع المدينة القريبة بل قام بذلك بفرع رئيسي في المحلة الكبرى، في سرية تامة ودون أن يخبرني سافر خليفة إلى المحلة الكبرى، بتوصية من زميله استقبله مدير الفرع هناك بحفاوة وعرض صورة أبي الملونة على موظفي الشباك فتذكره أحد الموظفين، لم ينس ذلك الموظف ملامح أبي أبدا لأنه أتعبه في رد الأوراق المالية القديمة، حكى لأخي كيف أن ذلك الرجل العجوز استغرق ساعة كاملة في صرف ما قيمته خمسة آلاف جنيه (مخالفا بذلك قاعدته الشهيرة ألا يحمل مالا كثيرا أثناء السفر إلا لضروره قصوى!)..

- المحلة الكبرى، طنطا، دراو، إن تواجد أبي فلن يتواجد إلا في هذه المدن الثلاث، قلت ذلك فرد خليفة مندهشا:

- فعلا، في المرة الثانية التي قام فيها أبوك بصرف مبلغ آخر من المال كانت في أسيوط ولكن لم يتذكر أي موظف من موظفي الصرف

عجوزا غريب الأطوار، فكل مرتدي الجلاليب في الصعيد غريبو الأطوار فيما يخص المال المودع في البنوك..

- ولكن أسيوط غير دراو، دراو في أقصى الجنوب، قريبة من حدودنا مع السودان.

- كله جنوب..

في تلك المرة الثانية قام أبي بصرف عشرة آلاف جنيه، بهذا المبلغ أصبح مجموع المال الذي قام بصرفه خمسة عشر ألف جنيه، هل كان يقوم برد دين قديم؟، هل يقوم بإنفاقها ببذخ على إحدى المتع التي تستهوي كبار السن في شيخوختهم، هل تزوج سرا ويقوم الآن بالإنفاق على بيت آخر...

قال خليفة في أسف:

- تصور ما الذي سيقوله الناس عنا ولأولادنا بعد عشرين سنة من الآن، ضاع أبوهم ولم يبحثوا عنه حتى؟

كانت الحقيقة المرادفة لسؤاله: ما الذي سيتغير في كلام الناس عنا لو أن أحدنا ذهب خلف أبيه، فضاع أو مات أو سُجن أو آثر العيش هناك بعيدا عن الفضيحة فتزوج إحدى بنات الجنوب واستقر للأبد.

بناء على صمت الرضا الذي أبديته أنا بعد عبارته الأخيرة أخذ خليفة يضع خطة بحث، سيبحث هو في المحلة الكبرى عن طرف خيط بينما أتجه أنا إلى الجنوب، يوما أو يومين أسأل موظفي البنك وأتتبع أي خيط هناك ثم أعود.

سألت خليفة عن دور مؤمن أخينا الثالث في عملية البحث عن أبي، فأجاب بدهشة مخلوطة بالتهكم:

- مؤمن!!، كيف تريد منه أن يبحث بهذا الشيء الذي يحمله في وجهه، سيموت في جلده من شدة الخوف إذا رأى كمينا للشرطة.

تهكّم خليفة على لحية أخينا الأوسط صار عادته الملازمة إذا تحدث عنه، ولكن بغض النظر عن ذلك فإن بُعد المسافة إلى الصعيد يثير المخاوف عندأي شخص مهما كان انتماؤه أن يُقبض عليه في أحد أكمنة الطريق، فالناس صار يُقبض عليهم الآن لمجرد الشك، ربما يكون مؤمن حاملًا لصفة إضافية تدعو للخوف وهي لحيته ولكنه أيضا كان يمتلك من الأسباب ما يجعله يخاطر للبحث عن أبي وإعادته، لأنه الوحيد فينا المتضرر بشدة من اختفائه، فمنذ تزوج مؤمن دأب أبي على إقراضه المال بسبب تعثره في العمل بعكسنا أنا وخليفة، لدرجة أن مؤمن بعد اختفاء أبي وبدلا من أن يقلق عليه كان غاضبًا منه بشدة، وكأن اختفاءه هروب من طلبات إقراضه الدائمة، لم يكن يصرح بذلك علانية، وإن وشى به تصديره لنظريته القاسية عن اختفاء أبي، وهي أن رجلًا في مثل سنه اختفى بهذه الطريقة لابد أن عنده ترتيبات أخرى لا نعرفها، خاصة أن لديه رصيدا من الصحة والمال يفوق أي واحد منا.

على أية حال لم يكن مؤمن ليشترك في البحث معنا طالما ظلت لخليفة يدٌ في الأمر، في الواقع الموازي لو كان مؤمن هو الجالس أمامي

الآن فسيدور الحديث بنفس الكيفية رغم قناعة كليهما بتفرده المطلق، كان مؤمن سيقول:

- خليفة!!، الدرويش، كيف تريد منه أن يبحث عن أبينا، هل سيستدعي أرواح الصالحين في المقامات ليبحثوا له..

هذا التشابه رغم خلافهما العدائي ظل يثير دهشتي دوما، ولكن ببعض التأمل كنت أجده طبيعيا، أشياء كثيرة تغيرت بيننا كأخوة دون أن أصل لسر تغيرها، مثلا: لم أعد أخاطب خليفة بأستاذ خليفة كما تعودت على ذلك منذ طفولتي، كما أن خليفة لم يندهش أو يستنكر ذلك مني عند حدوثه، بل ربما وجد ذلك إزالة لعائق كبير بيننا في الحديث يخول له إلصاق القدرات الخرافية بي والتي اعتاد أن يلصقها بمؤمن قبل خلافهما...

منها على سبيل المثال عندما أخبرته بعد تهكمه على مؤمن بخوفي من أن يُقبض عليّ أنا أيضًا خاصة إذا بحثوا في تاريخي، فقال واصفًا إياي في لهجة حاول أن يجعلها مرحة:

- أنت، يا مصدق تمتلك الصفات الأنسب للحركة في عصرنا، جن مصوّر، تجيد حيل السفر والمراوغة والخضوع ثم التفلّت. وستعرف كيف تمر من الحجر الصوان إذا قدر الله وحصل، ثم.. من منا بلا تاريخ يخيفه في أحوال البلد المهيبة تلك، كل يوم في حال مختلف، يجب أن نخاف مما نحن فيه الآن لا أن نخاف مما كنا عليه..

لا أنكر أنني جفلت من عبارته وكأنه شتمني، وهل صار أحد يمتلك الصفات الأنسب للحركة في عصرنا هذا إلا الأفاقون، ولكني لم أغضب من خليفة، فجأة وبغياب أبي خلال شهر كامل بدأ خليفة يمتلك سلطة رواية التاريخ، بكل تخبطه ونمطيته بعد الحوادث العاصفة أو قبل حدوثها، وهذا التاريخ كان يصف حياتي بشكل لم أتوقعه أبدا فضلا عن أن أصدقه: رجل هجرته زوجته وصارت على وشك أن تطلب منه الطلاق، وابنه الوحيد منها مريض مرضا لا يُرجى برؤه، رجل يجب أن يبدأ من جديد، مثل طفل ولد لتوه.

ساد الصمت بيننا لدقائق طويلة ثم وكأن شخصًا آخر يتحدث عني سمعت صوتي يقترح على خليفة إبلاغ الشرطة أو نشر إعلان بإحدى الجرائد الرسمية فاستنكر ذلك بشدة قائلًا:

- هل تريد أن تفضحنا.. الجرائد ليست إلا لنعي الموتى والبحث عن المفقودين المجانين أومن ليس لهم أهل ولا أولاد....

كانت ابنة خليفة التي لم تبلغ الستين بعد مطمئنة بالكامل في أحضاني، بينما ابني الصغير جالس على مقعد منفرد يسند رأسه على المسند خلفه مثل رجل كبير يستمع إلى حوارنا باهتمام، تلك الهيئة التي كانت تجعلني أسأله دائما في قلق: هل تشعر بالصداع؟، فيسألني: وما هو الصداع يا أبي؟، أحتار لحظات ثم أجيبه: دق مستمر في الرأس، وكانت زوجتي إذا سمعت حديثنا هذا من خلال الصالة تصرخ وهي واقفة في المطبخ: حرام عليك، الولد سليم وأنت ستُمرضه بكلامك.

في عوالم مخبأة تستمر لحظات سعادتنا في الحياة، لا تنتهي، إنها مسئولة عن نوع خاص من الفوضى، فوضى الحنين إلى تكرارها، ولكن حتى لو تكررت فلن تصل إلى حد الإشباع الكافي لنا..

يجب ألا نخاف من الماضي وأن نخاف من الحاضر والمستقبل البعيد، كلمات أخي كانت مرتبة وأنيقة ولكنها تحمل تناقضا هائلا، ربما لأن الماضي هو دافع أبي للرحيل وهو سبب ورطتنا الحاضرة ومصيتنا المستقبلية، لا يعلم أحد من إخوتي عن ذلك بقدر علمي أنا به.

تركت تلك الأفكار تفسد عليّ استمتاعي بضيافة خليفة في ذلك اليوم دون أدنى مقاومة، كان مضيافًا إلى حد لم يفعله من قبل معي، أصر أن أظل معه حتى وجبة العشاء، صنعت لي زوجته كيك بالفانيليا التي أحبها، سألني عن أدق التفاصيل حول آخر التطورات عن مشكلتي مع زوجتي، لم أُشبع جوع فضوله ليس لأنني لا أريد الشكوى ولكن لوجود ابني الصغير معنا...

منذ تركت أمه البيت وهو لم يعد يفارقني، يسافر معي إلى الأماكن القريبة، نصطاد السمك سويا، نشاهد أفلام الرعب والأكشن حتى وقت متأخر، ثم ننام متعانقين، وقبل أن ننام يحكي لي بلغته التي لا تزال تحبو حكاية مشوقة على طريقته، ليس المهم محتوى الحكاية بقدر ما هو مهم أن يبدأها بجملته المحببة (كان ياما كان في سالف العصر والأوان وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام)، في تلك الليلة نمنا مبكرين بعد أن أشعلت بعضا من بخور جاوه، متعمدا تركت الرائحة تتخللني وتحاول أن تثير ذكرياتي القريبة عن زوجتي وحضورها الذي

لم يزل مشعا في زوايا غرفة نومنا، كنت جافّ المشاعر بطريقة آلمتني، حملت عن صغيري عبء الحكي، حكيت له حكاية درويش الصحراء التي حكاها لي أبي في طفولتي مرارا وتكرارا، الرجل الذي يهب جمالا لمن يحبه دون ثمن بشرط واحد: ألّا يذبحها إذا أدركتها الشيخوخة، ما فائدة الجمال حين تكبر إلا أن تُذبح ويُستفاد من لحمها رغم قساوة أليافه حينئذ؟؟، سألني طفلي نفس السؤال الذي سألته لأبي حينها.

- يا أبي لماذا لم يأت جدي بهذا الدرويش ليقيم معنا؟؟

في الصباح لم يستيقظ كعادته، قمت بسدّ بالوعات الحمام والمطبخ بخِرق جافة، أنزلت سكاكين الكهرباء وتركت الراديو يعمل في الصالة على محطة القرآن الكريم بالبطاريات الجافة حتى تخفت، لم أغتسل من عرق الليل ولم أحلق ذقني، قمت بتجهيز شنطة السفر في هدوء، عندما يستيقظ ابني الصغير ولا يجدني لن يحزن، لقد اعتاد على غيابي، أعطيت لأخي مفتاح شقتي وسافرت إلى القاهرة ومنها إلى الجنوب...

في مايو 2014 وبعد شهر كامل من غياب أبي خرجت خلفه باحثا عنه، للأسباب التي حكيتها توجهت إلى مدن الجنوب المصري، ما مررت به في الأيام التالية لخروجي لا يُصدق، بمقياسه المطلق أحيانا وبنسبيته إلى ما ظللت أعيش في وهمه معظم ما مرّ من حياتي أحيانا أخرى.

هذا التاريخ لا أنساه أبدا.. اليوم الذي خرجت فيه من شقتي ولم أعد بعدها..

....

الفصل الثاني

حكاية محمود العبد ورحلة درب الأربعين

هكذا كانت المسألة التي سبقت الحدث الأكبر في حياتي، ابن يبحث عن أبيه، الابن لا يشبه نفسه، والأب عاد إلى جذور حكاية مجهولة في الجنوب.... لا يربط بينهما إلا ورقة!!.. ليست ورقة الميلاد ولا بطاقة الهوية، بل الورقة التي أمليتها بنفسي على فتى الكمبيوتر، متجاهلا رجاء خليفة ألا أفعل.

- وكيف تريدني أن أبحث يا خليفة دون إعلان ورقي؟

- شفويا يا مصدق، شفويا، أنت ذاهب إلى الصعيد لتسأل عددًا محدودًا من الناس في البنك وتسأل في المقهى أو المطعم المجاور للبنك ثم تعود، معك صورة ملونة لأبيك وسيتعاطف الناس معك فالجنوب أهل كرم ومروءة.

في الإعلان الذي أمليته على فتى الكمبيوتر لم أضع اسم أبي، كان مجرد وصف ورقم هاتفي المحمول ورقم خليفة، وصورة جانبية لأبي

قـام فتـى الكمبيوتر بالعمل عليها منتزعا وجه أخـي مؤمن منها إذ لم نعثر على صورة فوتوغرافية حديثة لأبي إلا مع مؤمن.

تأملـت الكلمـات التـي اعتنيـت بانتقائها: رجل عجوز في الخامسـة والسـتين من عمره، لا يسـمع جيدا ولكنه يتمتع بنظر جيد، (مريض) لا يسـتطيع أن يسـير بدون عصا!!، يرتدي طاقيه رأس صوفية بنية اللون من يجده يتصل برقم...........

تومـض علامـة الكتابة وتنطفـئ، همس لي فتى الكمبيوتـر بجملة لم أسـمعها، طغى على صوته هدير رشـاش آلـي صـادر مـن كمبيوتر خلفنا يجلـس إليـه ولد صـغير متورد الخدين من شـدة الإثـارة والحماس، كرر فتـى الكمبيـوتر مرة أخرى: هل أقوم بطباعتها، طلبـت منه أن يحذف كلمة (مريض) قبل الطباعة، فنظر إليّ مندهشـا...

كنـت واثقا أنني أخطأت في وصـف أبـي بالورقة كما أخطأ خليفة في وصفي، ربما كانت تصفه خارجيا، وصفًا لا يمت للحقيقة ولكني راعيت ما قد يظنه من يري أبي للوهلة الأولى، فرغم أنه يحمل العصا في يده دائما ولكـن كنوع من أبهة السـن ومنعا للحسـد، كما كان باسـتطاعته أيضا أن يسـمع (دبة) النملة كما يقولون ولكنه كان يتعمد الصـمم في أغلب أحواله عندمـا لا يكون راغبا في التحدث مـع أحد، ورثت هذا التكنيك عنه، في سـفرياتي كنت أمثل دور الأخرس أحيانا أو الفاقد للسـمع، الحقيقة أنني اسـتلفت قوقعتيـن من قوقعات السـماعات الطبية من زميل لي في العمل، فسـدتا بسـبب الماء ولم يعد يسـتعملهما، وبمجرد أن أتواجد في مجتمع

كبير صاخب أضعهما داخل أذني وأنطوي على نفسي، وأحمد الله أن أمي لم تخبرني بعقاب ذلك الذي يقلد عاهة مستديمة خشية التورط في أحاديث مع الناس قياسا على الجزاءات المتعددة التي أخبرتني عنها: من يديم النظر إلى ذي العاهة المخجلة يصبح مثله بعد مائة مرة نظر، ومن ينظر إلى دواخل قبور الموتى ويحاول أن يرى «منكر» و«نكير» فسيقبض الله بصره ويصبح أعمى...

تأملت صورة أبي على الجانب، الصورة التي تحولت بسبب الطباعة إلى صورة بالأبيض والأسود فأصبحت شبيهة بصورة أي عجوز في مثل سن أبي، فالعجائز مثل الأطفال، يتشابهون عندما يقفون أمام الكاميرات، لا شيء يميزهم سوى الذكريات التي تتذكرها عنهم، كأنهم أطفالُ شيخوختهم.

ماذا سأفعل بتلك الورقة عند وصولي إلى أسيوط؟، من المؤكد أنني سأتبع السيناريو المتكرر، دونما اقتناع سأعلق مئات منها في المساجد الكبيرة والمصالح الحكومية والمقاهي وبعض الشوارع الرئيسية، سأقوم بتوزيعها على من أتوسم فيهم الخير فيطوونها عدة طيات ويضعونها في جيوبهم كأنها تحمل آية قرآنية ويربتون كتفي مشفقين وسأتلقى نفس النصيحة لا تتغير.

- عُد يا بني، لو كنت أباك ما سرني أن تذهب كل هذه المسافة خلفي في مثل هذه الظروف.

سأبتسم بحزن ولن أجيبهم، لن أبرر بحثي العبثي، كما لم أستطع أن ألوم أبي في سريرتي: ألم تجد يا أبانا وقتا غير هذا الوقت لتضيع

فيه ؟..... لا أستطيع أن ألقي باللوم عليه فكل الأوقات صارت ملغمة، وكل الأيام صارت حبلى بالشك، نحن أنفسنا لم نعد كما كنا، أو كأننا هكذا منذ ولدنا ولم نتبه إلا الآن، خائفين وعدوانيين وضعفاء، وكيف أطلب من أبي أن تنتظر شيخوخته طويلا حتى تصلح أحوالنا ليقوم بحماقات آخر العمر !!!.....

....

كيف يمكن أن يبحث شخص خائف عن آخر لم يَفْقِدْهُ في حياته إلا الشغف، مغمضا عينيّ وأنا أتخيل عدد المرات التي قاد فيها أبي حياته خلال انحداراته الخطرة فيجف ريقي، لم يرض أبي بوظيفة الحكومة التي حصل عليها بموجب شهادته الابتدائية، فهجرها تاركا إمضاء الحضور والانصراف لزملائه بعد أن أقنعوه باستيلائهم على نصف مرتبه مقابل التستر على غيابه وتحمل مؤونة عمله، بدأ أبي عمله الحر بدكان لإيجار الدراجات للأولاد الصغار، أكثر من خمس عشرة دراجة صغيرة ترفرف عليها راية صفراء تحمل الحرف الأول من اسم أبي، تصول وتجول وتدق أجراسها كأن حريقا اشتعل في البلد لا يتمكن أحد من إطفائه إلا قرب الغروب، نفس الوقت الذي تتحول فيه الشوارع الخلفية للبلد في عيني أبي إلى مناضد في مقهى خال من الزبائن تركوا خلفهم أكوابهم الفارغة وهربوا، حيث يكون مضطرا للبحث عن الدراجات التي لم يعد بها الأولاد خوفا من مطالبتهم بالزيادة بعد تجاوزهم لوقت الإيجار..

الدراجات كانت اكتشافا مذهلا بالنسبة لبلدنا الريفي في ذلك الوقت . ي أن الكبار كانوا يأتون للتأجير مثلهم مثل الصغار، يأتون خجالى , اصصون بعيونهم داخل المحل، اعتاد أبي مع تكرار الأمر أن يأخذ ، هم ثمن التأجير أولا مثلهم مثل الصغار لأنهم في الغالب كانوا أيضا لا يعودون بها ولكن لسبب مختلف، وهو أن الأمر ينتهي بهم في كل مرة إلى حفرة أو في البحر الكبير تحت جزر ورد النيل الطافية، الخطأ لم يكن في ضعف مهارتهم في القيادة ولكن في وضعية ركوبهم، حيث يتخذون ملسة أقرب للقرفصاء على المقعد الصغير والدراجة القصيرة، مجدفين بسيقانهم على الأرض دون أن يستطيعوا ثنيها ليتمكنوا من وضعها على بدولي الدراجة، ورغم تلك الحوادث - أخبرني أبي - لم تتكسر دراجة أو تُسرق، فمتانة الأشياء في ذلك الزمن كانت من متانة الأخلاق، ولكنه في النهاية ملَّ من مطاردة المستأجرين فأغلق الدكان وباع الدراجات.

كاد هذا الانحدار الأول أن يطيح بأبي عائدًا إلى المكتب الخشبي الذي هرب منه لولا الكبرياء، سرعان ما عاد إلى العمل الحر كتاجر للقماش هذه المرة، تاجر جوال، بقجة القماش مثل قتب على ظهره والمتر الخشبي في يده يهش به الأولاد الأشقياء والكلاب التي تنبح على الغريب الطارق لأبواب البيوت في ساعات الظهيرة، تستقبله النساء السمينات الودودات فيهدينه أجنحة الدجاج وأكبادها ملفوفة في أرغفة الخبز ثم يفاصلنه ولا يشترين، تعلم أبي من إحباطاته الأولى أنه ليس بالضرورة أن يكون الناس كرماء ليشتروا من الباعة الجائلين ولكن العكس دائما هو الصحيح.

ثم عرف أبي زبائنه الحقيقيين ذات مرة بطريقة لم يكن يتوقعها، أصابه العطش وهو يسير من قرية لأخرى فعرج على إحدى خيام البدو الذين يقيمون في الغيطان، أراضٍ حُصدت محاصيلها وتركها الفلاحون فترة ضيافة حتى أوان الزرعة القادمة ترعى فيها أغنام البدو، قبل أن يفتح أبي فمه لينادي انبعث من بين الأغنام كلبان وصار كل طرف من ذيل ثوبه بين أسنان أحدهما، ميزة أبي أنه يزداد هدوءا مع المفاجآت، بكل الطمأنينة أخرج للكلبين من كيس طعامه بعضا من لحم الدجاج ودسه بين قماش ثوبه وأسنان الكلب واحدا تلو الآخر، المرأة البدوية التي خرجت من الخيمة لتستطلع لم تزايلها الدهشة من فعل أبي بالكلبين وهي تخبره أن زوجها ذهب ليحضر الماء العذب من القرية القريبة، خلال انتظار أبي لعودة زوجها بالماء اشترت منه كل الأقمشة ذات الألوان الفاقعة، يومئذ اكتشف أبي صنف الناس الذين سيشترون منه بكثرة، بشرط أن تكون الألوان فاقعة..

طيلة فترة تعامله مع البدو الرُّحل لم يندهش أبي من لهجتهم الخاطفة النبرات ولا من عاداتهم الغريبة ورائحة طبخهم النفاذة ولكنه اندهش: كيف يعرف البدوي جيرانه البدو على بُعد كيلومترات ويتودد إليهم، ومن ضمن تودده أنه كان يرسل معه ولده ليقوده إلى مكانهم مؤكدا له أنهم سيشترون منه، بينما لا يعرف من يقيمون في المدن الصغيرة أبعد من جيران شارعهم؟

لا تتاجر بشيء تحمله على ظهرك، هذه هي الحكمة التي خرج بها أبي من تجارة القماش التي لم يتبق منها إلا المتر الخشبي، أنهى أبي تجارة القماش وقد اختمرت في ذهنه خطوته القادمة، ولكن الدنيا لا تعطيك ما تتمناه دفعة واحدة بل على دفعات متتالية، مثل نادل ماهر في مقهى مليء بالزبائن: قبل أن يأخذ منك الكوب الفارغ يلقي في نفسك سحر المشروب التالي، أيا كان ما نريده وربما لا يكون واضحا لنا في البداية، تظل التجربة هي الفيصل في تحديد رغباتك، عشق أبي من حياة البدو ماشيتهم، رائحة الصوف والوبر واللبن المختمر على الضروع، وبالمال الذي جناه من تجارة القماش صار شريكا مع أكثر فلاحي بلدتنا في رؤوس ماشيتهم، حياة مربحة ولكنها أيضا لم تستمر كثيرا، فليس من السهل على شخص كأبي أن ينام وكل أمواله خارج جدران بيته ..

كانت لأبي قواعده المقدسة التي اكتسبها من تجاربه، إذا كانت التجارة نصف الرزق ففي الإيجار النصف الآخر، والأشياء لا يزيد ثمنها وهي في مكانها ولكن بعد أن تنتقل، حتى بعر الماشية يساوي ثقله ذهبًا إذا انتقل، ولا تختبر أحدًا في المال فكلهم سيرسبون وستخسرهم عندئذ لأن لا أحد سيعطيك شيئا دون مقابل....

تظل متعة السفر والهجرة والنوم في العراء وجوائز الطريق هي نداهة أبي التي لا يملك مقاومتها، في عمل أبي الرابع قرر أن يجمع مميزات أعماله الثلاثة السابقة، قرر أن يشتري قافلة جمال لنقل المحاصيل

والبضائع حيث كانت سيارات النقل نادرة والطرق الأسفلتية لم تمتد بعد لأعماق الريف، كبداية سيعمل في نقل الكتان إلى العصارات في المحلة الكبري كعمل دائم وفي العودة سيشتري القماش للإتجار به...

لم تبدأ الفكرة إلا عندما أخبره أحد شركائه - وهو ينهي شراكته معه محاولا أن يقنعه بالعدول عن قراره - أنه كان ينوي شراء جمال من بنها، جمال رخيصة تأتي جملة من مراعي السودان ثم يأخذها تجار القطاعي ليبيعوها في بنها، كان أبي فيما مضى يشتري بالات القماش من المحلة الكبرى، وينقلها على جملين يستأجرهما سنويا مسافرا مع تلك القافلة الصغيرة ذهابا وإيابا، تعلم بعض الأشياء عن الجمال وتشبع بالطقوس التي ملأت رأسه بالحلم، الحركة البندولية لراكبي الجمال والاستدارة المهيبة للرأس الديناصورية وهي ترمق الراكب بامتنان وخوف..

إذا كان أبي يستطيع التحدث عن شيء ما في حياته أحبه لدرجة الجنون فسيكون الجمل، رفيق رحلات الأنبياء والحجاج والصالحين، أجمل كائن في الوجود والمتبقي من ركام العالم بعد فساده صحيحا دون تغيير، وكأنه اقتُطع في الحقيقة من صخور جبل قُدُّس بخطوات الأنبياء فوقه، لونه وانحناءات جسده، ذيله الطفولي القصير وسنامه وفمه المشقوق بالطول ونبل عينه ومزاجه الهادىء، الحكيم العالم بكل شيء الصامت أبدا، في الريف تثير رؤيته بهجة أكثر مما تثيرها رؤية طائرات رش القطن وهي تطير في السماء.

الأحلام بخلاف الواقع، لا تبني من أسفل على قواعد ثابتة، ولا تهبط إلى الأرض لتبحث عنها، بل تبزغ من أعلى في ترفع وتنتظر الواقع أن يسمو اليها، لم يكن مع أبي مال كاف، ولكن عندما أخبره شريكه بموضوع الجمال السودانية لم يَدْرِ أنه وضع أساسات راسخة لبناء حلم أبي... الشيء الذي غير تاريخ عائلتي للأبد، وتاريخي الشخصي انا أيضًا.

....

قال لي أبي:

منذ أن أخبرني شريكي عن تلك الجمال السودانية بدأت الفكرة تراودني بكل أبعادها، لماذا لا أُكوّن قافلة لنقل حمولات الكتان إلى عصاراتها في المحلة الكبرى وأعود بالقماش فأبيعه لتجار القماش هنا، قمت بربط المال حول بطني في حزام من الجلد وسافرت إلى بنها، تجولت في السوق قبل أن أشتري لأعرف الأسعار، هناك اكتشفت أن المال الذي معي لن يكفي لشراء العدد الذي خططت له،سمعت بعض المشترين وهم يقولون إن سعر الجمال عند المنبع في الصعيد أرخص بكثير جدًا من سعرها في بنها خاصة إذا كنت سأشتري عددا كبيرا، سألتهم أين تُباع تلك الجمال في الصعيد، كل من يعرف لم يخبرني وبعض ممن لا يعرف نبأني أن في إمبابة سوقا أكبر من هذا السوق وتجارا أكبر وأرخص سعرا، وهناك تاجر لا يتاجر في الجمال اسمه محمود السوداني قد يخبرني بما أريده.

في سوق إمبابة سألت عن محمود فلم يعرفه أحد، أخبرتهم عن صفاته، أسود وقصير وممتلىء وتحت منه زوجتان، امرأة من دارفور السودان وامرأة من إمبابة، فأخبروني أن الصفات التي قلتها لا تنطبق إلا على رجل ينادونه العبد وأرشدوني إلى مظلته.

بمجرد أن رأى أبي سواد لونه الأبنوسي عرف أن العبد وصف وليس اسما، وجده جالسا على مقعد يدخن النارجيلة ويهش الذباب بمبسمها، ألقى أبي عليه السلام فأظهر عدم الاكتراث به، ثم رد السلام بعد أن رأى أنه لم يهتز باستقباله الجاف وجلس إلى جواره على قفص مقلوب من الجريد، لسبب لا يعلمه إلا الله لم يخبره أبي بغرضه مباشرة كما أخبر تجار بنها، بل دار ولفّ بحكاية طويلة عن زوج أخته الذي يعمل سائقا لسيارة نقل كبيرة ينقل بها الجمال من مدينة في الصعيد إلى أسواق القاهرة، وأن زوج أخته هذا اختفى منذ شهرين تاركا ثلاث بنات قاصرات ولم يُعلم عنه شيء، فأتى خلفه باحثا عنه.

- ثم بدأت أسأله عن أشياء في تجارة الجمال، فلم يرد محمود العبد ولم يفعل غير أنه أخذ يتمعن في وجهي ولا يتكلم حتى جاء وقت صلاة الظهر فقمت لأداري بالصلاة خيبة أملي وحيرتي من سلوكه معي، أشار لي أن أجلس وقام هو فتوضأ وتوجه للصلاة، ففهمت أنه يريدني أن أحرس بضاعته حتى يصلي هو أولًا، وعندما عاد سألني: ماذا تريد؟ وقبل أن أكرر ما سبق وأن قلته أشار لي محذرا: ولكن لا تكذب، ولا يصح أن تذهب للصلاة والكذب يدور في قلبك، نكّست رأسي

وهبط علينا صمت عميق، هل يمكنني أن اكذب الآن بعد ما قاله، أخبرته بحقيقة حكايتي فأمرني: قم الآن فلتصلِّ أولاً.

صليت وعدت إليه، أخبرني أن الجمال في بعض قرى الصعيد تُباع بالفعل أرخص مما تباع به في سوق إمبابة أو بنها، وأن دراو هي القرية الأمثل لغرضي، قرية كل بيوتها من الطين ولا يتاجر أهلها إلا في الجمال والغنم وألبان الإبل وتصب فيها كل قوافل الجمال التي تأتي من السودان، ولكن يجب عليَّ أولا أن أتدبر أمر نقل الجمال من هناك بعد ان اشتريها، أو أعود بها مشيا إن استطعت متبعا النيل.

بمروءة تخالف استقباله الفاتر، تمسك الحاج محمود العبد بأن يتعشى أبي عنده ويبيت معه فوافق على الفور، العشاء هو طعام اليوم عند أولاد السوق، ممبار ولحم رأس كاملة لبقرة وزوجتان متضادتا اللون تتناوبان خدمتهما كما يتناوب الليل والنهار في الإحاطة بالأرض، ثم تركا بقايا الطعام الكثير لهما ولأولادهما ليتعاركا عليه مثل قبيلة من القطط البرية، وعلى حصيرة فوق السطح كان الشاي بالنعناع لا ينقطع وأحجار النارجيلة المغموسة بالحشيش يندلع فيها اللهب الأزرق كلما وضع محمود العبد المبسم بين شفتيه لينمّ عن رئة عفية مشتاقة للحياة رغم اسوداد الأسنان بفعل السجائر، وبعد التعميرة الأولى بدأت رأساهما تخفان ويشعران أكثر بالهواء اللطيف الذي بلغ حدا من الرقة بحيث يجعل العينين تدمعان من التأثر، في التعميرة الثانية عرض عليه الحاج محمود عرضا لا يمكن أن يرفضه: أن يصيرا إخوة في الطريقة،

يُطلّق لـه إحـدى زوجتيه (الدارفورية إن وافق) ويعطيه شـطر ماله (على عقـد بينهمـا) وخلف البيت تسـعون مترًا فضاء يبتيها ويقيـم فيها على أن يسـدد ثمنهـا فيما بعـد، ضحك أبي حتى شـبع من الضحـك عندما أخبر محمود السـوداني أنه يوافق على عرضه السخيّ شرط أن يحذف منه البند الأول أو يُعدّلـه فيتزوج المصرية البيضاء ويستبقي هو معـه الدارفورية، فقـال له وهو يهـزّ إصبعه: لا، هذا هو البند الأهـم على الإطلاق، فأخبره أبي جادا أنه أحقّ من خدمة الزوجتين لهما أن زوجته الدارفورية جميلة ودافئة المشـاعر أكثر من المصرية بكثير..

فأجابـه بفخر: طبعا، ولكـنّ اللون يبحث دائما عن نقيضه ولولا ذلك لمـا استمرّ الليـل والنهـار في التعاقب خلـف بعضهما حـول الأرض، ولتوقفت دورة حياة البشر.

ثـم تنهد وغـارت عيناه فـي جمجمته كأنهمـا تسـلطان ضوءهما إلى الداخل بحثا عن ذكري بعيدة وقال:

- هـل تعرف يا فـلاح عندما يكون مجال عملك أن تسـير فـي الصحراء في النهار والشمـس فوق رأسـك لا تقطع حرارتها سـحابة ظل واحدة تجفف بها العرق، يبدو لك الليل وكأنه لن يأتي، يبدو وكأن النهار مأتم طويـل وأنت فيه الوحيد الذي يعزيه الناس وينصرفون إلى بيوتهم، كل دقيقة.. لا.. كل ثانية تريد أن تمر عليك وتذيقك جبروتها، الليل جميل بلا شك ولكن النهار ضروري لكسب العيش.

- ومـا علاقتك بالصحراء يـا حاج محمود، ألم تكن تاجـرا للجمال قبل ذلك ؟

فصاح في دهشة:

- أنا!!.. لا يا بُني، أنا كنت خبيرا من خبراء القوافل التي تسوق الجمال من مراعي السودان إلى مصر..

- خبير؟..

- مثل قائد سيارة النقل، أعرف الطريق، ولكن السيارات في هذه الطرق لا تصلح أبدا، ولن تصلح يا مصري، فهذه الطرق الصحراوية من المستحيل أن تقطعها بسيارة ومن العبث إقامة طريق أسفلتي خلالها، لن يكون الأمر أكثر من تضييع للمال والجهد في طريق ناء علاوة على أن عواصف الصحراء ستضيع معالم الطريق بسفو الرمال عليه، هذه الرحلات يقوم بها أجدادي منذ عشرات السنين، وسيظلون لمئات السنين يقومون بها، اللهم إلا إذا اخترعوا طريقة رخيصة لنقل عشرة آلاف رأس من الجمال تأتي شهريا...

صاح أبي مندهشا:

- عشرة آلاف شهريا يأتي الرعاة بها من السودان ويبيعونها هنا؟

- لا يا غشيم، ما يحدث أن التاجر السوداني يشتري مئات الجمال من أسواق الأبيض والفاشر والنهود وفي دارفور وكردفان ثمَّ يرسلها في شكل «رسائل»، وهي مجموعات من الإبل تتراوح أعدادها بين 100 و200 جمل تسافر مشيا عبر دروب الصحراء إلى الصعيد والقاهرة مع مجموعة من الرعاة يرأسهم خبير من خبراء الطرق الصحراوية يوجه

القافلة ويتحكم في سيرها بداية من الفاشر في غرب السودان، مرورا بئر النطرون وواحة سليمة ثم الواحات الخارجة وإلى أسيوط، حسب همة الرجال يقطعون الطريق في مدة أقصاها أربعون يومًا، لذا سُمي درب الأربعين... والخبير مسئول عن ترتيب طقوس البداية الخاصة للرحلة واستعداداتها، نحر الذبائح قبل التحرك، وجلب الدقيق والزيت والشاي بما يكفي لـ 40 يومًا من المسير، وهو من يحدد أماكن الراحة خلال الطريق، ويسعف الإبل التي يصيبها الوهن، فضلًا عن إرشاد الرعاة والمرافقين للتعامل مع مخاطر الصحراء ورياحها المفاجئة طوال أيام الرحلة وتنتهي مهمته عند القرية التي أخبرتك عنها، دراو وهي المحطة الثانية بعد الحجر الصحي سواء كان طريق القافلة مرورا من شلاتين أو أركين... أنا ولدت في دارفور ومنذ صغري كنت أسافر كراعٍ حتى أصبحت خبيرا...

- ولماذا تركت السفر يا حاج محمود؟

- معظم من يعرفونني يقولون إن زوجتي المصرية كانت السبب الذي جعلني أهجر بلادي وعملي، ولكني لم أكن أبحث عن نصفي المختلف عندما قررت ترك حياة السفر، اتخذت قراري فجأة منساقا خلف غضبي، في نهاية رحلتي الأخيرة قام التاجر بخصم ثمن ثلاثة جمال دفعة واحدة من أجري، أحدها مات من المرض، والآخر شذَّ والتهمته الذئاب أمام عيني، أما الأخير فهرب ليلحق بقافلة ذلك الدرويش الغامض الذي كان أعجوبة وقتنا، جادلته وجادلني وتشاتمنا

وكدنا أن نتضارب لولا اجتماع الناس علينا، ثم أقسمت أمامه أنني لن أفود قافلة بعدها.

ولم تعد إلى السودان؟

السفر يوهن خيوط ميلادك، والفقر يقطعها، برهانا لقسمي قلت لأفراد قافلتي أني لن أعود إلى السودان بل سأبتعد عن طريقها أيضا وأسافر إلى امبابة، ولتلحق بي زوجتي إن شاءت، وأخبرت الرجال في القافلة العائدة أن يخبروا زوجتي في دارفور بذلك..

سأله أبي باسما:

- وجاءت إليك؟

قال في فخر:

- مشيًا يا مصري،

بمجرد أن سمعت عن رغبتي في البقاء بمصر حملت طفلها الرضيع تحت شالها وربطت حول وسطها زجاجة من الماء ولحقت بأول قافلة جمال.

يومان في الصحراء تسير بلا هاد يهديها، تتبع بعر الإبل وما بقي من خطى الرجال حتى لحقت بهم، عندما وصلت إلى دراو الصعيد سألت عني تجار الجمال المصريين فأخبروها أنني سافرت إلى القاهرة، شهران وهي تتبع أثري وتسأل عني حتى وجدتها فوق رأسي في الليلة الثانية من عُرسي بزوجتي الأخرى تلك.

- وماذا فعلت معك؟

قال:

- الحمد لله أن أولاد الحلال أخبروها بما فعلته قبل أن تصل إلى مكاني، رغم ذلك عندما فتحت لها زوجتي الجديدة الباب ورأتني أستطلع الزائرة من ورائها وأنا بزي العُرس أُغمي عليها، تصور.. تحملت حرّ الصحراء والمشي على قدميها لأيام طويلة وسفر القطارات والبقاء لأيام دون غذاء وهي ترضع وليدها، ولم تتحمل نظرة واحدة إلى ضرتها.

أخذ محمود العبد يقهقه عاليا وارتخى الهواء حولهما بفعل دخان النارجيلة المغموسة بالحشيش فسأله أبي:

- قل لي يا حاج محمود، بجد، لماذا تركت سفر الصحراء؟..

تنهد مرة أخرى تنهيدة أشد حرارة وأعمق:

- انظر يا بني، الصحراء واللصوص والرياح والرمال المخادعة لا تمثل شيئًا بالنسبة إلى الخبير الماهر، كل ظاهرة في الصحراء لها قواعد يجب أن تسير عليها وإشارات لو أحسنت قراءتها فلن تمل الصحراء أبدا، إلا شراسة الجمال، الجمل مخلوق نادر، يقولون إنه ليس له مرارة كسائر الحيوانات، يتحمل الشدائد، ولكنه مثل الصحراء في تغيراتها، بطيئة ولكنها مستمرة وقاتلة عندما تكتمل، يقولون إن في قاع عيني الجمل عدسة مقعرة ليرى راكبه وماسك مقوده أكبر منه وأضخم

، لـو لا هـذا لالتقم رأسـه وقضمه، حتى لـو كان هذا الـكلام صحيحا، لابد أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه الجمل حقيقة راكبه وضعفه الشـديد ،المقارنة به، عندما يحدث ذلك فلا شيء يكبح شراسة طباعه وتقلباته المزاجية إلا العِشرة، الجمال التي كنا نسوقها من مزارع السودان للبيع مي دراو لم نكـن نعرفها ولا تعرفنا، إنها مجرد جمال نسـوقها للذبح، جمـال شرسـة يزيدهـا الجـوع شراسـة، فنحن لـم نكن نطعمهـا جيدا ،الجمال التي نركبها، رغم ذلك كنت أفخر بأنه من النادر أن أفقد جملا فـي أيـة رحلة من رحلاتي، قد يغفر لك التاجـر موت الجمال فالموت مـن اللـه، وعادة كان لابد من أن تفقد بعـض الجمال في الصحراء قبل أركين ويعرف التاجر ذلك من القوافل التي تأتي بعدك، فجثث الجمال تظـل على الطريق حتى تنهشـها طيور السـماء وينخرهـا الدود، ولكن هروب الجمال بسـبب غفلة الرجال أو العواصـف لا يُغتفر، الخبير لا يأخذ أجرتـه إلا على ذلك، يخصم منك التاجر ثمن الجمل الضـائع أو الهارب فلا تستطيع أن تعترض عليه بكلمة...

كل هـذه الأسـباب لا تجعلني كخبيـر متمرس أفقد الثقة في نفسـي، فأنـا مـذ بلغت مبلـغ الصـبيان أقاتـل طبيعـة الصحراء عندمـا تجتمع مع شراسـة جمال تشـعر بغريزتها أنها مسـاقة للذبح، ولكن مـا جعلني أفقد ثقتي بنفسـي هو ذلك الدرويش الصحراوي الغامض، لقاء واحد به يفعل بك ما لم تسـتطع الصحراء أن تفعله في سنوات، وأنا قابلته ثلاث مرات، لا أدري إن كان قـد مـات أم لا، ولكن لولاه ما تركت حياة القوافل، باقي

خبـراء الطريق كانوا يتداولون فيما بينهم مقولة أن ذلك الدرويش يسـرق الجمـال، ولكنـي لا أظن ذلك أبدا، لم يره أحد يتسـلل إلى متاع أو يقطع حبل جمل مقيد، كل ما رأوه أن الجمال تصاب بالجنون بعد أن يظهر في الأفـق، وربما حتى قبل أن يظهر وكأنها تشـم رائحته، يظهر عند الغروب أو الشروق فقط، يسـير وكأنه يرسـم للشمس الخط الذي ينبغي أن يخرج منه ضوؤها أو يعود، تسـير خلفه الجمال التي معه دون قيد واحد يجبرها على تتبعه، ليست جملا خلف جمل بل مجموعة كقافلة من الذئاب الشرسة، بمجـرد أن تراهـم جمالنا ترفع أعناقها وترغـي وكأنها ضبعت لجمالهم، وكأننـا لا نحمـل معنا إلا النوق، وهو.. هو لا يلتفت خلفه، لا ينظر إليها، ولا إلينا، بعد قليل يختفي وتختفي خلفه قافلة الجمال، تاركًا لنا شراسـة جمالنـا ورخـاوة الجبـال الغريـبة التي تـدب فيها وكأنها سُـحرت أو كأن أيـدي الرجال لانـت.. ورغم أنه لا تكاد تمر دقيقـة لا يرتاح الرجال فيها وهـم يسـتوثقون من قيود الجمال، فلابد أن يغافلهم الجمل ويجري مثل الريـح ويختفي، هـل تعلم، فقدت في كل مرة ظهر فيها لقافلتي ما لا يقل عـن ثلاثـة جمال، ولكن ما فقدته من ثقتـي كان أكثر قيمة لي من كل هذه الجمال، حتى وصلت لقناعة وهي أن ذلك الدرويش الغريـب ليـس سارقا للجمـال، إنه جني من جن الصحَراء، وعندي دليـل ذلك، الجن يتغذون على الجلود، النبي ﷺ قال ذلك، يتغذون على العظام والجلود، ودواب الجـن يتغذون على بعـر دوابنا، وأنا رأيت هـذا الدرويش ذات مرة يقطع جلـد جمل نافق في الصحـراء قبل وصولنا إلى أركيـن، وعندما وصلت إلى الجمل رأيت جزءا كبيرا من جلده منزوعا قطعا قطعا..

في الصباح وقبل أن يودع أبي محمود العبد سأله : قل لي بالله عليك كيف عرفت أنني أكذب عليك، قال الرجل السوداني له وهو يقلب أحجار نارجيلة الصباح المشتعلة بالماشة :

لو سافرت مثلي في الصحراء ستعلم كيف تميّز بين أعين الرجال..

....

لم يشتر أبي من سوق امبابة، شكر محمود السوداني وانطلق مسافرا إلى دراو، هناك اكتشف أن عملية البيع والشراء ليست خيارا مفتوحا لأي أحد، الجمال تأتي إلى زرائب تجار محددين سلفا ولا تخرج إلى السوق إلا باسمهم، رفض الوسطاء السودانيون البيع له خوفًا من تجار الصعيد ورفض تجار الصعيد البيع له خوفا من غضب تجار امبابة، قالوا له إن العدد محدود ومُباع كله، بعد أن توسل لأكثر من تاجر دون جدوى كاد أبي أن يعود لولا عناده، ظل واقفا في السوق حتى انصرف الجميع وبدأ الليل يهبط، أشعل رجال القافلة السودانيون نيران السمر وجلسوا حولها فشعر بالبرد والرغبة في البكاء ودعا الله أن يُحنن قلوب الخلق عليه، حينئذ تذكر شيئا بعث بالدفء في عروقه، شيئا أخبره به محمود العبد في امبابة ونسِيَه في تعب السفر وملاحاة التجار، قال له إن بعض الجمال يردها رجال الحجر الصحي عند الحدود في شلاتين بسبب اشتباه في إصابتها بالأمراض، فيكون أمامهم إما أن يبيعوها للبدو برخص التراب أو يعودوا بها إلى السودان، وفي الحالتين يظل أحد أفراد القافلة مع الجمال

المحتجزة حتى تعود القافلة من دراو، ها هي القوافل تنتظر الصباح فإذا سبقهم لابد أنه سيجد السودانيين الذين ردهم الحجر الصحي.

دار أبي حول الخيام دورة واسعة وتتبع بعر الجمال وأثر أخفافها ماشيا على قدميه، ظل يسير طوال الليل، قال لي أنه سار يومين كاملين على قدميه حتى شك أنه تاه أو انحرف عن طريقه، يسأل أهالي القرى النوبية على النيل عن طريق القوافل حتى دخل في الصحراء، من مكان ما ربما كان قرب الحدود أُطلقت عليه طلقات النيران فجرى، أخذ يجري، كان يعلم أن الطلقات الأولى لترويعه والثانية ستكون في رأسه، ربما كانوا قطاع طريق أو الحكومة أو قافلة أخرى، ربما كان الغرض من رصاصاتهم إعادته من حيث جاء أو إبعاده عنهم فقط، ليس هذا هو المهم، المهم أنه جرى بحلاوة الروح في اتجاه بعيد عن الرصاص، منبطحا مرة بعد مرة حتى تعثر، يقف وينبطح ويتعثر، في دوامة من الرمال سقط في بداية وادٍ، أو ربما كانت حفرة واسعة، مكث هناك، يلهث ويسعل ويبصق الرمال حتى هدأ نبض قلبه المدوي من شدة الخوف، كان قريبا من مساء اليوم الثالث، انتظر حتى هبط الليل، من شدة التعب سبق النوم إلى عينيه لون غروب الشمس.

عندما استيقظ كان الظلام حالكا ولكن برودة الهواء حوله والتي لم تكن قد وصلت إلى ذروتها أنبأته أنه لا يزال في أول الليل، فالبرد لا يصل إلى ذروته عادة إلا في الثلث الأخير من الليل، صعد فوق الرمال حبوا وبعيدا عن ضوء النار المشتعلة سار، بعيدا عن ضوء قطاع الطرق أو حرس الحدود، أيا كان من أطلق عليه الرصاص نهارا فلن يرحب به ليلا.

إن كان السراب في نهار الصحراء يأتي من حرارة الشمس فإن الضوء في ليل الصحراء هو السراب، صدى الضوء المنعكس على السماء الذي يبدو وكأنه يرتد إلى الأرض فيوهمك بوجوده في مكان آخر ليقودك إلى حتفك، ولكن أبي اكتشف بعد قليل أنه لم يكن ضوءا واحدا، كان عشرات الأضواء، وليهرب من كل تلك الأضواء جميعها كان عليه أن يسير في اتجاه واحد فقط.

بعد سير حثيث لمدة ساعة كاملة في الظلام لمح أبي الجمال الباركة تخرج الزبد في أفواهها، للوهلة الأولى ظن أبي أن السودانيين هم من قاموا بإشعال تلك النيران لجذب المتطفلين بعيدا عنهم وبالتالي جذب الهاربين أمثاله إليهم، ولكن لم يكن بجانبها أحد، لا خيام ولا ناس، جمال هزيلة ولكنها صحيحة البدن.

ربما كانت للبدو وليست للسودانيين.

هكذا حدث أبي نفسه، ولكن أين خيامهم ونيرانهم، البدو لا يخافون من الحكومة، ربما كانت جمالا برية، تفحصها أبي، رأى أثر القيد في سيقانها، حلقات خشنة لها ملمس الجلد الميت، أماكن الهيار كما يسميه مربو الجمال وكما تعلّم اسمها هو فيما بعد: حبل يربط الساق الأمامية بالأخرى الخلفية عندما تبرك فلا تستطيع النهوض إلا بعد أن يحله صاحبها.

كانت مَبارك الجمال في شكل دائرة منبعجة قليلا، سار أبي بين الجمال، رأى الخطام والشداد على رأس الجمل الموجود في المقدمة

مما يدل على أن هذه الجمال لها قائد واحد من البشر، قائد ذهب في بعض شأنه وتركها أو ربما مات كما يموت الناس في الصحراء من لدغ ثعبان أو عقرب ونهشت جثه الذئاب، استرسل أبي في خيالاته، ربما كانت الجمال هنا منذ أيام فالجمال تستطيع أن تظل في الصحراء دون طعام أو ماء لأيام عديدة، حاول أبي أن يتذكر كلام محمود العبد عن صفات الإبل التي تعيش في مراعي السودان المختلفة، ورغم الظلام، اكتشف أن الجمال لا تحمل لونا واحدا، إذن فقد أتت هذه الجمال من أماكن متفرقة، فبعضها بيضاء دون وبر وهي الأكثر شبها بجمال السودانين، ومعظمها صفراء تحمل اللون الكاكي الذي يشبه لون أزياءالجيوش وبعضها حزمية لونها بني غامق مع قليل من الشعر الأسود حتى أن أبي يقسم أنه رأى منها جمالا شهرية وهي جمال بيضاء ذات وبر كثيف، ولأن أبي لم يكن واثقا مما سرده له محمود العبد في تلك الليلة عن أحوال الجمال ولم يكن واثقا من رؤية عينيه في هذا الظلام لذا فقد لجأ إلى الطريقة الأخرى في تميز الجمال، نزل أبي على ركبتيه يتحسس قيودها مرة أخرى فوجدها شبه محلولة وكأن من ربطها كان يقصد أن يفعل ذلك، تحسس أوسامها وميزها، كان أبي يعلم أن الوسم (الكي بالنار) أحد طرق العلاج ولكنها أيضا طريقة لتميز جمال كل قبيلة عن الأخرى، تحسس أبي في ود لكي لا يذعر الجمال، هذه الجمال حديثة عهد بالبشر، ثلاثة جمال فقط كانت موسومة في أكثر من مكان ولكن بقية الجمال موسومة مرة واحدة، ولكنها لم تكن في مكان واحد، الأوسام هي بطاقة تعريف للجمال، بطاقات انتماء، ولم تكن تلك الجمال تنتمي

القافلة واحدة، عندئذ هبطت على أبي الحقيقة المرعبة الباردة، من يمتلك هذه الجمال إما لص أو قاطع طريق.

إذا كانت تصرفات الإنسان تسير على وتيرة واحدة لاختلفت حياة أبي تماما، ولكن توجد لحظات تعب، لحظات فضول ولحظات يأس أو أمل، لحظات انطفاء أو توهج، يستطيع الإنسان أن يتعامل مع هذه اللحظات بالتصرف السليم إذا أتت منفردة، لكن إذا تنازعتك كالحمى، وقاطعت خطوطها بداخلك كالجنون ذاته، فستعلم طعم القدر عندما يكون بعيدا عن اختيارك الذي تظنه حرا، ستعلم كيف تأتي لك أوقات تحتل مدار حياتك وتوجهه أو تتسبب في شلله، ولن يختلف تصرفك حينها عن تصرف أبي، ستنتظر أن تتفكك الخيوط من تلقاء ذاتها، ستظل جالسا بجوار الجمال حتى لو كنت تظن يقينا أن القادم إليك قد يقتلك..

لبث أبي إلى جوار الجمال حتى انتصف القمر في السماء وظهرت كثبان الرمال واضحة وضوحا فاضحا، فوق تلك الكثبان رآه أبي آتيا من الجهة التي أتى هو منها منذ ساعات، رجل عجوز لا يحمل عصا في يده كالرعاة، لا ينحدر في مشيه ولا يهرول إذا زاغت الرمال من تحت قدميه، طويل القامة وملابسه مهلهلة، لا ينظر أسفل قدميه وهو يمشي أو تجاهه بقدر ما ينظر إلى السماء، نحوله الشديد جعله أكثر شبها بفرس النبي، تلك الحشرة التي تبتهل إلى الله وهي تترصد فريستها.

اقترب الرجل منه، دار حول الجمال ولم يمرّ من خلالها، وجهه عابس، ولا يبدو عليه أنه تفاجأ به، ربما اعتاد على لجوء الغرباء إليه،

ولكن كيف وهو لم يشعل نارا؟ ألقى السلام دون مصافحة وذهب إلى الجمل القائد وفك رباط الخُرْج فوق سنامه وتناول منه كيسا صغيرا به دقيق أصفر وزق ماء مصنوع من الجلد ووضعها أمامه دون كلمة واحدة، ولم يكن أبي بحاجة إلى ضيافة من شدة جوعه، تناول حفنات من الدقيق وعندما وضعها في فمه وشرب عليها شيئا من الماء وجد لها طعم الخبز المحترق، وعندما ابتلع أحسّ بخشونتها في مريئه فسأل العجوز عن هذا الدقيق فقال في هدوء بصوت به لكنة غير لكنة المصريين:

- خبز شعير مطحون انضجته حرارة الشمس دفنا في الرمل وطُحن بين الصخور.

قاعدة أبي، لا أحد سيعطيك شيئا بالمجان، هذا في العمار فما بالك بهذا الخراب الصحراوي، سأل أبي وهو يُحكم الرباط على ما تبقى من الدقيق والماء ويناوله له:

- أشكرك جدا، أنت سوداني؟

فلم يجبه.

- إذن أنت مصري، من النوبة أو أسوان.

لم يرد عليه، هنا بدأ أبي يتوجس أكثر، تحسس المال المربوط في حزام الجلد على وسطه، وكأن الصحراوي قرأ أفكاره فقال:

- لا تخف على مالك ولا على نفسك.

قال ذلك واستدار ومشى قليلا ثم جلس قريبا من الجمل القائد.

بعد أن شبع أبي أخذ النوم والهواء الطلق بداعبانه ولكن لم يمنعه • لذا من ملاحقة العجوز بعينه وهو يتحرك بين الجمال بخفة فائقة وكأنه يحادثها ويطمئن على أخبارها، تغزل حركته بينها خيوطا وهمية كأنه يصنع الجمال زينة على صدر ثوب واسع ملقى على أديم الصحراء الليلي، ويسمعه أبي وهو يروح ويجيء، يأتي صوته مع الهواء ويبتعد متقطعا، لكنه كان صافيا لم ينسه أبي رغم ابتعاد الزمن.

اللّٰهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ التَوبَةَ الكامِلَةَ * والمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ * وَالمَحَبَّةَ الجامِعَةَ والخُلَّةَ الصَّافِيَةَ وَالمَعْرِفَةَ الواسِعَةَ وَالأنْوارَ السَّاطِعَةَ * والشَّفَاعَةَ القَائِمَةَ والحُجَّةَ البالِغَةَ والدَّرَجَةَ العالِيَةَ * وَفُكَّ وَثاقَنَا مِنَ المَعْصِيَةِ وَرِهَانَنَا مِنَ النِّقْمَةِ بِمَواهِبِ المِنَّةِ اَللّٰهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ التوبَةَ ودَوَامَهَا * وَنَعوذُ بِكَ مِنَ المَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا وَذَكِّرْنَا بِالخَوفِ مِنْكَ قَبْلَ هُجُومِ خَطَرَاتِهَا * وَاحْمِلْنَا على النَّجاةِ مِنْها وَمِن التَّفَكُّرِ في طَرَائِقِهَا وَامْحُ مِنْ قُلوبِنَا حَلاوَةَ ما اجْتَنَيْنَاهُ مِنْهَا * وَاسْتَبْدِلْهَا بِالكَراهَةِ لَهَا والطَّعْمِ لِمَا هُوَ بِضِدِّهَا * وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ كَرَمِكَ وَجُودِكَ حتى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا على السَّلامَةِ مِنْ وَبَالِهَا.

كانت النيران المشتعلة على البعد ينطفيء ضوؤها رويدا رويدا فتظهر نجوم السماء أكثر وضوحا.

- وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الإِيمَانِ بِكَ حتى لا نَخَافَ غَيْرَكَ ولا نَرْجو غَيْرَكَ ولا نُحِبَّ غَيْرَكَ وَلا نَعْبُدَ شَيْئًا سِواكَ * وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نَعْمائِكَ وَغَطِّنَا

بِـرِداءِ عافِيَـتِـكَ وانْصُـرْنَـا باليَقينِ والتَّـوَكُّلِ عَلَيْكَ وَأَسْـفِرْ وُجُوهَنَا بِنورِ صِفاتِكَ وأَضْحِكْنَا وبَشِّرْنا يَوْمَ القِيَامَةِ.

أعجـب أبي بتلك الرطانـة المنغمـة، الطريقة التي يقـول بها العجوز تلـك الأدعية، لم يكن أبي يكره رجال الديـن ولكنه لا يثق بهم مع ذلك، فسأله عندما أتى وجلس غير بعيد عنه.

- هل أنت إمام؟

قال العجوز بدهشة:

- إمام؟

حاول أبي أن يوضح:

- نعم، تحفظ القرآن والأحاديث وتؤمّ الناس وهلمّ جرّا.

هز العجوز رأسه وكأنه فهم ثم قال بعد صمت قليل:

- كنت كذلك، أو يمكن أن تقول، حاولت أن أكون كذلك ولكني لم أفلح.

تفلسف أبي قائلا له في لهجة الناصح:

- الأمر ليس صعبا لهذه الدرجة، أنت تذهب إلى الأزهر وهناك يعلمونك ويوظفونك في جامع.

نصف كلام أبي عندما يعوزه الإفهام إشاراتٌ بيده، ولكن يبدو أن عجوز الصحراء لا يفهم ولو بالإشارة، كأنهما يتكلمان في موضوعين مختلفين تماما، فقط أخذ يردد وكأنه يستطعم الكلمة.

- الأزهر... الأزهر.

صاح أبي وكأنه التقط طرف خيط:

ا.. الأزهر، تسافر في القطار وتذهب إلى القاهرة، الأزهر هناك، القطار القطار، الوابور والعفريتة.

لم أغادر هذه الصحراء منذ وقت بعيد، لذا فأنا لم أسافر بالقطار، أنا أسافر على قدمي، مع الجمال.

أنا أيضا أحب السفر بالجمال ولكن المسافات الطويلة لابد لها من قطار وإلا قضينا أعمارنا كلها في السفر.

قال العجوز لينهي الموضوع:

ربك يهون.

ونعم بالله.

قال أبي بعد قليل صمت وقد استعاد حديث العجوز في ذهنه:

- لماذا لم تفلح في أن تكون إمام جامع؟

تنهَّد العجوز:

- كنت أنتوي أن أفعل، في هذه الصحراء ضاعت سنوات من عمري أجمع المال الذي سيكفيني مؤونة ذلك، وقبل أن أتركها وجدت شيئا لا يمكنني أن أتركه وأعود.

- شيء!، فلوس؟ ذهب؟

- إنسان.

- أخوك؟ أبوك؟

- صديق.

- وأين هو الآن ؟

قال في حزن شديد:

- مات.

- ولماذا لم تترك الصحراء بعد أن مات؟

- الناس لا يموتون بموت أجسادهم، خاصة الصالحين منهم.

كاد أبي أن يخبره، أنا لا أصدقك، ليس هناك إنسان يختبئ في هذه الصحراء إلا إذا كان خلف اختبائه مال أو ثأر، قال العجوز وهو يتفحص وجه أبي:

- أنت لا تصدقني، أليس كذلك؟

ابتسم أبي دون أن يجيبه، تلك الابتسامة المميزة لأبي التي تجعلك تحبه حتى لو أخطأ في حقك لتوه.

قبل أن ينام أبي سأل العجوز:

- من أشعل هذه النيران؟

أجابه:

- أنا من أشعلها، فهذه الأيام أيام قوافل،والنار في ليل الصحراء منارة.

، لكن النيران التي أشعلتها تبدو وكأنك تُبعد التائهين بها عنك.

،العكس، أنا أتفقد أماكن النيران من وقت لآخر، وكثيرا ما أجد التائهين ،جوارها فأرشدهم، فيما مضى كنت أشعل النيران بجانب الجمال، ولكن ذات مرة ذهبت في بعض شئوني وعدت فوجدت بعض رجال القوافل التائهين قد ذبحوا منها جملا واستخدموا النيران في شيء لحمه...

بدون استئذان!

التائه لا يستأذن في الطعام والماء والمأوى، ولكني أكره أن تُذبح الجمال، هل تذبح ما يحملك على ظهره؟

- سمعت أن بعض القوافل تذبح الجمال لتحصل على الماء من معداتها إذا فقدت الماء...

فعلا، هذه حماقة أخرى أشد، الصحراء حولنا مليئة بالماء.

لا يعلم أبي في أي ثلث من الليل استيقظ، كان العجوز واقفا يصلي على الرمال، تذكر حينئذ أنه لم يصلِّ الفرائض منذ غادر البلد خلف حلمه المشتهى، قافلة الجمال، تذكّر أنه لم يكن يدخل المساجد إلا لدورات المياه المجانية، تذكر ذلك وخجل من نفسه..

في الصباح الباكر لم يكن الذي أيقظه هو الصحراوي، بل استيقظ بلسعة الشمس لوجهه، منتقلا من عالم الظلمة إلى عالم الضوء المبهر دفعة واحدة، استغرق وقتا ليستطيع أن يستكشف حركة العجوز بين

الجمال، اعتدل جالسا وهو يراقبه مندهشا، على كتفه جوال من الخيش يجمع فيه بعر الجمال بعناية، جملا بعد جمل، يقوم بفك الهيار تماما دون أن يضع أي قيد آخر على رأس الجمل، يقف الجمل حرا وينصرف عنه العجوز إلى غيره، حتى الجمل الأخير الذي قام بوضع كل القيود على ظهره مع جوال البعر نصف الممتلىء ودون أن يركبه غمزه فوقف الجمل.

- ستهرب الجمال، صاح أبي به بعد أن اعتدل.

لم يرد، نهض أبي، سار إليه، كرر سؤاله:

- لماذا تفك قيد الجمال؟، ستهرب بهذه الطريقة.

ابتسم العجوز بهدوء قائلا:

- إنها هاربة بالفعل، وأنا أقيدها في الليل فقط لكي لا يظن أحد أن لا صاحب لها.

كانت إجابة العجوز تحتاج إلى سؤال أكثر من كونها إجابة على سؤال، ولكنه لم يَبْدُ مهتما بحيرة أبي، ولا بغربته!، سار ناحية الشمس التي أشرقت ومشت خلفه الجمال دون قيد مثل كلاب مدربة، صاح به أبي.

- هل ستتركني هنا.

توقف العجوز، والتفت إليه وتأمله.

- وماذا تريد مني؟

ا.. رشدني إلى طريقي.

قال العجوز في دهشة:

- هل أنت تائه؟ ألست واحدًا من عمال المناجم، أولئك الذين يحفرون عن المعادن في معسكرات؟

- لا .. أنا أبحث عن السودانيين.

- لماذا تبحث عنهم، بينك وبينهم مسيرة أسابيع، السودان بعيدة.

- لا، لم أقصد ذلك، أقصد السودانيين الذين يأتون بقوافل الجمال من بلادهم ليبيعوها في الصعيد،ألا تعرفهم؟

- اعرفهم وأقابلهم كثيرا ولكن ليس هذه المرة، أنا متوجِّه ناحية البحر الصغير.

قال أبي وقد أشرقت ذاكرته فجأة:

- إذن ارشدني إلى درب الأربعين.

- أنت تاجر جمال؟

- لا.. أنا مجرد فلاح من الريف جئت إلى هنا من أجل أن أشتري بعض الجمال الرخيصة.

حكى له أبي بكلمات قليلة عن سوق امبابة ونصيحة محمود العبد فأشار له العجوز إلى ناحية.

- يمكنك أن تسير في هذا الاتجاه وستقابلهم حتما، ستسير كثيرا، عندما تنتهي الرمال وتبدأ الصخور انتظرهم.

قال ذلك ثم سار دون أن يلتفت، ظل أبي واقفا وهو يتابعه ببصره، في هذه اللحظات فكر أبي في خياراته، هل يذهب حيث أشار له العجوز وينتظر عودة السودانيين من السوق إلى بلادهم، أم يستمر في البحث عن الرجال الذين احتجزهم الحجر الطبي مع الجمال المريضة، أم يعود إلى امبابة ويشتري ما تيسر من الجمال بوساطة من محمود العبد، وكان العجوز يبتعد، تصعد به الرمال وتهبط ولكن الأفق يحتوي توغله ولا يُغيبه، عندئذ وبطريقة ليست داخل السياق الطبيعي لأفكار أبي المحمومة تذكر كلمات محمود العبد عن الدرويش الغامض:

- كان يمشي وكأنه يرسم للشمس الخط الذي ينبغي أن يخرج منه ضوؤها أو يعود، تمشي الجمال خلفه دون أي حبل ليست جملا خلف جمل بل مجموعة كقافلة من الذئاب.

....

وكما حكى لي أبي باختصار رغم فضولي في هذا الجزء من حكايته، لم يكن قراره باتباع عجوز الصحراء وليد خوف من أن يضيع في اتجاهات الصحراء، بل كانت رغبة خالصة من أية شوائب، لقد رأى أبي في اللحظة التي كاد فيها العجوز أن يغيب في الأفق ما لم يره أحد من خبراء القوافل الذين تناقلوا حكاية الدرويش الغامض عن أنه سارق لجمالهم، رأى ما لا يمكن وصفه ولا يستطيع أن يفهمه خبراء القوافل بحكم مهنتهم التي

أدهم أن الجمال للبيع والذبح وللمرض الذي يفتك بها، رأى ما كان على استعداد لأن يتبع الدرويش الغامض لآخر الدنيا لكي يتعلمه منه.

قال لي أبي:

الجمل يا مصدق كائن جميل مثل طير ملون نادر، ذكي مثل الفرس، وفي مثل كلب، وحُرٌّ مثل قيظ الصحراء، وهذه الأشياء لا تُذبح كما قال الدرويش..

لم يندهش الدرويش عندما لحق به أبي، سارا كثيرا دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وعندما دخل الليل كانا قد اقتربا من منطقة مليئة بنباتات شوكية متناثرة، توقفا وسرحت الجمال بين الشوك تلتقمه بأفواهها، أما الدرويش فوقف في أول الشوك وسمعه أبي وهو يهمس:

اللَّهُمَّ إنَّا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ تَعلَمُ بِما نَعْلَمُ فكيفَ لا نَعْجَزُ عَنْ ذلِكَ مِنْ حَيْثُ لا نَعْلَمُ بما لا نَعْلَمُ وَقَدْ أمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا * وَالمَدْحَ والذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا * فَأَخُو الصَّلاحِ مَنْ أَصْلَحْتَهُ * وَأَخُو الفسادِ مَنْ أضْلَلْتَهُ * والسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ أغْنَيْتَهُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ * والشَّقِيُّ حَقًّا مَنْ حَرَمْتَهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤالِنَا مِنْكَ * وَلا تحرِمْنَا مِنْ رَحْمَتِكَ مَعَ كَثْرَةِ سُؤالِنَا لَكَ * وَاغْفِرْ لَنَا إنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *.

ثم صاح الدرويش في أبي:

- انتبه للثعابين والعقارب، لا تؤذها لأنها لن تبدأك ما لم تبدأها.

سأله أبي مستأنسا وهما يتعاونان في تطهير دائرة من الشوك بأيديهما.

- بماذا كنت تهمس؟

- أدعو الله بشيء علمه لي رجل كفيف.

- ما اسمه؟

- من؟

- الرجل الكفيف.

- أبو الحسن.

ابتسم أبي:

- وما اسمك ؟

- مؤمن.

- عاشت الأسماء يا حاج مؤمن، وما اسم صديقك الذي توفاه الله.

- مصدق.

قال أبي في نفسه: ما أجمل هذين الاسمين.

في الليلة الأولى والثانية ناما في العراء ولكن في الليلة الثالثة وبسبب برودة الجوّ نصحه العجوز:

- نم بجانب الجمال فإن حرارة أجسادها ستدفئك في الثلث الأخير من الليل.

ا، ناتي أنت أيضا لتنام؟

لا . أنا لا أحتاج إلى النوم كثيرا كما تحتاج أنت، عندما تصبح في مثل سي ستعرف.

لا أتكلم عن النوم فقط، أتكلم عن البرد.

، لا البرد أيضا، لأنني أصلي، إن البرد ينزل من السماء في الثلث الذي ينزل فيه الرحمة من الله، والرحمة دفء لا يعادِلُهُ دفء في الدنيا.

في الطريق علمه العجوز كيف يقرأ الاتجاهات من النجوم ويتأكد د شروق الشمس منها، علمه أن يحمي أنفه وفمه من ذرات الرمال التي سترهقه في السير الطويل وكيف يقرأ الإشارات والآثار وكيف يحصل على الماء من نباتات الصحراء، وعلمه كيف يشعل النار التي كانا في حاجة لإشعالها ليلا كلما اقتربا من البحر وزادت برودة الجو، علمه كيف يتودد إلى الجمال لتحبه، وإلى الكائنات الأخرى ليأمن شرها، علمه الأدعية التي تقيه من لدغات العقارب والثعابين وتشفيه من سُمِّها إن لُدغ.

في مسيرهما لم يمرا خلال قرية واحدة في الصحراء وإن رأى بعضها يلوح على البعد، بدأ أبي يواظب معه على الصلاة، يؤذن أبي ويقيم ويصلي العجوز بهما إمامًا، تعلم منه حزب البر وعندما اقتربا من البحر حفظ منه أيضا حزب البحر.

- وهبْ لنا ريحًا طيّبةً كما هي في علمك * وانشرها علينا من خزائنِ رحمتِك * واحمِلنا بها حمل الكرامةِ مع السلامةِ والعافيةِ في الدين

والدنيا والآخرةِ * *إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* اللهم يسّر لنا أمورنا مع الراحةِ لقلوبنَا وأبدانِنا * والسلامةِ والعافيةِ في ديننا ودُنيانا * وكن لنا صاحبًا في سفرِنا * وخليفةً في أهلنا * واطْمِس على وجُوهِ أعدائِنَا وامسَخْهُم على مكانَتِهم فلا يستطيعون المُضِيّ ولا المجيء إلينا*.

ثم قال له العجوز في صباح يوم:

- عُد إلى أهلك فأنا أريد أن أخلو بمن أنا ذاهب إلى زيارته.

- سأنتظرك هنا؟

- لا.. ربما انتظرتني للأبد، عُد، لا تكلف نفسك فوق ما تطيق، وسأنصحك بنصيحة صاحبي الذي أنا ذاهب إلى زيارته.

لم يكن أبي في حال يسمح له بالاستماع إلى نصائح، كان كمن يُنتزع من حلم جميل ولكنه قال:

- وما هي ؟

- لا تسافر إلا في طلب العلم، وعندما تفعل ذلك لا تلتفت لشيء آخر حتى لو كان ذهبا ملقًى على الطريق، فإن من اعترض على أحوال الرجال لابد له أن يموت قبل أجله ثلاث موتات أُخر، موت بالذل، وموت بالفقر، وموت بالحاجة إلى الناس ثم لا يجد من يرحمه منهم، خذ نصف هذه الجمال لك، ليس ثمنا لصحبتك لي ولكن عرفانا للقدر الجميل الذي أتى بك إلى المكان الذي التقينا فيه فأنا قد أحببتك.

وهنا سأله أبي السؤال الذي تاق إلى طرحه عليه طيلة رحلتهما:

وكيف أتحكم بها من دون حبال كما تفعل؟

قال العجوز في ابتسامة هادئة مريحة مثل شاطىء بحر لا موج غادر فيه:

اعلم أنه لا يوجد خير مطلق ولا شر مطلق حتى في الكائنات المأمورة، والجمال تشبه صفاتك الحسنة وصفاتك السيئة، أما هذه الصحراء فتشبه نفسك التي بين جنبيك، واسعة ومتشابهة المعالم، قد يبدو اتساعها مُهلكًا ولكن تشابهها بسيط رغم ذلك، وصفاتك فيها حرة طليقة طالما بقيت في صدرك ولم تعامل بها الآخرين، ولكن متى خرجت لم تعد ملكك، بل صارت محل اختبار، فإذا أحببت نفسك أحبتك صفاتك السيئة منها فلا تخذلك أمام الناس، فالصفات السيئة جيدة في باطنها إذا أحسنت فهمها.

ثم تنهد قائلا:

- إذا خرجت هذه الجمال من الصحراء ستهرب منك، لن يوقفها قيد حبل، لن يوقفها إلا أن تحبك، ولن تحبك إلا إذا أحببتها، معك مسافة معقولة لتسكب حبك في قلوبها، اعتبر هذه الجمال صفاتك السيئة، عاملها في السر كما تحب أن تظهر صفاتك الحسنة في العلن..

أخذ العجوز يمر على بعض الجمال، يمسح على موضع الخطام منها برقة شديدة ويقرب رأسه منها وكأنه يهمس لها، ثم ربط حبلا حول رأس جمل أصفر وأعطاه طرف الحبل وقال:

- هذا الجمل الأصفر لا تُهِنْهُ ولا تضربه ولا تذبحه ولا تَبِعْهُ لأحد، أقسِمْ على ذلك.

أقسم أبي أمامه، ثم قال العجوز:

- الجمال من أحكم الكائنات، خجولة وغير ثرثارة، لذا يشق بها كل الحيوانات الضاري منها قبل المتآلف، لو اكتسبت حبها فكأنك كسبت حب كل الحيوانات...

عندما تصافحا أكبَّ أبي على يده يريد أن يقبلها ولكن العجوز سارع بتقبيل رأسه، شعر أبي بأنفاسه فوق رأسه، لها ثقل الصمغ ورائحة عطرية مثل صفحات كتاب قديم مليء بالحكمة فارتعد جسده غصبا عنه وانسكبت الدموع من عينه دون جهد.

قال له العجوز: خذ الجمال وامش أنت أولا، لئلا ترتبك الجمال المتبقية.

عندما جذب أبي حبل الجمل الأصفر سارت خلفه الجمال التي همس لها العجوز، نصف الجمال تقريبا دون حبال، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأى فيها درويش الصحراء..

....

الفصل الثالث

خليفة يذهب في رحلته الأولى

الطفولة هي الإيمان بليونة فائقة للعالم، فراشات تركب المناطيد في الأعالي، وأسماك تقود الفلوكات عبر شلالات هادرة، وجمال تستقل القطارات من الصعيد إلى سلم بيتنا، وفي طفولتي سألت أبي كيف استطاع أن يُقنع الجمال بأن تركب معه في القطار، ضحك وأخبرني أنه عاد بها مشيا من الصعيد، مسافة تستغرق أسبوعين على الأكثر ولكن أبي قضاها في سنة كاملة ذهابا وإيابا، ومكوثا في الصحراء مع هذا الدرويش الغريب.

في هذه السنة وُلد خليفة وفُطم وحبا وثغا بحروفه الأولى، وذاقت أمي مرارة فاقت مرارة الترمل، وإن لم تفقد الأمل تماما، خيوط طويلة وثقيلة تلك التي كان على أمي أن تجذبها بقوة شوقها لتستحضر أبي فعليا بعد أن استحضرته آلاف المرات في المجاز، وكأنها لعبة من لعب البازل، ترص فيها أمي حضور أبي في فضاءات البيت وفضاء الوقت،

بعـدد كل صبـاح وكل آذان يرتفـع وكل غـروب، بعـدد كل صيحـة غيـر مفسـرة تسـمعها في الشـارع تظنها بشـرى عودته، ماكثة كل نهارها تنسج سـيناريوهات عودته آتيا مـن خلف كل جدار وباب مثـل عنكبوت جائع فـي فضـاء ليـس فيـه ذبابة ضوء واحـدة، تنظر للنوافذ في أمل واسـتجداء وكأنها تسـتنطقها، أيها ستسـمع منها صوت أبي في الشـارع عندما يأتي، هل سـينادي أم سـيهرع إليها،الشـك يدفعـه اليقين واليقين يدفع الشـك مثل أخوين متشـاكسـين ولدا من رحـم واحد، ولكن اليقين المتفرد الذي لا شك معه أن أبي في حال عودته سيعوضـها عن غيابه الطويل...

ذات ظهيـرة فوجئـت أمـي بمـن يناديها من أسـفل نافذة غرفـة النوم المطلة على الشـارع، نظرت فرأت جِمالا ورجلا أسـمر اللون دقيق العود يرتدي ملابس بيضاء ولكنها متسـخة، الصـوت ليـس هو الصوت والجسد ليـس الجسـد، ولكن بلابل الشـوق صدحت، وسـرى النمل في أوردتها بدلا من الدم، منذ ذلك الوقـت - أخبرتني أمي - تصيبها تلك الدوخة في أوقات الظهيرة إذا سمعت صوتا غريبا في الشـارع..

لم يتبدل الحال كثيرا بعد عودة أبي، وكأن الصحراء ألقت بجرثومتها في صـدره، اعتكف في غرفته لا يخرج منها إلا إلى حوش البيـت الخلفي ليسـقي جماله ويضع لها العلف ثم يعود، متحاشـيا لقاء أمي فإذا صادفها ظلـت نظراتـه زائغـة والكلمـات تتردد فـي حلقه مثـل ريق مـر لا يبلعها ولا ينطقهـا، ولـولا مـرض الجمـال بعـد شـهر مـن إقامتها فـي الحوش الخلفي ما عاد أبي إلى طبيعة تواجده داخل البيـت...

صار لزاما عليه أن يظل بجوار الجمال، يدهن جلودها بالكامل بخليط ساخن من القطران والزيت الراجع وكبريت العمود والملح ثم يتركها في الشمس طيلة النهار وعندما يجف مع ظل الغروب يكشطه ويعاود الكرة مع شروق شمس اليوم التالي، تحوم أمي حوله طيلة وجوده في الحوش، عيناها عصفوران صغيران لا يطمئنان للهبوط على قشرة وجهه الخادعة خوفا من أن تتشقق عما لا تتوقعانه، فضلا عن أن يمارسا التقبيل والمداعبة.

في اليوم الثالث من مرض الجمال جاءت أمي وهي تحمل خليفة بين ذراعيها ووقفت خلف أبي، لم يرها أبي أو أنه تجاهلها، بعد قليل وضعت أمي خليفة على الأرض واسندته إلى ساقها، كان الوقت بعد العصر بقليل وأبي كان مرتديا الشورت القماشي الطويل والصديري نصفي الأزرار المستعارة الكثيرة، وذراعاه المشعرتان تروحان وتجيئان بالمكشطة يزيل بها طبقة القطران من فوق أحد الجمال، ظلت أمي واقفة هناك، تعيش وقتا خارج الزمان والمكان، مخدرة ومشدودة إلى حركة أبي حتى افاقت على صوته وهو يسألها:

- لماذا سمَّيتِهِ خليفة؟

تلجلجت أمي فكرر أبي السؤال بصيغة أخرى دون أن يلتفت:

- من سماه خليفة؟

- سماه خاله.

كان خالي هو الأخ الوحيد لأمي، طفلها الأول المدلل الذي لم تكن ترفض له طلبا، وكان هذا سببا منفردا بذاته ليغضب أبي، فضلا عن تسميته لخليفة أخي بهذا الاسم..

ساد صمت ملتبس بينهما، ودون أن تنتبه أمي ترك خليفة الاعتماد على ساقها وقذف بنفسه إلى ساقي أبي كأنه يريد أن يزيل هذا الالتباس. وفوجئ أبي بالأصابع الصغيرة تلمس ساقه المكشوفة فجفل وكأن عقربا لدغه فترها قاذفا خليفة للخلف ليسقط على ظهره، واندفعت أمي لتنحني عليه، وتحرك أبي حانقا ناحيتهما، لم تتوقع أمي حتى بعد أن شعرت بالضربة الأولى تصفع ظهرها، وأبي يصرخ فيها حانقا:

- وكيف سيطيعني إن لم أكن أنا من سميته؟

ولم ترد أمي، ليس لأنها لا تستطيع أن تعلل لأبي، بل لأنها في تلك اللحظة شعرت أن أبي لا يضربها بسبب اسم خليفة ولا بسبب غضبه من أخيها الوحيد المدلل، كان يضربها بسبب الشيء الذي ظل حبيس صدره لا يستطيع أن يبوح به طيلة شهر كامل منذ عاد من الصحراء، كأنه يفرغ سموم صدره على ظهرها، لذا لم تهرب وانحنت على خليفة لتحميه من الحنق الأعمى وعشوائية الضربات المقبلة..

كانت المرة الأولى والأخيرة التي يضربها أبي فيها..

....

ـا من مـرة ذكر لي أبـي رحلـة الصحراء بلهجـة نادم، ربمـا تداول
امى تلـك المقولة عن أبـي، تاه في الصحراء سـنة كاملـة، ولكن من
ـايـات أبـي التـي حكاها لي كنـت أعلـم الحقيقة، لقد ظل أبـي تائها
ـلة حياتـه حتى ذهب إلى الصحراء فعثر على نفسـه هناك، قال لي إنه
ـد أن عاد وفي خلال فترة بسـيطة صـار أشـهر جَمّال في كل محافظات
ـلـا، بالمال الذي كان ينتوي شـراء الجمال به اشـترى بضـائع وتاجر
ـن محافظـة لأخرى، عُرف عنـه أنه يسـتطيع قيادة جمالـه دون حبال،
ـير الجمـال معه بـدون قيد خيطا واحـدا لا ينفـرط، وكان الفلاحون
ـرجـون لمشـاهدته عند مـروره على القـرى كما يخرجون لمشـاهدة
ـواكب العُرس وموالد النبي..

ولـسـبع سـنوات ظل خليفة هو الابن الذكر الوحيد لأبي دون منازع،
أربع إناث من بعد ولادة خليفة سـماهن أبي كلهن بأسـماء بدأت بحرف
الميـم الليـنـة مخالفا الإيقاع القوي لحرف الخاء في اسـم خليفة، ثم جاء
ـؤمن وأنا، أيضـا بدأ اسـمانا بحرف الميم..

سـلوك أبي مع خليفة بعد ميلادنا لم يتغير كثيرا عن ذي قبل، بل ربما
زادت ضـراوته، اعتاد أبي على احتقار خليفة، التصـغير من شـأنه، إلصاق
كل الصفات السـيئة به، خليفة هو الاسـم الأول الـذي كان أبي ينطقه إذا
اسـتيقظ من نومه، يبصقه خـارج فمه عدة مرات كطعم مُـرّ بات في فمه،
ربمـا قبل أن ينـادي على أمي، أيـن خليفة، أين ذهـب، مـاذا يفعل، وكأنه

بشك لو أنه غفل عنه لحظة لأشعل النار في البيت رغم أن كل شقاوات الطفولة كانت منسوبة لمؤمن، ولكن المتهم الأول فيها غالبا كان خليفة، أما أنا فلم يكن دوري يتجاوز الشهادة، يوم أن أشعل مؤمن النار في مرتبة سريره استدعاني أبي بعد أن استجوب خليفة فأقسمت له أن مؤمن هو من فعل، ترك أبي السؤال عن مؤمن وأخذ يستجوبني عن خليفة، أين كان وقتها ليمنع وقوع الحادث أو ليطفىء النار التي أشعلها مؤمن!!..

كانت لأبي طريقة غريبة في عقابنا، نال خليفة القسط الأكبر منها بصفته المتهم الدائم، يمد يده للمذنب منا وكأنه يريد أن يصافحه، أي يد كانت تتضاءل في يد أبي حتى لو كانت يد رجل بالغ، علاوة على قساوتها أورثه العمل يدًا وكأن الجلد واللحم فيها استحالا إلى عظام من الجيرة والاحتكاك، بمجرد أن يطبق أبي يده على يد الواحد منا يبدأ عقابه، تدريجيا يقوم بهرس يدك حتى تتداخل سلاميات الأصابع في بعضها البعض، يد مثل ضمة القبر على كافر زنديق، لا يعبأ بصرخاتك حتى يستوفي غل صدره حتى لو سمع طقطقة العظام، ثم يلفظها كما يلفظ الثعبان بقايا عصفور مهضوم، وذلك دون أن تفارق أبي ابتسامته الوادعة قط.

التحق خليفة بالمدرسة متأخرا ثلاث سنوات كاملة، منعه أبي من الذهاب بعد وصوله للسن القانونية تعسفا، ولكن أمي قدمت له في المدارس خلسة عن أبي ودون موافقته، نصحتها بذلك مدرسة شابة كانت تأتي من حين لآخر لتشتري منها بيض الدجاج الزائد عن حاجة

،، وحملت عنها مؤونة تقديم أوراق خليفة وشراء كتبه بعد أن
. . ت لها أمي نصف بيض دجاجاتها الأثيرة، ولعدة سنوات استطاعت
' ي أن تخفي السر عن أبي، ساعدها في ذلك سفره المستمر، والخطة
' ي مذاها بدقة حتى عند عدم وجود أبي في البيت، يخرج خليفة خلسة
. لابس البيت، يذهب للنافذة التي تطل على الشارع وينتظر، تُسقط له
' ي شنطة كتبه وملابس المدرسة الموحدة بواسطة حبل تربطه فوق
طح دارنا، ومثل الأميرة ذات الشعر الطويل في الحكاية تقوم بسحبها
، حتها بعد عودته، ولكن أبي لم يره في ذهابه إلى المدرسة أو عودته
. منها، بل لمحه ذات يوم يقرأ فوق السطح في كتاب الصف السادس
الإبتدائي، سأل خليفة فتلجلج، ثم اعترف له بالحقيقة كاملة.

لم يخبر خليفة أمي باكتشاف أبي للأمر لكيلا يفزعها، ظن أن كل
شيء سيكون بخير ويمر لسكوت أبي الفوري عنه وعدم توبيخه، ولكن
أبي كان قد قرر معاقبتهما بطريقة لم تخطر لهما على بال، في الصباح
التالي انتزعه من نومه ودون أن يغسل وجهه إلى ظهر أحد جمال قافلته
الصغيرة، وقبل أن تشرق الشمس كانا قد غادرا الطريق الزراعي، قرر أبي
أن يصطحب معه ابن الخمس عشرة سنة في رحلاته..

استيقظت أمي ولم تجد لا أبي ولا خليفة، لم تفزع، ربما زادت عدد
دفات قلبها وقوتها لدرجة جعلت ارتعاشات النبض في شرايين خديها
واضحة للرؤية، تبحث في الساحة الخلفية للجمال فلا تجدهما ولا

تجد الجمال أيضا، توصي إحدى الجارات برعاية بناتها لتلحق بأبي متعللة بأنه نسي الخبز الذي سهرت على خبزه لهما، تتمم ارتداء غطاء رأسها في الشارع، تهرول حين تأمن نظر المارة إليها وتبطئ أو هكذا تظن عندما تشعر بنظرات الناس إليها، ثم وجدت نفسها خارج بنيان البيوت، تلمح إحدى الفلاحات اللواتي تعرفهن، جالسة تحت شجرة جميز على زمام أرضها، تبيع الليمون للمدرسين وموظفي مجلس القرية، تعرج عليها وتسألها:

- هل مر أبو خليفة من هنا؟، لأنه نسي شيئا ولم يأخذه معه، أريد أن ألحق به، أرسلت له خليفة ولكني لا أعرف هل لحق به أم لا ؟

أكدت لها المرأة الفلاحة رؤيتها لخليفة على أحد الجمال ولكنها لم تذكر لها أنها رأته يبكي شفقة بها.

جلست أمي إلى جوارها وهي تصنع اللهاث وتقول:

- الحمد لله أن خليفة لحق به، دائما ما كان يقول لي أريد أن أسافر مع أبي يا أمي..

لم يكن باستطاعة أمي أن تكذب على أحد بدون مضاعفات أو آثار جانبية، تبلع ريقها كثيرا ولا تصوب النظرات إلى الوجه، قالت الفلاحة في ثقة وخبث من يعلم خبايا الأمور:

- عودي إلى بناتك، لن تلحقي بهما.

م بك أمي، ولكن أبخرة الدموع التي كتمتها صعدت إلى عينيها ... الكبرياء مؤلم !!، تطلب من المرأة أن تزن لها من الليمون، ثم ... أنها خالية الوفاض من المال، فتزداد حالة كبريائها سوءًا، ولكن ... الفلاحة تُصر على أن تأخذ الليمون دون ثمن..

على عكس أمي، وبعد كبرياء الساعة الأولى أخذ أخي خليفة في ... بكاء صامت مثل عرق الوجه، تجاهل أبي بكاءه، في الأرض ... بدأ يعلمه كيف ينيخ الجمال وكيف يضبط حمولة الكتان فوق ظهورها بعد أن يرفعها الفلاحون، وكيف يربط الحبل (بوزو في عبو) ... ونثر من عقدته دون أن يُحرق في الرباط لكيلا يتعسر فكها فيما بعد، ... الظهيرة كانت الحمولة قد استوت بالكامل على ظهور الجمال، ... أخي بطنه من طعام الفلاحين الشهي وأعطوه بقشيشا جيدا وبعد أن ... يقظ أبي من قيلولته استأنفا رحلتهما.

الجمال ليست مثل البشر، إذا سارت في طريق حفظته من المرة الأولى، كان هذا هو أول درس تعلمه خليفة عن الجمال، الدرس الثاني كان هو الدرس الأقسى والأخير لأخي، عند قدوم الليل وفي أرض خلاء قام أبي بإناخة الجمال في وضع دائرة، قال له إن حرارة أجساد الجمال ستدفئها في الثلث الأخير من الليل، نام أبي وظل خليفة متيقظًا، عانى من هواجس لا ترحم، أفاعٍ تدب في الأرض وصخور تسقط من السماء وجن عنيد يجذب الغطاء عن وجهه، مارس العادة السرية لأول مرة في حياته متبعا الطريقة التي وصفها له ولد في الصف الثالث الإعدادي،

ربما لـم ينجح في المرة الأولـى ولكنه وجد فيها عزاء وتسـلية، مرة بعد مـرة حتى اسـتُهلكت قواه ونام، قبل شـروق الشـمس أيقظه أبي وصل الفجر وانطلقا ليطعما الجمال، ولكن الجمـل الأصفر الوديع الذي كان مـن نصيـب خليفـة في الخدمة بـدا وكأنما تلبّسه جنٌّ ليلـي، حاول أولا أن يعـض خليفةعندما اقترب منـه ولكن خليفة ابتعد عنـه خائفا ثم عاود الاقتراب فرغى الجمل رغاء شديدا لفت نظر أبي إليه، وقبل أن يستوعب مـا يحـدث رأى كتلـة الجمل تنتصـب واقفة والجمل يشـدُّ فـي الجري خلـف خليفـة حاملا حمولتـه كاملة من الكتـان، ومثل ولد في سـنه ترك نفسـه للفزع الكامل يقوده، ولكن الجمل لحق بـه وتمكن من محاصرته عنـد ترعة ماء، أخذت قدما خليفة ترتعشـان ارتعاشـا خريفيًا وهو يُفلت من رأس الجمل مرة بعد مرة يحاول أن يدفعه ليطأه بأخفافه في الأرض، ومـن بين أنفاسـه المتعثرة ورغاء الجمل سـمع خليفة صيحـات أبي من بعيـد وهي تأمره بالقفز فـي الماء، لا يعرف أخي خليفة السـباحة، ولكنه لم يتردد بسـبب خوفه وغضـب الجمل الذي لم ير لـه مثيلا من قبل،قفز في الماء ولم يتركه الجمل رغم ذلك، برك على ذراعيه ومد عنقه الطويل محـاولا أن يصـل إلى خليفـة ليعضـه، لولا وصـول أبي إلـى خليفة قافزا خلفه في الترعة ليغمره بالكامل في الماء حتى ابتل رأسـه..

- اغتسـل والحق بي.

فـي خزيـه وبلله وأبـي يحرقـه بالنظـرات في ذهابـه وإيابـه خلع كل ملابسـه وأعطاه أبي سـروالا طويلا له وصل إلى مـكان ثديـه وترك باقي

. ه.ه العلوي عاريا، ثم مضـغ لقيمات ببعض من مـرق المش، الغريب الحمـل الأصـفر عـاد وديعا وكأنه لم يكن يطارده منذ دقائق ولم تنشـأ ..ا، ة بينهما قط، أخبره أبي بالسر بعد أن عادا للسير في الطريق الزراعي، . غضب الجمل منه، فالجمال تعرف الجُنب ولا تطيقهم، لذا إذا احتلم . ـر الجمـال ليلا وهو نائـم يجب أن يتـوارى بعيدا فيصب الماء فوق .سده ولو كان في أشد برد الشتاء، وهذا الجمل الأصفر بالذات سريع الغضب وتثيره رائحة الجنب حتى الجنـون، علم أبي ما سـتره الله عن ' مي ليلا من فعل، ومضيا في رحلتهما.

* * *

أحبَّ مؤمـن - الذكـر الأوسـط لأبـي - الرحلـة، ولكنـه لـم يحب الجمال، وأحبه أبي لسـببين، أولا لأنه يصلي بانتظام، ثانيا رغم أنه يهرب .ن المدرسة ليسافر مع أبي كان متفوقا في دراسته، الحقيقة أن مؤمن كان .ستعدا للتضحية بأي شـيء بعد أن فتنه الطريق وصدى الصوت في آبار السـواقي والأسماك وهي تسبح مجموعات في ماء الترع الصافية، أحب قرب الأشـجار العالية منه - أشـجار التوت والجميز - لدرجة تمكنه من التقاط ثمارها والتهامها دون مشـقة التسلق وجروح السـاقين والذراعين، والتقـاط أفـراخ اليمام والعصافيـر باليد بدلا من ضرب أعشـاشـها بالنبل لإسـقاطها، عـلاوة علـى كـرم الضـيافة لأصحاب القـرى والبيـوت التي يمرون بها في الطريق، ولا شـيء يضاهي نظرات الإكبـار التي يرمقه بها

الأولاد المتجمهرون في أفواه القرى ليشـاهدوا قافلة الجمال ويغنوا له ويصفقوا (الجمل أبو قلة.. راح المحلة)، ورغم صمود مؤمن مع أبي في رحلات الجمال سنين مراهقته حتى كبر إلا أن أبي وبالعدسة المكبرة له في اكتشاف عيوبنا الخفية اكتشف عيبه، عنيف مع الجمال أكثر مما يجب، يسهر جيدا ولكن لا يستطيع أحد أن يوقظه إذا نام، لدرجة أنه كان يضطر إلى أن يربطه إلى رحل أحد الجمال ويجره على الأرض ليوقظه

أما أنا فقد اعتاد أبي أن يسميني البنت الخامسة لشدة التصاقي بأمي، وعلى الرغم من أن علاقتي به لم تكن تشبه علاقتي بها إلا أنني عرفت الكثير عن وجهه المضيء الموجود في الجهة البعيدة من حياتنا، في بداية طفولتي بدا لي كزائر يأتي ويذهب ويسافر كثيرا، أسأل أمي عنه فتخبرني أنه ركب الجمال ليجوب العالم، رغم غيابه لم يفتقد الجانب الذي تحمست له بشدة: يعود في كل مرة محملا بالهدايا: العجوة وأكواز السكر المخروطية الصلدة التي تضطر أمي إلى (دشدشتها) بيد الهون النحاسية لنستطيع استعمالها ونوعان من حلوى بنية اللون يعطينا من أحدهما بسخاء ويخبيء النوع الآخر تحت وسادته وينهرنا إذا اقتربنا منه، وجبن أصفر لم أذق مثله في حياتي وزيت زيتون وتين جاف وتمر وبهارات، كان أبي لأيام بعد عودته ينام نوما متصلا لا يقلقه شيء إلا الجوع والبول الذي يعالجهما مغمض العينين، ولم يكن أحد يجرؤ على فتح باب غرفته مهما كان ولأي سبب وهو نائم، إلا أنا، كنت ضئيل الحجم في طفولتي، مبططا مثل سمكة الأنومة النيلية أتسلل من فرجة الباب التي تكفي لمروري دون أن يصل الأمر إلى الحد الذي (تزيق) فيه

ص .لات أو تزداد فتحة الباب فيقلقه الضوء، أظل واقفا أتأمل ملامح
وه النائم المتعب، أود أن أتحسسها بيدي لأنفض كدر التعب عنها،
.. إيقاع تنفسه فأعلم أنه يحلم في نومه، ولكنني لم أكن أعلم أن في
.. الحلم طفلا صغيرا مثلي يتأمل في وجهه وهو نائم، ذات مرة قرر
ن أن يستيقظ من نومه وينظر لهذا الطفل، فتح عينيه ودعاني لأتسلل
.. ما تحت الغطاء معه، إلى أحضانه، أخذ يشد عليَّ إلى ضلوعه بقوة
ن تأوهت وأخذ يحكي لي عن مغامرات رحلته، حكاية محمود العبد
.. ويش الصحراء وقافلة الجمال والعهد الغريب الذي أخذه على نفسه
لا يذبح الجمل الأصفر.

وفى أبي بعهده مع الدرويش بل فعل ما هو أكثر من ذلك، ولا واحد
ن الجمال العشرين ذبحه أو باعه، بل ماتوا جميعا واحدا تلو الآخر ميتة
ادئة في المكان الذي أعده لهم كمقبرة...

في صباي كانت أمي ترسلني إلى هناك بالطعام والماء لأبي، مستطيل
الي في منتصف فداني أرضنا الزراعية، يعرف أبي علامات موت
الجمل قبل أن يموت، يتجمع الذباب على الجمل بكثرة ويرفض أي
طعام غير أن يشرب العسل الأسود، فإذا رأى ذلك من الجمل اصطحبه
إلى هناك وأناخه وظل معه يهش عنه الذباب حتى يدركه الموت ولو ظل
هناك أياما بلياليها، ثم يغطيه بعد أن يموت بقش الأرز ومشمع بلاستيك
سميك من النوع الذي تُغطى به الأسطح لمنع تسرب الأمطار ولا يعود
ليكشفه إلا بعد أن تأكله الديدان ويصبح عظاما بيضاء...

لا أتذكر أي الحدثين سبق الآخر، موت آخر الجمال أم توقف أبي عن السفر، لكن الحدث الأكثر تأثيرا في حياتي هو مكوث أبي في البيت، مع استمراره في النوم بغرفته المنفصلة. صارت غرفته البعيدة عنا حرما مقدسًا، غير مسموح حتى بأن يقع ظلك على الباب أثناء مرورك، وتوقفت أنا منذ بلغت عن التسلل إلى أحضانه ليحكي لي الحكايات، كان الدور عليَّ إذا استمر أبي في رحلاته، لا أعرف أي خيبة جديدة كنت سأورثها لأبي إذا حاول معي بعد يأس تجربتيه مع أخويَّ خليفة ومؤمن.

المرات الوحيدة التي صحبت أبي خلالها في السفر كانت إلى المدينة المجاورة، عدة مرات لمناسبات مختلفة، حضور مأتم لصديق قديم أو زيارة لطبيب أنتظر خلالها خارج غرفة الكشف حتى ينتهي حواره السري مع الطبيب، أو لصرف معاشه من فرع بنك الإسكندرية هناك، فرغم ضآلة المعاش قام أبي بتحويله إلى حسابه بالبنك منذ الشهر الأول لتقاعده وبالتالي لم يكن يقف قط في طابور البريد المعتاد، رغم أن مكتب البريد كان قريبا من بيتنا، أقرب بكثير من فرع البنك، في الواقع بدا لي هذا النفور في البداية مفسرا، ربما أحب أبي تغيير جو البلدة المعتاد بوجوه أخرى ومشاهد مختلفة، أو أنها مجرد حكاية معتادة عن توجس العجائز من أشياء لا يتوجس منها الناس عادة، أو حبهم لأشياء لا ينتبه لها أحد، كان أبي يحب أوراق النقد الجديدة، يقول إن الأوراق القديمة متسخة بالعرق وروائح الناس وأمراضهم، الأوراق الجديدة أدوم وأنظف وهذا ما توفره البنوك لا مكاتب البريد..

دات يوم اكتشفت لماذا يتجشم أبي كل هذا العناء في صرف معاشه، ... مكتب البريد يقع على طريق السيارات الأسفلتي مع أول دقيقة ... ك فيها سيارة الأجرة مرورا أمام بيتنا، وكان أبي يجلس إلى النافذة ... إلى جواره، عند مرورنا على مكتب البريد رأينا طابور أول الشهر ... بالطُرح السوداء ومغضني الوجوه المرتعشي الأيدي على العصي ... مقوفة، لاحظت أن أبي قد أشاح بوجهه للناحية الأخرى كأنه رأى ... مجموعة من الشحاذين المشوهين المعاقين، وكأنه يرفض الاعتراف ... مائه إلى هؤلاء الناس!....

لم يكن أبي مبالغا في خوفه من الموت بل كان يخشى من التشوه الذي تحدثه الشيخوخة في كبار السن، الارتعاش والانحناء والفقد المفرط للحواس، يصبح استدعاء هذا الخوف في رحلاتنا إلى المدينة القريبة مؤكدا، لذا كانت تتحول إلى سباق بدني بيني وبينه، يحاول أن يسبقني بخطوتين في السير أو يسابقني في الصعود على سلم في بناية ثم ينظرني على بسطة السلم، ويلقي عليّ حكمته التي لا يمل من إلقائها.

حاول أن تحافظ على نفسك يا مصدق فأنت لا تعلم متى تحتاج لصحتك، في مثل سنك هذا لم أكن أتوقف عن الحركة والمشي والسفر.

تعمدت ذات مرة وحيدة أن أجاريه وأسابقه وأسبقه، نظرت خلفي فرأيت حبات العرق تنعقد على جبينه فتمهلت حتى حاذاني، ثم قال فجأة: تعال، عرجنا على محل لعصير القصب ولأول مرة في حياته منذ

أن بلغت اشترى لي كوبا، ابتلعت كوبي في جرعتين وامتز هو كوبه ببط ليسترجع ايقاع تنفسه المضطرب ثم قال:

- هل تريد أن تعرف السر في أنني أسير دون أن أتعب، تنفس من أنفك لا فمك، وإذا شربت لا تبلع الماء بل امتصصه كأنك راقد على بطنك والماء أسفل فمك.

ثم أومأ إلى الكوب في يده وقال:

- هذه الأشياء الصغيرة بقدر ما سهلت حياة البشر أفسدت صحتهم...

لو جاريت أبي في نصائحه كما يفعل مؤمن فقد أصل معه إلى حد السخرية والابتسامات الشامتة لخليفة ولكني كنت أتبع تكنيكا مخالفا، أقوم بتغير مسار الحوار، سألت أبي.

- والجمال ألا تتعب يا أبي؟

فتنهد وقال:

- الجمال كالبشر يا مصدق، منها ما يصلح للسفر ومنها ما لا يصلح إلا للذبح، طيلة حياتي لم أر مثل جمال الدرويش، وكأن المسافات الطويلة تُطوى لها، طيعة وذكية ونبيلة طالما بقي معها الجمل الأصفر، حتى ما ضممت إليها من جمال بعد موت أفرادها مهما بلغت شراستها في البداية.

تذكرت حينئذ فسألت أبي:

- لا أتذكر الجمل الأصفر يا أبي، متى مات؟

لم يرد، أنهى كوب العصير سريعا وانطلق، سمعته يصيح من خلف ... : لن تلحق بي يا مصدق بعد الآن أبدا، لم أكن راغبا في منافسته أو هزيمته، كانت الدهشة هي عنوان وجهي في تلك اللحظة، غضب أبي من سؤالي عن الجمل الأصفر، وكنت حائرا لغضبه..

أنا، مصدق أو صِديق كما اعتادت أمي أن تسميني، ربما كنت الوحيد من أخوتي الذي كان في أشد الحاجة لرحلات أبي، ربما كنت أنا المتمم الذي كان سيحب السفر والجمال، الرحلة التي يبدو أن أبي قد قرر فجأة أن يصطحبني خلالها، خلفه، بعد أن تزوجت وأنجبت، وبعد أن أوشك هو على مغادرة الحياة في رحلته الأخيرة...

....

الفصل الرابع

ثلاث دقات على النافذة

في اللحظة الأولى التي جلست فيها على مقعدي بالقطار وضعت فرفعتي الاستماع في أذنيّ ونظرت من النافذة، أردت أن أبكي، شعرت بقلبي وكأنه قد شُكب فيه مزيج من مشاعر هؤلاء الذين اختُطف منهم أطفالهم فضاعوا والذين فقدوا جثث ذويهم في البحر أو الحرب أو تحت الأنقاض دون أن يعثروا عليهم، ربما نرتدي لحظاتنا الخاصة فقط عندما نكون مهيئين لذلك، ولكن هل يكفي التماهي لندرك أن البحث دون أمل عن أحبائنا الذين فقدناهم يشبه تلك الصدقة التي نؤديها عن أرواح أعزاء ماتوا، لم يوصوا بها، ولا نثق أنهم سيعلمون عنها ليفرحوا بإخلاصنا، آفة الموت للأحياء المتبقين هي الانقطاع، انقطاع الرؤية والسمع والوصول..

تُرى هل سيفرح أبي لو عرف أنني تركت حياتي خلفي باحثا عنه؟ لماذا تركنا إذن في بادىء الأمر، وهل خطط للعودة إلينا أم لا، ما الذي

سأخبره به إذا عثرت عليه ورفض العودة معي، هل سيهرب مني إذا رآني، هل سيغضب، هل سأبكي، هل سأعثر عليه حيا، وكيف سأعرف مكانه إن كان ميتا، من المستحيل أن تجد لديك القناعة للبحث عن شخص يبدو من فرط تشابهه معك كأنه أنت ويبدو من شدة نفوره عنك كأنه لا يمت إليك بصلة، إلا أن يكون أباك..

لم أكن الشخص الأمثل على أية حال، سفير ضعيف وهش، أتخيل السيناريوهات المحتملة لكيفية عثوري على أبي فتمع عيناي، سألت نفسي متعجبًا: كيف وصلت إلى هذه الدرجة من الرقة المخزية، البكاء على أحداث لم تقع بعد تحت ضغط وهم أبخرتها المحتبسة في صدري، كيف استطاع أبي أن يملأ حياتي بالمجازات وتركني أتعقب حقيقتها بدأب وخوف، وها هي النتيجة، بكاء مُر في قطار يتجه إلى مكان لم أذهب إليه من قبل موليا وجهي لنافذتي ابتلع دموعي مرة بعد مرة خوفا من رؤية الغرباء لي، عالمًا أنني تركت حقائق حياتي خلفي، الحقائق الأكيدة، دون أن أعيرها انتباها ولو بدمعة واحدة من دموعي القريبة، ساعيا خلف سراب ماكر.

ولكن أبي لم يكن يشبه السراب إلا في خفوته، وكأنه يسير على طمي لين، من الطيبين في هذا العالم، لا يتنبه إلى ملح الأرز القليل أو الزائد ولا إلى لهجة ساخرية في جملة عابرة ولا إلى نظرة رسمها صاحبها على وجهه ليضايقه، لم يتلوث قلبه بكراهية أحد، كثير من الناس كانوا يقولون عنه إنه يكره الشيخ «أبو القمصان» ولكن لا أحد منهم عرف الأمر على

...، كان الشيخ «أبو القمصان» هو ظل أبي الذي يضيق به، يضيق به ...ـباب التي يمكن أن نضيق بها من ظلالنا – إن جاز لنا ذلك – ربما لأنها ...ـب الثانوي لسقوط الشمس علينا، ربما لأنها تتبعنا باستمرار، ربما لأنها لا تستقر على جهة تدوم عليها فتارة تكون أمامنا وتارة تسقط خلفنا.

ربما رأى الناس أن أبي يضيق بوجود «أبو القمصان» لأسباب واهية، ...لكن الأسباب مهما كانت واهية تتحول بالتكرار والدأب إلى قوة دافعة، ...لا يوجد من يستطيع أن يتحمل مجيء أحد كل يوم أسفل شباك غرفة ...نومه مناديا عليه:

قم يا أبا خليفة فأنت نائم منذ أربعين سنة.

بهذه الجملة يستهل الشيخ أبو القمصان أول ظهور له في الشارع الذي ...جمع فيه بيتنا، يأتي تحت نافذة أبي التي تطل على الشارع وينادي ثلاث ...مرات لا تزيد ولا تنقص بتلك الكلمات الغريبة وهو يدق على الشيش المغلق بعصا طويلة، يتجاهله أبي في غالب الأمر، يكون هذا التجاهل أفضل بكثير من الرد الكارثي، اسمع الشباك يُفتح، تصطدم ضلفتا الشيش بالجدار لدرجة أن جزءا من ملاط الحائط يتناثر رذاذا يعمي عيني الشيخ أبو القمصان، ولا يتبادل معه أبي حديثا بل يقذفه كما نقذف قطة عاوية أو كلبًا ضالا بما يتيسر وصوله إلى يده..

الشيخ خليفة هو الاسم الحقيقي للشيخ أبو القمصان، مطابق لاسم أخي خليفة، ولكن حتى هذا لا يعطيه الحق في أن يأتي باستمرار أسفل نافذة أبي ليناديه بهذه الطريقة، ظل السبب مجهولا لي، ولم أسأل عنه

بدوري، هذا دأبنا مع الأشياء التي نولد فنجدها، ولولا التمسك الغريب للشيخ أبو القمصان بتلك العادة لكان واجبا أن يحظى مني بنظرة احترام جيدة كدرويش معتبر زاهد.

كان هو درويش بلدتنا الوحيد، يقال إن السبب في تسميته بهذا الاسم - أبو القمصان - أنه لم يكن يلبس تحت ملابسه غيارات القطن الداخلية، اعتاد على حشو الكتان داخل ملابسه الخارجية أو ارتداء ردائين فوق بعضهما، الناس يسمونه الشيخ سواء نادوه باسمه الحقيقي أو الاسم الذي خلعوه عليه، رغم أنه ما من مرة ذهب فيها إلى المسجد وصلى إلى قبلة الناس التي يصلون اليها، وحتى في المرة الوحيدة التي ضغطوا عليه فيها للصعود إلى المنبر في صلاة جمعة لم يعظهم ككافة الخطباء، بل أخذ يشكو إليهم من زوجته ومن إلحاحها في طلب المال منه، وأفسد جمعتهم ووضوءهم من شدة الضحك فصلُّوها ظهرا.

....

فيما مضى من حياة الشيخ خليفة كان رجلا عاقلا متزنا كما يبدو الآخرون، يعمل موظفا في مجلس المدينة، يركب المواصلات ويجلس إلى مكتب مدة لا تقل عن خمس ساعات يوميا في صبر جميل، صبر من يريد أن يمرر حياته كما استلمها من أبيه، بيت وزوجة وأولاد، التحول في حياة الشيخ خليفة جاء تزامنا مع مقتل السادات عندما جاء اسمه عرضًا أثناء التحقيقات، تشابهًا مع اسم رجل آخر اشترك في إعداد خطة قتل الرئيس، الحقيقي هرب خارج البلاد أما الظل موظف مجلس المدينة

...ـمرا في حياته حين دهموه، في دهشته الأولى لم يقاوم الشيخ ...ـابه ..، وضعوه في صندوق سيارة البوكس وانطلقوا به كغنيمة باردة، ...ا ... صفحة الأسفلت الذي تلفظه عجلات السيارة خلفها قرأ الشيخ ...ابه ... مستقبله القادم المظلم، قرأه ولم يطقه فاستغل انشغال أيدي ... ـمه بإشعال سيجارته وقفز على السرعة القصوى للسيارة، وعندما ... ... الحارس من استجماع صوته صرخ فتوقفوا، كان الشيخ خليفة قد ...ـع جزءا من الليل ورطوبة الغيطان والتماع الماء في الترع تحت ضوء ...افانهم الباحثة...

يحكون عن الشيخ خليفة أنه ظل يهرب من حملات القبض عليه يوميا بطريقة غريبة ومفزعة، كلف أخاه الأكبر أن يُطين عليه باب قبر ...منوح بعد أن اصطحب معه زادا وماء، يلملم عظام الموتى إلى جانب بعيد من القبر ويستلقي في الجانب الآخر، يتمتم بالمعوذتين كلما هاجمته مخاوفه، يظل في القبر لأيام، عندما يمل يهدم الجدار ويخرج في الليل، في تلك الليالي تزوج ورُزق بالولد وهو يعيش على تلك الحافة التي تُنذر بالسقوط في أي وقت.

وحتى بعد أن فتر عزم الأمن على ملاحقته ولم يعد ثمة ما يتهدده كان قد فقد أُلفته بالبشر، اعتاد لغة الموتى وصمتهم، أو ما يشبهها، ينام في العراء فوق سطح بيته أو في المقابر أو في نعوش الموتى بالمساجد، وإذا سأله الناس: ألا تخاف من النوم في تلك الأماكن بعد أن زال اضطرارك؟ يجيبهم بأن الأحياء أولى بالخوف من الموتى، لا يركب المواصلات

كبقية البشر، يمشي على قدميه أكثر مما يمكن لشخص عادي أن يتحمل، قد يصادفك في اليوم أكثر من مرة، في شارعين مختلفين أو بلدين مختلفين، يمشي مثل نائم، قد تُشفق من تعكير صفو سلامه الداخلي بإلقاء السلام عليه، أو تشك أنه لن ينتبه إليك إذا فعلت، وفي كلا الظنين إن لم تُلق عليه السلام سيتوقف وقد يتعارك معك ويشتمك، ومع ذلك لا يرد على كثير ممن يلقون عليه السلام إذا فعلوا!!.

كانت له عادة غريبة ملازمة لسيره، لا يُفوِّت شيئا ملقى على الأرض إلا وانحنى عليه وتفحصه، رأس لفت ملقاة على الأرض، قشرة بطيخ، عود خس، قشرة برتقال أو يوسفي، ينحني فليلتقطها ويمسحها في كُم جلبابه ويلتهمها بشهية، أما جثث القطط والكلاب والعصافير النافقة فينحيها إلى حيث لا تُشم رائحتها أو يدفنها، يجمع أنصاف الطوب الأحمر وأرباعه بقايا البناء، يحملها تحت إبطه حتى يضعها في خرابة خلف بيته لا يُعرف لها صاحب إلا هو، الطوب الذي يكون أول شيء يفكر فيه أهل البلد عندما يبدأون في بناء فرن بلدي أو خُن لدجاج أو برج حمام فوق أسطح بيوتهم، ورغم تعبه في جمعه لا يُذعر سارقيه بل يعود لجمعه بدأب لا يفهمه إلا المجانين.

عاد إلى عمله في مجلس المدينة بموجب قضية رفعها أخوه الأكبر ولكنه لم يداوم على الحضور،وكيف يداوم وهو لا يذهب من مكان لآخر سوى سيرا على قدميه، يرتدي إما نعلًا لحذاء قديم مخيطا عليه جزء من سير تالف لماكينة تبييض الأرز أو خُفًّا من الخشب دُق عليه

. امير صغيرة جزء آخر من نفس السير القديم، لا يراه الناس في عمل
، في السوق حاملا قلتين من الفخار يسقي العطشى من أصحاب الفرش
، اله شترين، يناوب على ملئهما من مسجد قريب، لا يطلب أجرا، لو أن
،،ما أو امرأة أعطوه ثمرة يوسفي أو برتقالة يقشرها ويعطي قلبها لطفل
ا، ،حاذ ويأكل هو القشور.

، غم هذا الورع الغريب كان أبي يكره وجوده في بيتنا، وكثيرا ما شتم
ا مي وهدده بالطرد من البيت لإصراره على ضيافته، وكعادة أخي خليفة
،ا المة في فعل الأمور التي تضايق أبي، ظل مُصرا على عادته في أن
،هيف الشيخ أبو القمصان عنده خاصة عندما يشتري سمكا لأن الشيخ
ابو القمصان لم يكن يأكل اللحم، بل ويأكل أنواعا معينة من السمك
ا،س منها القراميط أو ثعابين السمك، يقول إنه لا يأكل إلا الأسماك
التي تموت بسرعة بمجرد خروجها من الماء، بمجرد أن ننتهي من الأكل
، يأتي الشاي يبدأ حوار كل مرة بين الشيخ أبو القمصان وأخي، يقول
خليفة ليستفزه إلى بداية الحوار:

هل أنت شيعي؟، هل تحب الإمام علي لدرجة أنك لا تأكل القراميط التي رشت الماء على جلبابه فلعنها، هل تصدق هذه الأكاذيب؟

يرد عليه الشيخ أبو القمصان بلهجة من يوضح الأمر:

أنا لا آكل السمك، أنتم الذين تأكلونه.

بالفعل كانت له طريقة غريبة في الأكل، يأكل ملعقتين من الأرز في بداية الطعام ثم ينتظر، بمجرد أن ينتهي أحدنا من التهام سمكه يلتقط ما

تبقى منها، البطن والرأس وما علق من لحم أبيض على العظام، لا يتركها حتى تصير جافة تماما، يأكل الفاكهة أيضًا بنفس الطريقة، القشور، قشر الموز والبرتقال والأناناس وما علق بها من السُّرة، وإذا كانت التحلية شايا يرفض أن يطلب كوبا خاصا به قائلا إنه لا يحب الشاي ثم عندما ننتهي من احتساء أكوابنا يمتص ثمالة الأكواب ويلعق رواسب السكر بإصبعه

في اليوم الذي أعرف فيه أن الشيخ أبو القمصان سيتناول الغذاء مع أخي الأكبر كنت أذهب إليه، فقط لأستمع إلى الحوار الذي يدور بين أخي وأبو القمصان، في تلك الحوارات كان الشيخ أبو القمصان يبدي تعقلا له وجهة مختلفة، يسأله أخي:

- لماذا تجمع الطوب الأحمر في الخرابة.

- لأني أريد أن أبني مسجدا.

يضحك أخي وهو يقول:

- ولكن الناس يأخذون ما تجمع.

قال الشيخ خليفة في هدوء وثقة:

- وأنا آخذ ما يتركون.

- ولكنك بهذه الطريقة لن تبني مسجدك.

يرفع الشيخ خليفة حينئذ إصبعه إلى السماء ويقول:

- يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد... لم يطلب منك أن تفعل بل أن تسعى.

يطرح أخي بعد صمت خاشع مصطنع مثل صمت تلاميذ المدارس في وقفة جنائزية بطابور الصباح على الجندي المجهول.

يمكن لك أن تنصب صندوقا على الطريق وتجمع المال لبناء المسجد.

أمو الكم ملوثة.

لهذا تصلي إلى قبلة غير قبلتنا.

قال في ثقة:

قبلتكم غير صحيحة.

هتف أخي منتصرا:

هات البوصلة وسأثبت لك.

يغضب الشيخ أبو القمصان ويشيح بيده.

لا بوصلة ولا يحزنون، حتى لو كانت قبلتكم صحيحة، قلوبكم تلتفت مثل رؤوس الصغار عندما نعلمهم الصلاة، ولكنكم لستم مثلهم، أنتم مكلفون، رغم ذلك تلتفت قلوبكم إلى الطعام وفروج النساء ونقوش الحُصر في المساجد وجُشاء جيرانكم في الصلاة وأصوات صغاركم في الشوارع، أنتم تعيشون في الخراء وتُعيشون زوجاتكم معكم في الخراء وتظنون أنكم تُطيون عيشكم وعيشهن.

عندما يقول الشيخ أبو القمصان كلاما بذيئا فيجب ألا تستثيره أكثر من ذلك.

ذات مرة ضبطه أبي على بسطة السلم أمام شقته وهو مار من الساحة الخلفية التي يسكن فيها أخي خليفة، لم أكن حاضرا في أول حوارهما أو هكذا فهمت، ربما كان حوارا قديما لم يكتمل بتمامه، سمعت أبي يقول:

- الم أقل لك مليون مرة أن تبتعد عن أولادي.

ولكني لم أسمع إلا غمغمة من الشيخ خليفة.

- إذا أردت أن تأكل أو تشرب فتعال إلي وأنا سأعطيك ما يكفيك من المال.

سمعته هذه المرة يرد وكأنه أهين: لا آخذ مالك (أو قال : لا أريد مالك)!!

ولكني سمعت أبي يعاجله.

- خلاص، لا تزرهم، لا تأت هنا، الموضوع بيني وبينك لا دخل لأولادي فيه، سينتهي بموتي والله سيحاسبني على ما حدث..

- إذا مت أنت فسيتوارث أولادك ديونك كلها (ثم صمت قليلا) حتى هذا الدين.

- أنا قلت لك ألف مرة، لا أتذكر المكان، كل شيء يتغير، أنا رجل عجوز، لو غيروا باب بيتي فلن ألاحظ، وحتى لو تذكرت المكان فليس عندي قوة ولا قلب لأفعل ما تريده مني، لو كان عندي قوة لذهبت إليه معك، أنا أريده أن يسامحني....

ا..ت لا تُعذر، هذا شيء ليس منه بُد، لقد بدأت ولابد أن تنهي الأمر، ول نحب ما أنت عليه الآن، معلق بين السماء والأرض، لا تتوقع أنها .حرد عظام، العظام لا تكلمني، ولا تعلل بضعفك، يكفيك النية ، سأساعدك.

.ام، كِملت، وقتها سيقول الناس عني إنني جُننت.

لاتهتم للناس، اهتم بما ستصنعه يداك.

قلت لك ألف مرة لا أتذكر، هذه صحراء يا بني آدم، صحراااااااء.

كأني سمعت أبي يبكي، يتهدج صوته، يخفت، يسود الصمت قليلا .بهما، اسمع حركة ويُغلق الباب، عندما استأنفت نزولي وجدت الشيخ خليفة واقفا أمام الباب في ذهول.

....

يوم أن ماتت أمي، يوم لا أنسى تفاصيله أبدا،كنت عائدا من عملي عندما صادفت الشيخ خليفة آتيا في الاتجاه المعاكس من شارع بعيد عن بيتنا، وبمجرد أن رآني صاح :

ابن حلال.. كنت أبحث عنك، تعال معي.

من الواضح أنه كان سيقول تلك العبارة لأول شخص يصادفه، على كتفه يسند عود من بوص ستارة مصنوعة باليد، وتحت إبطه صفيحة سمن عبوة 2 كيلو عليها امرأة مبتسمة ملونة في يدها ملعقة فضية وأمامها دجاجة محمرة، مشينا سويا، عبرنا الأسفلت يدي في يده، نزلنا السلم

الصغير المؤدي إلى شاطىء الماء خلف صف المحلات الطويل، منطقة منعزلة عن ضجيج الناس والسيارات المارة، مشينا على الطين الذي لم يكتمل جفافه منذ آخر مناوبة للري، تتبعت خطوات الشيخ أبو القمصان عالما أنه ما من أحد يعلم الأماكن اللينة في الطين التي قد تغرس قدمي فيها أكثر من مرافقي، خلف عصّارة القصب توقفنا، في منطقة من الشاطىء تنير الشمس طين قاعها نثر حفنة من القمح المطبوخ، سار قليلا بموازاة الشاطئ مبتعدا عن مكان القمح المنثور ثم شمر عن ساقيه وخاض في الماء وانتظر ترسب الطين ثم ملأ صفيحة السمن لنصفها بالماء، لم يكتف الشيخ خليفة مني بدور المتفرج رغم أنني كنت مستعدا لذلك: أعطاني سنارته وأخرج خيطا من جيبه وربط فيه شصا وغرسه في حبة قمح مسلوقة، رمى الشص في الماء، وجلسنا نترقب، كنت أنا أول من قطع الصمت، سألته:

- ماذا رأيت في المقابر يا شيخ خليفة عندما كنت تختبىء فيها؟؟

قال في حيادية جميلة ودون تفكير:

- الظلام، والتراب، والعظام المتناثرة من أكفانها للموتى السابقين، الموت حقيقة لكن سره غائب.

- لم تر السر، لم تعرفه؟

- كلنا نرى السر ولكننا لا نعرفه لأننا لا نقرأ، أو نكسل عن قراءته.

سألته في لهجة حاولت أن أجعلها مندهشة:

- ولم تر الأرواح ولا «ناكر» و«نكير»؟

قال لخيتي:

لم أر شيئا، فالأرواح تحلق في النعيم أما الأجساد فتعفن..

قال بعد دقائق محاولا إبقاء بعض السحر لعالم الموتى.

ذات مرة قال لي أبي إن الأماكن تظل تنادي على من سيموتون فيها منذ بداية مولدهم وحتى النهاية.

قال في حيرة:

إن العالم مليء بضوضاء كافية، لغة المقابر هي الصمت.

الشيخ خليفة بالنسبة لي كان هو رجل المغامرات الأول، روبنسون كروزو المقابر، وفي ذلك اليوم كنت أفكر في الموت، والموت يأتي عندما تنتهي الحياة.

سألته:

كم يلزم الشخص منا من سنوات ليكتفي من الحياة ويشبع منها؟

أجاب على الفور وكأنه كان يفكر في إجابة سؤالي منذ جلسنا:

حسب ما يتعاطاه منها.

قلت له في حيرة:

- فسر لي.

- قال النبي: منهومان لا يشبعان؛ طالب علم وطالب مال.

- لم أقصد هذا.

- أعرف، الحياة تبدو قصيرة أحيانا، وأحيانا أخرى تبدو طويلة، نستبطئ مرور السنوات ثم نشكو سرعتها، قد يكفيك أقل من أربعين سنة لتمل منها وقد تمل منها ولكنك لا تحب أن تفارقها، لا يلزمك الشبع دائما لتمل أو تصل لحكمتها.

قلت في اهتمام:

- ولكن كيف أصل لحكمة الحياة إذن إن لم أشبع منها وأعيش طويلا حتى يصيبني الملل؟

- ما كان سيكون ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، الموت خير واعظ ولكن جبل الذهب عندما ينحسر عنه ماء طبرية سيموت حوله من كل مائة تسعة وتسعون نفسا، ولا واحد من المائة سينظر إلى أسفل سفح الجبل حيث أعجوبة الطين الذي لم تره الشمس قط منذ خُلق العالم.

- أنت تقصد أن أتأمل حولي ولا ألتفت للمغريات.

- هذا تبسيط مخل لما أقوله، حتى المغريات يجب أن نلتفت إليها ونصل إلى حكمتها لنتخلص من سمها، كل معدن في هذا العالم له حكمة، الغني يمكنه أحيانا أن يصل إلى حكمة الذهب، والفقير غالبا ما يصل إلى حكمة التراب رغم أنه لا يعمل بها وإن نطق بها، أما الحداد فبعيد كل البعد عن حكمة الحديد لأن قساوة الحديد تصل إلى قلبه أولا، كل شيء متوقف على القلب الذي هو أسرع أعضاء الجسم فسادا، أخبرني بذلك ذات مرة رجل حكيم..

ر امنا مع مجيء السمك ليلتقط حبات القمح التي نثرها بدأت
..مارات تهتز بشدة، أول سمكة خرجت في سنارتي، أخذها من يدي
..لا من أن يضعها في صفيحة السمن قرض طرف ذيلها بأسنانه وقذفها
ما ول ذراعه في الماء، لم أغضب، فقد تعودت على تصرفاته الغريبة،
.. ت واثقا أنه سيفعل بما يصطاده أيضا نفس ما فعله معي، اصطدنا
..رات الأسماك في وقت قياسي وكأن الأسماك عرفت أن معي درويشا
..يد الأسماك إلى الماء، يقرض طرف ذيلها ويبصقه ثم يلقيها بطول
.. اعه، ثم بدأنا نصطاد الأسماك المقروضة الذيل مرة أخرى، عندئذ بدأ
..ضعها في صفيحة السمن.

مع السمكة الثانية سألني:

لماذا تسأل عن الشبع ولا تسأل عن الغفلة.

وما هي الغفلة؟

أن تمر من الحياة متحسرا وأنت لم تمس أجمل ما فيها من أطباق.

- وما هي تلك الأطباق؟

- اغسل قدمي أمك وأبيك بالماء وضعه في طبق واشرب، ابكِ على خطاياك التافهة قبل أن تغتر بها وضع دموعك في طبق واشرب، اجمع ندى الصباح قبل أن تشرق الشمس من أنفاس المجدين إلى أعمالهم وضعه في طبق واشرب، حتى الجوع طبق من أطباق الحياة المليئة،

أما الشبع فطبق فارغ، لأنه عندما تقبل على الموت لن تفكر فيما فاتك ولكن فيما سيأتيك.

- كل شخص يأخذ نصيبه.

- طبعا طبعا، حالنا مثل حال هذه الأسماك، تعود إلى سنارتي وأثر أسناني في ذيلها، لذا خذها إلى أمك لتشويها وقل لها عمي الشيخ أبو القمصان يسلم عليك.

كانت أول مرة يخاطبني فيها باسمه المستعار بين الناس، كنت أعلم أنه يغضب عندما يناديه الناس به ولكن بدلا من أن أبتسم نظرت إليه في حزن قائلا:

- هل ستذهب؟

- نعم.. اكتفيت.

- اكتفيت من صيد السمك أم من الحديث معي؟

أجابني في حزن:

- اكتفيت، منك ومن الأسماك.

....

إلى أمي حملت صفيحة السمن المليئة بالسمك بعد أن أرقت منها بعض الماء على الشاطىء، لمحت أبي نائما على ظهره وخلف كتفيه وسادة السرير الطويلة، مد لي يده دون أن ينظر لأقبلها مثل شيخ طريقة تملأ كراماته كتب مريديه، كان يبدو عليه الانشغال في شاشة المحمول

م عبرة، ذلك المحمول الذي اشتراه مؤخرا ولم يعط رقمه لأحد فينا، ، لمن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لإهماله النظر إلي وأنا أقبل يديه، ، الما ما كان يفعل.

رفضت أمي أن تأخذ سمك البلطي الذي حمله إليها من الشيخ ،ابغة لمّا علمت بمصدره، قالت لي:

، ما أدراني أن يكون قد وضع لنا فيه سما؟

في صمت باسم ميلت صفيحة السمن أسفل ضوء لمبة السقف تحت ،صرها لترى أن السمك لا يزال حيا يسبح في الماء، فنظرت إليَّ مشفقة ، دأنها تستهجن ان أكون بكل هذه الطيبة والغباء، هل ستخبرني أمي الآن بإحدى قناعاتها عن السُم؟.. ليس كل السموم تقتل، هناك سموم ننقل لتقتل..

نادى عليَّ أبي قبل أن أنصرف فذهبت إليه مرة أخرى فأراني على شاشة التليفون المحمول رسالة وصلته منذ أيام ويبدو أنه قرر أخيرا بعد تفكير عميق أن يستشيرني فيها، كانت الرسالة تبدو وكأنها قد وصلت بطريق الخطأ إلى أبي، مرسلة إلى شخص آخر غيره، تخبره أن عليه أن يأتي بسرعة لأن مُرسلها عثر على مخطوط من الذهب والرخام الأسود أسفل بيته، أخبرت أبي أن هذه الرسالة ما هي إلا وسيلة للنصب وأن أكثر من ثلاثة أرباع الشعب المصري وصلته هذه الرسالة، فنظر لي في غير اقتناع وسألني:

- وهل وصلتك هذه الرسالة أنت أيضا؟

فهززت رأسي:

- نعم.

قال في تحد:

- أرها لي.

فقلت:

- على التليفون القديم وليس هذا التليفون.

وكأنه ضاق بكذبي، قال وهو يتلصص داخل الصفيحة التي أحملها ليغير الموضوع.

- ومن أعطاك هذا السمك؟

....

لماذا لم ينقبض قلبي وأنا أغادر شقتهما الصغيرة، لماذا لم أشم رائحة ملاك الموت الذي ربما احتك كتفه بي وهو يلج إليهما ليبدأ طقوس نزع الروح، لا أنسى أبدا أحداث تلك الليلة التي استقبلت فيها العالم مع أول نسمات الصباح بتيما، صعدت السلم إلى شقتي في حذر شديد محاولا أن أكتم خطوات حذائي المتسخ بالطين قدر الإمكان، وضعت الحذاء وصفيحة السمن المليئة بالسمك على بسطة السلم بعيدا عن جمهور الأحذية الأخرى وكأنه ارتكب ذنبا بالسير على طين الشاطئ مع الشيخ أبو القمصان، رغم ذلك وقبل أن أنتهي من خلع ملابسي سمعت صرخة زوجتي المتذمرة.

حسب تعليماتها نقلت صفيحة السمن إلى داخل الشقة خلف الباب . أن تقلبها القطط الضالة وتسكب ما بها من ماء وتثير فوضى من . ا. والدم، ثم قالت تؤنبني بعد أن عدت:

- من طلب منك أن تشتري سمكا أو تصطاده؟

أجبتها ضاحكا:

- من قال إنني أحضرت هذا السمك للأكل، في الغد سأشتري حوضا ماجيا لأحتفظ به للزينة.

لم تضحك زوجتي، قبل أن أنام فكرت أن أقوم بتجديد الماء حتى لا يموت مختنقا ثم تكاسلت، ظللت أسمع جلبة السمك في الماء حتى . ت، لم أستيقظ إلا على صرخة زينب زوجة خليفة، فانتترت من فوق سريري، ماتت أمي، ماتت بصورة مفاجئة دون أن تودعنا..

ونحن نسير أثناء الدفن بكى أخواي بلا خجل، كنت أسمع نشيجهما . أميزه، أما أنا فكنت متماسكا انظر إلى حذائي طوال الوقت لكيلا يظهر حزني للناس فتنفجر الدموع مني، نكست رأسي وكأنني أختنق تسرب الدموع من حلقي إلى مخرجهما في العينين، وأنا انظر إلى حذائي حاولت أن أتذكر في جمود كيف أتى هذا الطين إليه، متى سرت في مكان . طين، تذكرت الشيخ خليفة وحديثه معي، تذكرت السمك والشاطىء، أمي وصفيحة السمن، تذكرت تلك الأحداث كذكرى غائمة وكأن ما يفصلني عن تلك الأحداث ليس اثني عشرة ساعة بل سنة كاملة، وعندما

تذكرت جملته (اغسل قدمي أمك وأبيك بالماء وضعه في طبق واشر
انفجرت دموعي كأخوتي.

توقعت أن يظهر الشيخ خليفة في ذلك اليوم العصيب، على الأم
ليتملق أبي الذي يأتي كل يوم ليدق على شباكه وياديه، ولكني لم أ
أثناء الدفن ولا في العزاء، لم يظهر بجوار أبي إلا صديق قديم لم ي
من قبل،رجل يلف شالا أسود حول رأسه ويرخي ذؤابته بجانب أذ
اليمنى، جاء واخترق الصوان دون أن يصافح أحدا وجلس بجانب أبي
دون كلمة مواساة واحدة، فقط أخذ يربت ساقي أبي كل دقيقة بينما ير
عليه أبي بنظرات زجاجية وتمتمات أكثر جفافا من شفتيه، وعندما نهض
قام هذا الرجل بوضع يده تحت ذراعه الأيمن ليتساند عليه فتخلص أبي
منه بلطف شديد، عندما سار أبي مغادرا المضيفة التي نُصب فيها العزاء
كانت دقات عكازه أشد وطأة على البلاط من ذي قبل وكأنه صار يستنا
إليه بالفعل، أتذكر أن خليفة بحث بجنون عن هذا الضيف الوقور معللا
بأنه غريب ويجب أن يأخذ واجب ضيافته كاملا..

سواء أكان فقدا بالموت أو بالاختفاء المفاجيء من حياتك، لا يتشابه
أبدا فقدان أحد الأبوين مع فقدان شخص آخر حتى لو كان قريبا إلى
قلبك، لا يتشابه حتى فقدان أحدهما مع الآخر، ستجد لكل فقد ألما
مختلفا في كل مرة، الأم تشبه القوة الروحية، إنها الأنفاق السرية وخطط
النجاة الأخيرة وحفيف أجنحة الحمامات الزاجل في السماء وهي تحمل
رسائل تبشر بالإغاثة، هي دعوات الضعفاء وابتهالاتهم خلف الأبواب

ر ماں و شك أن تنهار تحت وطأة الضربات الغشوم، إن وجودها يمنع
، ، ، السيئة أن تتحقق، أما الأب فهو جهد خشب الأبواب وطوب
، ار والحديد المغروس فيها...

، ، الموت دائما وكأنه يحدث في وقت غير مناسب، ولكن ببعض
ل جد أنه لم يكن فقط الوقت المناسب لمن ماتوا ليصعدوا إلى
،ا، بل الوقت المناسب لنا أيضا ليغادرونا، لا شيء يمكن أن
، ا، ثم يجمعك على حقيقتك مثل موت الأشخاص القريبين الذين
هم..

لم يترك أبي البيت مباشرة بعد موت أمي، وكأنه أراد ألا نذوق مرارة
الفقد مرتين في عام واحد، عاش بيننا ثلاثة أعوام مثل فتيل كان يزهو
سمك النيران فيه ثم انطفأ، وعندما غادر البيت كان كأنه ذهب ليبحث
من تاريخ قديم يشعل من جديد فتيل قلبه الذي انطفأ..

الفصل الخامس

من الأحق بالبحث عن أبيك ؟؟

أربع ساعات تقريبا هي مدة السفر من القاهرة إلى أسيوط، كانت أمنيتي طوال مدة سفري حتى أسيوط أن تمطر السماء، المطر طقس روحي أكثر من كونه طقسا وقتيا، المطر هو الدهشة التي تلقيها السماء إلى الأرض، هـ . ب أهل الأرض من السماء، حتى لو كان المطر في الشتاء، أما عن مطر الصيف فرغم أنه لا يحدث إلا في محافظات الشمال، كأنه نوع من إفراغ الحمولات الزائدة قريبا من البحر، إلا أن أهل الشمال يعتبرونه . . أو علامة على موت أو ولادة ولي من أولياء الله، سألت نفسي أية كرامات ينسبها أهل الجنوب لأوليائهم ليصيروا أولياء، عبد الرحيم القنائي، أحمد الشرقاوي، الجرجاوي، ربما تعتمد الولاية على التقشف والتماهي مع حياة الصخور والرمال.

كنت أحتاج المطر علامة على أنني سأجد أبي، أو ربما ليخفف شعوري بالسقوط، يتخللني ويجدد خلاياي ويجعلني أكثر جرأة في اتخاذ القرارات التي تتعلق بمصيري، حتى لو كان مطرًا خارج نافذة لا أستطيع الوصول إليه إلا ببضع قطرات على كف ممدودة في الهواء، طيلة السفر راودني إحساس غريب أنني أسقط، أسقط من الخريطة، يسير النيل للخلف حيث تقع الأراضي المنخفضة في الش... هذا هو السبب الوحيد لتسمية الجنوب بمصر العليا، ارتفاع أراضيه عن منسوب البحر، فيما عدا ذلك لا يوجد علو، كان السقوط حيث لا عودة...

أسيوط كانت حارة متربة فوق ما تخيلتها ولكن الهواء لم يكن به نفس هواء بلاد الشمال، أخذت من أمام محطة القطار «تاكسي» وأمليت على سائقه عنوان فرع البنك هناك، سائق عابس يختلس إليَّ النظر في المرآة الداخلية أكثر مما ينظر إلى الطريق، استقبلني مدير البنك بتوصية صديق أخي استقبالا حافلا، فنجان من القهوة وضع أمامي وبأصبعه ضغط على زر ريموت التكييف عندما رأى العرق على وجهي فزاد صوت ماكينة التكييف البيضاء خلفه عدة ديسبلات إضافية، أخبرته باختصار شديد عن غياب أبي وعن رغبتي في عرض صورة ملونة له على موظفيه واحدًا واحدًا، ليس موظفي الشباك فقط ولكن أيضا الموظفين الآخرين، بطريقة منظمة جميلة استدعى موظفيه واحدا تلو الآخر، مثل طابور من المعزين كنت أقف وأصافحهم وأضع الصورة بين أيديهم فيتأملونها، القليل منهم بدا عليه الاهتمام الحقيقي، رغم ذلك اتفقوا على شيء واحد: لم يره

. . . م، أصر مدير الفرع قبل انصرافي أن أحتسي فنجانا آخر من . . . ثم سألني في اهتمام:

. . . ارينك فقط لكي لا تغضب مني ولكني أسألك: ماذا لو أخبرك أحد . . . طفين أنه قد رأى أباك بالفعل هنا في أسيوط، ماذا كنت ستفعل؟

. . . ي، كثير سيتغير، أنا باق هنا حتى أعثر على أبي أو أيأس وأعود . . . دها مجرد إشارات.

. . . م نعجبني كلمة إشارات بعد أن نطقتها، وكأني كشفت له جزءا من . . . مي، ولكنه هز رأسه متفهما.

. . . رجل عصامي، مات أبي وأنا ما زلت صغيرا فبنيت نفسي بنفسي، . . . م أعلم قيمة وجود الأب في حياتي إلا فيما بعد، عندما صرت أبا، . . . علمتها بصورة عكسية، لذلك.. أصدقك القول، هذه جرأة غريبة من أبيك، رجل في مثل سنه وأنا أدرى بذلك فخروجي على المعاش أصبح وشيكا، رجل مثله يعمل طوال حياته ويجتهد ويربي، في الغالب ينتظر ليجد ثمار جهده في التفاف أولاده حوله ساعة المرض أو الموت، لا أن يموت ويمرض في الشارع مثل متسول.... اعذرني، سؤال آخر، طالما أنكم لم تغضبوه ولم تقصروا في حقه، كان والدك، بحكم السن يعني، وكلنا سنصير إلى هذه اللحظة دون خجل، لا يعاني من مرض الشيخوخة في عقله؟

. لا.. أبدا.. أبي كان متماسكا عندما ترك البيت، كان واعيا حتى آخر لحظة قبل غيابه.

- لا أخفي عنك، أنا تحدثت إلى أخيك، تشرفت بذلك في الحقيقة، رجل متزن ذو أفق واسع والأهم من ذلك صريح، لم يخجل مثلك، ربما لأنه أكبر منك سنا، يأخذ الأمور بواقعية أكثر، قال لي إن أباك زار الصعيد في شبابه أكثر من مرة لظروف عمل، وبعد شبابه حتى بعد أن انقطع عن العمل كان يغيب لأيام ويعود، أخبرني أن أمك رحمها الله عثرت ذات يوم على تذكرة قطار من القاهرة حتى أسوان في ملابسه وأعطتها لأخيك، أمك لم تكن تقرأ.. أليس كذلك؟، اعتقدت أنها ورقة مهمة، هو يشك أن أباك له عائلة هنا، ربما أسيوط ربما أسوان، أنا أخبرته أن هناك سجلا مدنيا تستطيع أن تعرف منه كل شيء، واسطة صغيرة هناك وكل الأسرار ستخرج مثل ثعابين البيت عندما يزورك أحد الرفاعية، أشك أنه لم يحاول.. شخص ذكي مثله.

في طفولتي كنت أُعيَّر بشيئين، العبقرية الدراسية لمؤمن وعلاقات خليفة الاجتماعية وقدراته على التواصل مع الناس واكتسابهم، لم أتوقع أن أسافر كل هذه المسافة لأجد نفس الكلمات التي سمعتها في طفولتي تُبعث من جديد.

- لا.. لا شيء مما تظن، لو كان كلام أخي حقيقيا لسافر أبي بعد موت أمي مباشرة.

- ربما أراد ألا يزعجكم، ربما ظل صابرا حتى يطمئن إلى استقراركم، ربما ملَّ من طلب خدمات زوجاتكم له وهو يمتلك زوجة في الصعيد، وربما أولادا يستطيع أن يرحل إليهم فيخدموه... وربما ربما.

لأنك لا تعرف أبي تقول ذلك، أبي لم يهتم أبدا بقلقنا، ثم أن اختفاءه بتلك الطريقة أكثر إثارة للقلق مما لو كان قد أخبرنا بأسبابه، لم يحتج إلى خدمة زوجة من زوجات أولاده، لم يطلب مساعدة أحد منا في شيء، ملابسه كان يغسلها وحده، يطبخ لنفسه.. وكأنه يحب ذلك، لا أحد يمد يده إلى طعامه، كان وجوديا إن صح القول، آخر شيء يمكن أن يفكر فيه أبي هو الزواج، لدي أسباب كثيرة لأقول ذلك، ليست نتيجة وبرهانا كمسائل الرياضيات، آخر شيء كان يفكر فيه أبي هو الزواج، حتى عندما مرض ذلك المرض قبل غيابه كان يضع في يد زوجتي أو زوجة خليفة مبلغا من المال عندما تأتي له بالطعام أو تأخذ ملابسه لتغسلها..

أنا أتفهمك، أنت تحب أباك، في الواقع لقد تكلمت كثيرا مع أخيك عنك أنت، وفي هذا الموضوع بالذات، كيف تحب أباك كل هذا الحب؟ كيف يمكن أن يحب إنسان لدرجة تجعله يتناسى أو ينسى بالفعل الحقائق الأكيدة.

- أنا؟

طبعا، مما حكاه أخوك عنك أعتقد أنه -بعد عمر طويل مثلا - لو أن أباك مات فلن تصدق بموته حتى لو غسلته بيديك، هذا الحب الذي جعلني أتساءل بعد أن رأيتك في الحقيقة، رأيت وجهك السمح هذا، هل إذا فعلتُ كما فعل أبوك، لو تركتُ البيت بتلك الطريقة الغريبة

فـأي أبنائـي أفضـل أن يأتي خلفي ويبحث عنـي، الأكثر واقعية كأخيا أم الأكثر حبا مثلك..

- وما هي إجابة سؤالك ؟

- أعتقد أنك لـسـت الشـخص المنـاسـب للبحث كما أن أخاك الأكبر ليـ مناسـبًا أيضًـا، هناك شـخص يجـب أن يجمـع بين صـفاتكمـا، الحلة المفقودة كما درسوا لنا..

لـم تكن هذه الجملة هي نهاية حوارنا الذي بدأ بدون سـبـب يكتسـ بنوع من العداوة الودودة، الشفقة الغاضبة التي تزحف فوق خشب مكتـ إلى الكرسي الذي أجلس عليه عبر نظرات تحتيه مستطلعة، الشفقة شـب الحديث تصيب جدية أي حوار سـريعا بالشيخوخة، التقط الصـورة التي كنـت أعرضـها على موظفيه والتـي تركتها على مكتبه كل هذا الوقت، هز رأسـه بعزاء لم أفهم سـببه، الصورة مطوية لنصفين بأحدهما صـورة أبي، طويتها تفاديا للسؤال المتكرر: من هذا الآخر في الصورة؟

أبـي، وفـي النصـف الآخـر من الصـورة مؤمـن، تضفي عليـه لحيته طمأنينـة لـم يمتلكها أبدا، الطمأنينـة تضيـف إلى الوجه سـنوات إضافية من العمـر، لا أتذكـر متى التُقطت هـذه الصورة، كان أبي يخـاف من الصـور لدرجـة أنه راوغ خليفة كثيرا حين حـاول أن تجمعهما صورة واحدة فلم يـستطع، كيف اسـتطاع مؤمن أن يأتي بأبي خلف عدسـة المصـور؟

سألني مدير البنك وهو يدير الصورة في يده إلى الناحية الأخرى:

- لابد أن هذا الملتحي العابس في الصورة هو أخوكما الثالث.

ا ـــمت، كان الاثنان عابســين ولكنه التقط عبوس أخي بمغناطيسية .،، الوليدة، قلت كاذبا لأبرر عبوس مؤمن:

ر الم افع هو، رغم أنه يرفض التصوير الفوتوغرافي للذكرى إلا أنه لم طع أن يعصى أبي في ذلك.

انطلق رجل البنك بلســانه متأسـفا طقطقة متصاعدة وكأنني كشفت ، عائلتي المغلطة له.

اما م الآن مم هرب أبوكم المسكين.

ابتسمت:

لا تبالغ أستاذنا، الموضوع بسيط جدا، فهم لا يعضون.

قال في غضب مفاجئ:

بسيط !! كان الله في عونك أنت وأخيك الأكبر، هؤلاء الناس هم السبب في كل ما حدث للبلد، لو أن الأمر بيدي لأعدمت كل هؤلاء بالرصاص ولا أستثني أخاك أبدا أو أخي لو كان مثله...

بالعكس، أنا أعتقد أن وجود أي طرف مخالف وشاذ هو تمرين لنا على مدى تقبلنا للآخرين، وأقول إن كل طرف يحمل جزءا من الحقيقة الكاملة بغض النظر عن قِسمه منها، ولكي تكتمل صورة الحقيقة يجب ألا نمنعهم من الوصول بجزئهم إلى النهاية.

هذه النظرة الدراويشية لا تصلح لبناء وطن ينهار.

- هذه النظرة الدراويشية لا تصلح إلا لمن هم في مثل سني، أنا قريب م
سن الأربعين الآن، ليس سن إعداد للحياة ولا سنا للرحيل عنها، وأر
أن أرى الأمور عندما أصل لهذا السن كما يراها العائد من صلاة الفجر
في ليلة صيفية وأحتفظ بهذه الرؤية عندما أصل إلى سن حضرتك
أطال الله في عمرك.

- سن الأربعين سن مثمر، إنه سن النبوة..

- بالضبط

لا شيء مما قلته كان يمكن أن يقنعه بنقيض ما يظن، يبدو أنها صارت حالة عامة في البلد، قمت فقام ليودعني من خلف مكتبه، وبدا وهو يصافحني بقوة يد ذكرتني بحماي، يدفع يدي في صدري وكأنه يطلب مني ألا أسرف في مشاعري تجاهه...

شكرته وأنا أزيد من اتساع ابتسامتي في وجهي:

- أنا ممتن لحضرتك جدا، هذا رقم تليفوني في حال عاد أبي، أتمنى ألا أكون قد ضيعت الكثير من وقتك الثمين.

....

سرت بعد أن غادرت البنك دون خطة محددة، هل انتهت رحلتي قبل أن تبدأ؟

في أي أزمة مررت بها من قبل كان لابد لها أن تصل لنقطة تعادل أو توازن ما، تكون فيها المكاسب على قدر الخسارة، عندئذ أدرك أنني

، صلت للسلام النفسي اللازم لاتخاذ قراري السليم، أعرف ذلك عندما أ.و.فف عن الحزن وعن التعلق، رغم أن آثار هذا السلام النفسي كانت سببا في انتقاد الجميع لي، يلومونني على أنني أصل بمشاعري إلى نقطة النهاية بسرعة وقبل أن يصل لها الآخرون بوقت طويل، أسميه نضوجا سريعا، أما أمي فكانت دائما ما تردد أن مصدق الذي هو أنا في كل علاقاته البشرية مثل الحمام عندما يُحبس لا مرارة له، أموت إن مرت لحظة واحدة عليَّ حبيسا، لذا فأنا أخسر كثيرا لأتحرر سريعًا..

ولكني لم أعد حزينا كبداية رحلتي، رغم أنني لم أصل بعد لنقطة التوازن، تُرى ما السر في أنني لم أعد حزينا، قد يكون بفعل الإرهاق، ربما لأنني بدأت أندمج في التجربة، لم أعد أفكر في نهاية ما أمر به من أحداث، هذا هو سر كل معاناة البشر، التفكير في النهايات، لو أننا نخرج إلى العالم كما يخرج النحل لجمع الرحيق وكما تخرج الأغنام إلى مراعيها والعصافير إلى رحلة بحثها عن البذور، لصار العالم أسهل، ولكني كنت أحتاج للموعظة الآن لأتخفف من أحمالي لا لأسير في طرقات العالم، أريدها في طريقي الخاص، أريد شخصا مؤمنا ليفند لي شكوكي ووساوسي، مللت من لعب دور المهاجم والمدافع معا.

وكأنني أسمع الشيخ خليفة يقول:

- لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتعود بطانا..

فأجيبه ساخطا:

- الغراب يسرق والصقر والبوم يقتلان والببغاء ينطق بغير لغته كاذبا ليكسب عيشه، أليست هذه طيورا؟.. وهل تظن أن العصافير البريئة لا تلتقط سوى ما يقع من البشر كالدراويش، إنها تسرق البذور أيضا.

وكأني بالشيخ خليفة يرد قائلا:

- تعهَّدتُ الطير دائما فلم أجدها تسرق إلا ممن لا يُخرج زكاة الزروع، إن حق الله مأخوذ ولو أبيت...

فأجيبه قائلا في سخط:

- يا شيخ خليفة أنت تعيش في عالم غير العالم إن كان الأمر كما تقول، لقد فسد العالم وأنت نائم في المقابر.

....

سأغسل وجهي في مسجد ما، وبعد أن أؤدي صلواتي المتأخرة سأبحث عن إحدى طاولات الفول الشهيرة لأملأ بطني ثم أشرب كوبا من الشاي على مقهى قبل أن أكون صالحا للتفكير مرة أخرى..

بحثت عن فندق، في الغرفة التي لم يكن ثمة دولاب فيها لحفظ الملابس خلعت قناع وجهي الباسم والعابس معا، أي شخص أكونه عندما لا أكون سعيدا أو تعيسا؟ لو أن هناك مرآة لغطيتها.. إن الشبح الذي بداخلي لا يطفو على ملامح وجهي إلا إذا اطمئن لعدم وجود مرآة!!

أتحسس ملامح وجهي في خوف كأن شخصا غريبا تلبسني،
.. أما؟

سرير واحد يتسع لشخص منفرد لا يقلبه العذاب بالذكرى في أرق
.. وم، وأباجورة على الحائط فوقه هي مصدر الإضاءة الوحيد وأربع
.. راسي خشبية استخدمت أحدها دولابا أطوي عليه ملابسي والآخر
. صدة للكتب والأقلام والآخر للأكل وللطعام المتبقي، أما الكرسي
الرابع فتركته للأوقات النادرة التي قد أجلس فيها، ففي الغربة يكون
.. فاد هو الوضع الأمثل، الرقاد وإمعان النظر إلى السقف..

سأنام الآن، على مرتبة جافة كأنها محشوة بجرش العظام، أحلم
بمعضلة اختفاء بسيطة لا يخرج فيها أبي عن تفسيرين، إما أن له حياة
سرية أخرى أراد أن يتمها بعد موت أمي، أو أنه يبحث عن اهتمامنا الذي
يفتقده بالاختباء المؤقت عنا، في الحالة الأولى قد لا أعثر عليه أبدا،
أما في الحالة الثانية فسيعود بالتأكيد، ربما إعلان في الجرائد.. رجاء
من أولادك المحبين أن تعود إليهم، إهداء أغنية في الراديو إلى والدنا
الغالي، يسمعها جالسا في مقهى مظلم أو غرفة منفردة فوق سطح
أو مسافرا في سيارة أجرة، ستنهمر الدموع وسيعود، أما أنا فسأنام حتى
صباح اليوم التالي..

أضطجع على شقي الأيمن وأتلو دعاء النوم الذي كان منقوشا على
ذاكرة لساني دون أن أتمعن في الكلمات:

- باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فإن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.

أرى عيني طفلي عندما أغمض عينيّ وهي ترقبني منتظرا حكايته اليومية: ربما سأحكي لطفلي الصغير ذات يوم عن رحلتي تلك.

- كان ياما كان، ولد صغير في مثل سنك لم يعلمه أبوه السباحة ولا لمرة واحدة أبعد من الشاطئ خوفا عليه أن يغرق في البحر البعيد، عندما صار كبيرا ذهب أبوه العجوز في مركب ودخل في البحر فصار لزاما عليه أن يذهب خلفه ليبحث عنه، ولكنه كان خائفا من الغرق.

....

الفصل السادس

من قتل الجمل الأصفر ؟؟

في غرفتي بالفندق بت أول ليلة مؤرقة، ومثل طالب من الطلبة المنوثين بالأمل حولي، سبقتهم بالاستيقاظ من النوم ولكنهم سبقوني بخطواتهم وأصواتهم، سرت في شوارع المدينة الجنوبية، النظرة الأولى لأي مدينة جديدة لن تكون حيادية، ستكون مليئة بالمقارنة بين مدينتك وبينها.

إذا أردت أن تعرف أخلاق أهل مدينة ما فتفحص وجوههم وتابع ردود أفعالهم أثناء ذلك، في المدن القريبة من الريف سيظنونك تائهًا أو تبحث عن مكان فيتطوعون لإرشادك، أما في المدن التي تشبعت بعض المدنية فستأرجح بين كونك فضوليا أو مجنونا، أما في المدن الحقيقية فلن يلتفت الناس إلى نظراتك الفضولية، سيمرون بك سريعًا، وأنت في الزحام كائن من زجاج..

تناولت إفطاري في الشارع، خبز ونواشف كما يسمونها، أي شيء يصلح لتناوله وأنا أسير، أتأمل وجوه المارة وظهورهم باحثا عن وجه

أبـي وظهـره بين العجائـز، كم يبـدو العجائز متشـابهين وكأنهـم بمروا
عبـر اسـطمبة واحدة مـن المعاناة، هذا ما اكتشـفته أيضا بعـد موت أمي
كل الأمهات يتشـابهن، ولكن الذكريات المشـتركة تميز الوجوه كما تميز
الأوراق الخضـراء شـجرة يابسـة إذا كسـت فروعهـا في حديقـة ملمومة
باليبوسة..

قمـت بتعليـق الإعلان في الشـوارع المحيطة بالبنـك، قمت بتوزيعه
علـى السـائرين، كان البعـض ممـن أعطيهم الـورق يأخذونه ويسيرون
بسـرعة دون تصفح وكأنني سـأطالبهم بصـدقة، والبعض الآخر يتصفحه
بسـرعة ويشـجعني بابتسـامة، أما القليل جدا فكانوا يسـألونني عن تفاصيل
اختفاء أبي...

فـي عيونهم كان يومض سـؤال لا يسـألونه، ما قيمـة رجل عجوز في
هذا الزمن الغريـب؟، الشـباب اليوم يموتـون في كل مكان دون ثمن، في
الوطن وخارجه، على السـواحل وفي عقر بيوتهـم، لهذا كنت أعلم يقينا
أن ورقتي سـتضيع هبـاء، ربما كان خليفـة محقا، سـيلقون الورقة خلف
ظهورهـم بمجـرد أن نفترق، هـذا لا يؤلمني، فأنا منذ غادرت بيتنا أشعر
أن ما أفعله يشـبه الطقوس التي يقومون بها لتقديـس الجسـد الذي مات،
وكأننـي ألقـي حفنة تراب في الحفرة التي تضـم جسـد أبـي لا أبذل حتى
مجهود أن أحمل مجرفة جيدة لأدفنه، لا.. لا أعلم حتى أين سيدفن، ربما
تكـون رحلتـي كلها من أجل أن أزرع صـارة علـى قبر فارغ أو ألقي زهرة

ر الحر الذي سأشك أنه غرق فيه، ولكني كنت مضطرا للبحث، وكأن .اني للبحث عن أبي العجوز بحث مرادف عن منابعي وجذوري، ذلك " ـه ت الذي لن يكون سوى مجرد عودة إلى نقطة البداية ليصير الصفر . ـنذير بكامل أبهته صفرا كنقطة منعدمة؟

امشي، أسير، داء عائلتنا السير على غير هدى، داء أم دواء؟

السير مثل طعام الجمال... من قال لي هذه الجملة؟

الشيخ خليفة مجنون، لم أشك في ذلك أبدا، ذات يوم رأيته يسير ، ي المدينة القريبة، يسير بسرعة، تبعته حذرا من أن يراني، واثقا أنني . أعرف سرا من أسراره التي لا يختلط بالناس من أجل إخفائها، سار ائرا على الأسفلت وقبل أن يصل إلى سور النادي دخل في لُحمة البيوت، يسير بسرعة، أمام طابونة العيش يلتقط نصف رغيف محترق ملقى على الأرض ويضعه تحت إبطه، فيلا عضو مجلس الشعب، يمر ، بضرب جرس البوابة طويلا كالأطفال الأشقياء ويمشي، اسمع صخب أطفال المدرسة الإبتدائية، هذا سور المدرسة من الخلف الذي طلب السكان تعليته ورفض رئيس مجلس المدينة فاعتصموا، وعندما جاءت الكاميرات قالوا إن المدرسين يتحرشون بناتهم، لم آت هنا من قبل، ولا رأيت تلك البيوت المبنية من الطوب النيئ، ربما هذه عزبة الغجر من الخلف، ولكن أين الساقية؟، لا يوجد إلا ترعة صغيرة مر عليها وبدون أن يجلس أمامها فتت رغيف الخبز وألقاه في الماء للسمك ثم واصل رحلته، يدخل بين البيوت من الناحية الأخرى، أدخل خلفه، في نهاية شارع

ممدود وقبل أن أستدير هاربا من الفخ الذي نصبه لي يستدير هو مبتسما ويعود لي، عندما وصل إليّ سألني: لماذا تتبعني يا ابن الغالي، تعال

يمسكني من يدي ويسير، لا نعود إلى سور المدرسة، من شارع خلفي وبعد خطوات قليلة أجد نفسي أمام سوق الخضار، سُرة المدينة. كيف؟ كيف؟، صحت مندهشا في بهو نفسي الداخلي، نحن بعيدون عنه جدا، أنا رأيت الغيطان المزروعة على طرف المدينة منذ قليل، التفت إليه فأجده يضحك من الدهشة على وجهي فأقول متسخطا.

- مشينا كثيرا بلا هدف.

- المشي لا يضيع هباء، إنه مثل طعام الجمال.

أفكر في كلامه ونحن نمشي، يدي في يده، يسحبني على الأرجح، نمر بين صفين من باعة الخضر والفاكهة، نتوقف عند بائعة الملح الجَرِش في نهاية السوق، ملح ناتج الملاحات مباشرة دون تكرير تبيعه امرأة أربعينية باسمة ضحكت عندما رأته فضحك لها، حادثها بلهجتها الساحلية التي تمط نهايات الكلام، من البرلس، كنت أراها أحيانا تبيع سمكا في شوارع قريتنا في قفة من الخيش فوق رأسها، يُخرج المال من جيبه، اليوم هو أول الشهر، نصف مرتبه يعطيه لها، نصف المال يدسه في جيبه، تعطيه جوالا صغيرا من الملح يحمله على كتفه في حماس، نسير، يدس إصبعه في فتق بجوال الخيش ويسحب منه فصا من الملح الخشن، ويدفعه إليّ قائلا:

- خذ خذ لا تخف، هذا أنظف شيء تأكله في هذا البلد.

، ..س إصبعه مرة أخرى ويُخرج لنفسه واحدا آخر ويضعه في فمه،
.. م .، افعل كما يفعل، قلت لنفسي في تراخ فزع كأنني أتحدث مع
، ي في حلم (جميل، أنا الآن أسير في سوق مدينتي المليء بأهل البلد
.. ـمي مجنون البلد وهو يحدثني عن فوائد الملح الغير مكرر الذي
...ل جوالا منه على كتفه، ويرتدي خفي نعل من حذاء مستعمل مخيط
.. ،الد قطعة من سير ماكينة جرش الأرز).

لنحدث حديثا مفيدا على الأقل، سألته:

، اذا تقصد بأن المشي مثل طعام الجمال.

الجمال تأكل كثيرا مع أنها ليست نهمة، فهي تأكل تحسبا لجوع الصحراء، تختزن طعامها للوقت الذي تحتاجه فيه.

قلت مغمغما:

أعرف هذا ولكن ما علاقة المشي بطعام الجمال؟

أشار بيده في ضيق:

انت لا تعرف شيئا، قل لا أعرف وسأخبرك.

لا أعرف.

انفرج وجهه قائلا:

عفارم عليك، إذا كنت تمشي كثيرا دون هدف سيأتي عليك الوقت الذي يجب أن تمشي فيه قليلا لتصل إلى هدفك بسرعة، الناس لا يفهمون ذلك، يدفعون أموالهم في المواصلات وهم لا يفهمون.

قلت متفلسفا:

- المشي أسرع بلا شك، عندما تعرف أماكن الشوارع والبيوت فتمر م شوارع لا تمر منها وسائل المواصلات العادية وتصل بسرعة.

قال غاضبا:

- أنت لا تفهم ولا تريد أن تفهم، مُص ملحك وامشِ وأنت ساكت.

....

وكنت أسير، طعم الملح في فمي ليس من فص الملح ولكن م عرق وجهي وكلمات الشيخ خليفة في أذني تجعلني أبتسم، أسير دو هدف، أفهم كلام الشيخ خليفة الآن فهما مغايرا مختلفا عن الفهم الذي حاول إيصاله لي والفهم الذي حاولت دفع فهمه به، مكتشفا أن مكمن المعاناة التي عانيتها في حياتي أنني كنت أصدق كثيرا، بلفظ أدق: أخلط بين ما أصدقه بالفعل وما ينبغي أن أصدقه وما يجب أن أصدقه لأعيش حياة مستقرة...

نحن نسير في المدارات المخصصة لنا، مصدق، أول نقطة في المدار هو اسمك الذي يطلقه الآخرون عليك جزافا، ولكن أبي كان يعرف لماذا سماني بهذا الاسم، سماني على اسم صديق درويشه الغامض في الصحراء والذي لا أعلم حكايته، سرت في هذا المدار الذي خطه لي أبي حتى اكتشفت أنه ليس ثمة مدارات دائرية، كل المدارات الدائرية محض كذبة، لا مدار دائري لأنه لكي نستكمل دوراننا لابد من قصور ذاتي، في

...مر، الذي يصنع بيضاوية المدارات تكمن طفرات حياتنا واختلافنا الأمرين..

.. ما سألت نفسي عن أماكن الانحراف في مدارات أبي ومؤمن ... وحياتي، ربما كان انحراف أبي يوم أن قرر أن يتبع درويش ...ال في الصحراء، أما مؤمن فبالتأكيد كان يوم أن قرر أن يصبح نائبا ...الله في الأرض، أما خليفة فكثيرا ما تساءلت هل كان انحرافه يوم أن ... حالي بالاسم الذي أغضب أبي وجعله ينبذه أم يوم أن طارده الجمل ...مر أم يوم أن قرر أبي ألا يوافق على زيجته مدعيا أنه غاضب منها..

لا أنكر أنني قاومت رغبة شديدة في أن أخبر مدير البنك أن خليفة ... امر انسان على وجه الأرض يصلح للبحث عن أبي، ليس فقط لأن ...ايمة هو الذي اخترع طقس الهروب من البيت في عائلتنا ولكن لأنه ...من مرة هرب فيها إلا بسبب غضبه على أبي.

ظل أبي وخليفة مثل شخصين متشابهين في أسباب الحياة، تنافران ...ة البقاء لا بترف الرغبة، عندما كان أبي يقوم بمعاقبة خليفة بطريقته المميزة في فرك الأيدي لم يكن يصرخ مثلنا، من عينيه المحملقتين في ...يني أبي وكأنه يتحداه ربما تطفر الدموع خاصة إذا تمادى أبي في عقابه، ولكنه لا يبكي أو تنسكب الدموع من عينيه..

في وقت ما من مراهقته انضم خليفة إلى نادي البلدة حيث كانوا يمارسون طرقا غريبة لتقوية عضلاتهم وتنميتها أشبه بالطرق التي يمارسها الكهنة غريبو الأطوار في معابد الشاولن، يصبون الأثقال

الحديدية في طارات الغرابيل الكبيرة والصغيرة، ويكسرون عظام أحواضهم بطرق وحشية أقرب للاغتصاب منها للرياضة، ولكن خليفة فُتن بالطرق التي تستعمل في تقوية الأيدي، كانوا يقومون بإشعال النار في حطب يجمعونه ويضعون عليه جرادل من الصفيح مليئة بالرمل ويغرسون أيديهم في الرمل الساخن منفرجة الأصابع، في البداية أصابه بعض الحروق واكتسى جلد يده لونا مغايرا وكأنه يرتدي قفازا ثم اشترى هاند جربس، وهو نوع من الأجهزة الرياضية المبسطة التي تستعمل في تقوية الأيدي عن طريق ضم ضلعي مثلث إلى بعضهما البعض مدفوع بينهما بزنبرك قوي، لم يكن يتوقف عن التدريب عليه حتى أثناء الأكل وقبل النوم وفي الحمام، وكان الزنبرك يصدر صوتا مثل زقزقة عصفور لدرجة أنه كان يمكنك معرفة مكان خليفة من صوت الزقزقة..

في السن الذي توقف فيه أبي عن معاقبتنا كان خليفة قد حصل على يد متكاملة في جسد ليس بنفس التكامل، عرفت فيما بعد أنه كان يقوم بتحدي زملائه في الجامعة بمباريات هرس الأيدي تلك، ربما لو لم يكن خليفة المنتصر الوحيد في كل مبارياته لانتشرت باسمه بفعل التنافس، وحتى بعد أن تخرج خليفة وحصل على وظيفة محترمة لم يتوقف عن استعراض قوة يديه فيمن يصافحهم من زملاء العمل ومن العملاء حتى الغرباء منهم، كان يخبرني أن الأجانب يحبون من يصافحهم بقوة، لأنها تدل على قوة الشخصية..

....

، لكن خليفة لم يسـدد ضربة حرف الخاء في أول اسـمه بالكامل إلا
...ـا قـرر الزواج، عندما أحب زميلته في العمل ولكن أبي ولأسـباب
...ـة رفـض الذهاب معـه لطلب يدهـا من أبيها، لمدة سـتة أشـهر ظل
...ـة يتلوى بنيران رفض أبـي واضعا كل ثقل أمله فـي مفاوضات أمي
...ضغط عليه حتى انفجر ذات يوم من أيام الشتاء عند عودة أبي من صلاة
...ـاء، انتظر حتـى دخل أبي غرفته فدخل خلفـه، دار الحوار أولا على
...ربات هادئة مثل حوار يدور بين عشـقين في حديقة كل ما فيها يرهف
...ـاسهما للتورط في حوار هامس، ثم بدأ صوت أبي يعلو بكلمات مثل
... ، لو أنك رجل، لو تـستطيع أن...، لو تجرؤ، من أين ستطعمها، لا شأن
... بأسـبابي، ارفض كما أشـاء، هذا بيتي وليـس بيتك) وبينما بدا خليفة
... ـسكا بدبلوماسـيته مكررا كلمات متالية مثل (لا تضغط) صاعدا في
...حوار إلى (ستندم) ثم (لـن التفت إليك حتى) إلـى (كأنك مت) وهنا
...معنا دقات عالية كأنها من مطرقة على خشـب لا يمكن أن يصدر هذا
...صـوت العالـي إلا من ضلفة الدولاب المجاور لـسرير أبـي، دقات رُد
...ليها بطرقات أخرى قريبـا من الباب المغلق، طرقـات أضعف قليلا لا
...كن تفسـير ضعفها إلا بنوع الخشب: سُمكه والتصاقه بالحائط لا بقوة
...الـيد، كأن ذلـك خليفة يـدق على عارضـة البـاب، انبعثت أمـي فجأة من
المطبـخ ممتقعة الوجه وكأنها قررت أخيرا أن تتدخل، تقدمت بخطوات
...مرتعشـة من باب الغرفـة المغلق، حاولت دفع الباب ولكنـه انفتح جزئيا
وكان خليفـة واقفا خلفه منهمكا في التوغل في عدائه لأبي لدرجة تجعله
لا يشـعر بالباب الذي يصـطدم بظهره مرة بعد مرة، دقت أمي على الباب،

نادت على خليفة في خنوع وكأنها تريد أن تبثه روح انهزاميتها برفق دو
أن تهينه، كررت أمي نداءها وهي تعلو بطبقة صوتها فتخلطها بنبرة
التحذير المستتر، لم يرد خليفة على الفور ولم يرد بلفظ بل فتح البا
كشهقة واندفع هو من فراغ الباب مثل دخان مارد يتعجل تجسده قبل أ
يندثر في الفضاء، بلهفة حاولت أمي أن تتشبث بملابسه لتمنعه من الرحيل
ولكنه تفاداها وهرب عبر الباب إلى السلالم ومنها إلى الشارع..

غاب خليفة عن البيت ستة أشهر كاملة، كم بدا خليفة في بداية هذه
الأيام نبيلا وشجاعا وكم بدونا أنا ومؤمن تافهين عاجزين بينما أمي
ترجونا واحدا تلو الآخر أن نبحث عنه ونعيده إلى البيت، كم بدا أبي غ
حقودا وهو يعود كل يوم فيلتهم طعامه المطبوخ على حرارة تنهدات أمي
وملح دموعها ثم يذهب ويغلق باب غرفته دون أي مراعاة لمعاناة أمي

ذات يوم أخبرني مؤمن أنه ذهب إلى مقر عمل خليفة وقابله ومنذ ذلك
اليوم وبينهما اتصالات تليفونية مستمرة ومنتظمة، ثم قال لي ليطمئنني

- وجعلت أمك تكلمه أيضا لترتاح وتهدأ.

سألته في قلق:

- كيف بدا عندما قابلته؟

فتح ما بين ذراعيه واسعًا وقال بصوت تعمد تغليظه:

- مثل الخرتيت، سمُن وتختخ في شهر واحد ما لا يستطيعه هنا في سنين.

- لم أقصد هذا، بل موضوع الزواج من زميلته.

أنه عن هذا تحديداً، قال لي إنه لن يتزوج ضد رغبة أبينا مهما كانت درجة الظلم الذي يوقعه عليه، وأيضاً لن يتزوج غير زميلته حتى لو اضطر لقطع ذكره.

ووفى خليفة بوعده (أو وعيده) عندما عاد، لم يخص نفسه ولكنه لم يعد يُلح على التزوج من زميلته، لم يرتفع صوته مرة أخرى على أبي إطلاقاً ولا على أحد منا، وكأن خفوت صوته طبيعة لا يتعمدها وإنما اكتسبها من تجربته ومن حزنه، لم يَبْدُ على خليفة أي من مقدمات الدروشة عدا خفوت الصوت وثقل الحركة وابتسامة ملتصقة على وجهه كقشرة عنيدة من قشور السمك تأبى أن تسقط، لذا كانت دهشتي بالغة عندما أيقظني مؤمن ذات صباح وهو يخبرني أن خليفة أخذ على نفسه العهد ولبس الخرقة أمام شيخ من مشايخ الطرق المتفرعة من الطريقة الشاذلية، انتترت جالساً من شدة المفاجأة وأنا أصيح:

خليفة؟...

رأيت مؤمن واقفاً أمام سريري، مرتدياً ملابس الخروج، ولكنه كان عائداً من الخارج، مبتسماً رغم إرهاقه عندما وجد ان كلماته حققت المرجوّ منها.

....

كانت اتصالات مؤمن بخليفة في الفترة التي ترك فيها البيت قد جعلت منه الشخص الأول ومرافقه ومفتاح صندوق أسراره، حكى لي مؤمن:

- أنت تعلم أنني أحب السفر خاصة إذا كان حساب الأجرة والمنار،
والمطعم على أحد غيري، وإذا كان سبب السفر غامضا فهذا يثير
أكثر لخوض التجربة.

أيقظه خليفة صباح الأمس وأخبره أنه شم في هذا الصباح رائحة شواء لحم الجمال لذا فهو سيذهب إلى طنطا ليأكلها، سأله مؤمن هل ستذهب كل هذه المسافة من أجل لحم شواء، قال له وما ضرر ذلك، لن أكلفك مليما ولك شيء واحد نشتريه لك هدية حتى لو كان بألف جنيه، لم يستطع مؤمن مقاومة إغراء هذا العرض السخي، قام على الفور وارتدى ملابسه، سيارة خاصة أخذتهما من الموقف ومطعم على أعلى مستوى من الخدمة ثم مقهى عامر بالزبائن في منطقة فاخرة وشيشة تفاح، كان مؤمن في بدايات التزامه بالسمت السلفي، سألت مؤمن في دهشة:

- ودخلت المقهى معه؟

أخبرني أن خليفة كان مريبا:

- ولكي أكون صادقا معك كنت أشك في نية أخيك بعد هذه الرحلة،
نظرة واحدة على ما تبقى معه من مال أثبتت صحة نظرتي، وأنت تعلم
أن خليفة بعكس أبيك يحمل معه في السفر كل ما يملك من مال.

بعد الشيشة أمال خليفة جسده للخلف على الكرسي ونظر إلى السقف العامر بالمراوح وبدا لنصف ساعة وكأنه فقد نفسه هناك، ثم تحركت حنجرة آدم في حلقه حركة واهنة وكأنه سيقول شيئا، ولكنه لم

. ا. فكر مؤمن أن يفعل مثله أيضا، انطرح على الكرسـي وأدار رأسـه ها. إلى السـقف وعندما بدأ في استعذاب الوضع تكلم خليفة.

. الت مؤمن:

. ادا قال؟

/' أتذكر، كان يقول شـعرا أو حكمة أو فيزيـاء مختلطة بالفلك، أخوك ـليفة طلع مثقفا ونحن لا نعرف، ولكنه لم يكن خليفة، قال أشياء عن .ماومة دوران الأرض وعن التعاسة التي تنتج عن ذلك، قال إننا يجب أن سـافر في اتجاه الشرق دائما ولو أدى بنا ذلك إلى السـفر طيلة العمر ا.صـل إلى أهدافنا، ظننته يسـخر مني وعندما نظرت إليـه كان لا يزال .حلق في سقف المقهى بتلك النظرات الغريبة.

ثم اعتدل خليفة فجأة وقال لمؤمن:

هل تعلم أن أباك يخفي عنا سرا هائلا؟

وما هو؟

سـألت مؤمن فهز كتفيه وقال:

عندما سـألته قال سـأخبرك عندما يحين الوقت ولكني سـأخبرك أولا عن سـبب غضـب أبيك مني ورفضه لزواجي.

ثم اعتدل خليفة واعترف:

أنا لم أذق لحم الجمال من قبل.

- كذبت على أخيك يا خليفة؟

- لا... شممت رائحة شواء بالفعل هذا الصباح.

- وكيف عرفت أنها رائحة شواء لحم الجمال.

- سأخبرك، في يوم من الأيام مرض الجمل الأصفر، هل تعرف الجمل الأصفر، كان أفضل جمل عند أبيك، كان أحب إليه منا ومن أمك، كان مرض الجمل مفاجئا وأبوك على وشك أن يسافر في رحلة من رحلاته وقد اتفق مع التجار والفلاحين، ولم يكن أبوك يكره شيئا في هذا العالم أكثر مني إلا أن يُخلف كلمته مع أحد.

- أبوك لا يكرهك يا خليفة، الأب لا يكره.

- والجمل لا يعض صاحبه ولكنه إذا صار جُنبا عضه، دعنا من هذه المناقشات الفرعية، المهم، لأول مرة منذ بدأ أبوك يسافر مع الجمال، ترك الجمل الأصفر مضطرا، تركه في رعايتي، أوصاني أنا تحديدا، لم يوص أمك، كنت مراهقا طائشا، ولكنني لم أكن صغيرا عند أبيك، أعطاني مالا وقال لي أن أحضر الطبيب البيطري وأتبع تعليماته بدقة، وبالفعل، جاء الطبيب وفحص براز الجمل، ونظر في فمه، ثم قال إن الجمل أكل شيئا مسموما، وإنه سيموت.

- وماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئا، صرخت أمك خوفا من غضب أبيك المتوقع عندما يعود فاجتمع الجيران على صرختها وكأن عندنا ميتا حقيقيا، أعطيت

الطـ ـب أجرته فانصرف وهو لا يدري أنه بتشخيصه الغبي قد حكم
على اثنين في هذا العالم بالموت والشقاء، تجمع الرجال حولي في
ـه عزاء وهم يوسوسون لي بأن أبي سيغضب إذا جاء ووجد أن
الجمل قد مات دون ثمن، وأنه يجب عليَّ أن أذبح الجمل ويتعاون
أهل البلد كلها في شرائه بثمن مخفض فيستفيدون ونستفيد كما هي
العادة في مثل هذه المواقف بدلا من أن يموت الجمل (فطيس)، لم
أوافق في البداية ولكن ظل ضغطهم عليَّ مستمرا حتى وافقت، عندما
هززت رأسي انطلقوا على الفور واقتادوا الجمل من مبيته إلى الخارج،
صرخت أمك وصاحت ماذا ستفعل يا خليفة، سيغضب أبوك يا خليفة،
روح أبيك معلقة بهذا الجمل يا خليفة، اقشعر جسدي من كلماتها
ودمعت عيناي وكدت أن أصيح في الرجال ولكن حيائي منعني، لو
أنني استمعت لنصيحة أمك يا مؤمن ولكن الأمر تم بسرعة، حتى
الجمل الشموس الذي لم يُطع أحدا في الدنيا إلا يد أبيك خرج في
أيدي الرجال لينًا وكأنه يتعجل الموت، كانت عيناه تغرغران بالدموع
مثل بشري يفهم ويتألم، كان الجمل يتعثر، لا أعرف إن كان بسبب
اجتماع الرجال حوله أم من شدة المرض، أناخوه بسهولة، ولكن رقبته
ظلت منتصبة، تمتم الذابح بالشهادة في أذنه فأغمض عينيه وارتاح
برقبته الطويلة على الأرض، وعندما مرت السكين الحادة على عنقه
لم يتدفق الدم على الفور، فتح الجمل عينيه وكأنه دُهش أو فزع من
الألم ثم غرغر، عندما غرغر اندفع الدم كنافورة أغرقت ثياب كل

الرجـال حتـى الحذرين منهم، أقســم يا مؤمن، سـنة كاملـة درت ذه
كالتائـة ورأيـت جمالا تُذبح، لا أسـافر إلا لأرى الجمـال وهي تذبح
لكني لم اسـمعها تُصدر صـوتا مثل هذه الغرغرة، الجمال تجعر عند
تُذبـح، تخـور، أو لا يخرج منهـا صوت على الإطـلاق مهما حاولت
يصفـر الهواء من أعناقها المشـقوقة، ولكن هذا الجمل الأصفر غرغر
كل النســاء المتجمعات حول أمي وحتى بعض الرجال طفرت الدمو
من أعينهم عندما سـمعوا تلك الغرغرة، أمـا أنا فأيقنت حينها من كلام
أمي، لدرجة أني لم أسـتطع أن أرمش، ظللت أنظر لعيني الجمل وهـ
تنغلقـان في هدوء وهو ينظـر لي تحديدا، بينما لا أسـتطيع أن أغلق أنا
عينـيّ، وكأن الجمل ألقى ما كان مكتوبا له من رؤية في عينيّ أنا، كأنها
لعنتـه على قاتلـه، لم أعلم أبدا مـدى الراحة في حركـة جفن العين إلا
في هذه اللحظة، حتى التراب اللاذع الذي يثيره الرجال بأقدامهم وهم
يرفعـون الجمل ويسـلخونه لم يسـتطع أن يُغلق عينـي، نصـب الرجال
قائمـين خشـبيين فوق جثة الجمـل وعلقوا بينهما البلانك ذا السـلسـلة
ورفعـوا الجمل، كان يتأرجح فـي الهواء وعيناي لا تفارقانه، سـلخوه
وجـاءوا بميـزان صغير وحاولـوا أن يجعلونـي أنا القائم علـى وزن ما
يقتطعونه من لحم، ولكني هربت، هربت يا مؤمن، لم أهرب خوفا من
أن أشـهد السـلخ والتقطيع، ولكن خوفا على عيني، حاول الرجال منعي
من الهـرب، حاولوا أن يسـتبقوني لأحضـر عملية البيـع وأقبض الثمن
ولكني راوغت أيديهم وهربت.

.. هد خليفة عندئذ وجرع كوب الماء دفعة واحدة، ثم واصل حديثه م و ت كئيب:

.. جرد أن وصلت للشارع انغلقت عيناي وحدهما، اندفقت الدموع . ن خلف جفنيّ ليس تأثرا ولكن بفعل التهيج، ظللت مغمضا لهما , انا أجري، أصطدم بأعمدة الكهرباء وجدران البيوت وأتعثر وأقع، لا ا بد ان افتح عينيّ فلا أستطيع أن أرمش مرة أخرى، أرى بالجغرافية المختزنة في ساقيّ الشوارع وجدران البيوت، وعندما شعرت بهواء الغيطان يلفح وجهي فتحت عينيّ فرأيت ماء الترعة وقد كدت أن أقع بها، هناك، تحت شجرة جميز أغمضت عينيّ مرة أخرى ونمت، في تلك الليلة شممت رائحة شواء ولحم مُحمر، لم أشتهه بل شعرت به وكأنه رائحة دم يحترق..

تنهد خليفة مرة أخرى، أغمض عينيه طويلا ثم فتحهما، صفق بيده , طلب كوبين من السحلب، حليب صاف وزجاجة ماء معدني باردة، ثم قال:

كما تعرف، في العادة كان أبوك إذا سافر لا يعود إلا بعد مدة لا تقل عن أسبوعين، ولكنه عاد هذه المرة بعد عشرة أيام عددتها عدًّا ما بين مبيت في مسجد أو فوق سطح بيت مهجور أو في الغيطان مثل كلب طليق، وفي اللحظة التي ظهرت فيها رؤوس الجمال خارج البلد كنت نائما في المسجد قبل ساعة العصر، أي احتمال لأن يعود أبوك من ناحية المسجد لم يكن ممكنا، سواء أتى من الشرق أو الغرب، رغم

أن المسجد كان بداية البلد والمؤدي إلى شوارعها وإلى بيتنا الق...
في نهايتها، كان الطريق الأقصر ولكن أباك كان يفضل الذهاب ..
خلف البلد على الطريق الزراعي والمرور حول كتلة البيوت بع...
عن الناس كأنه يخاف من حسدهم، ولكنه في هذه المرة سل...
الطريق الأقصر مرورا بالمسجد، كان متعجلا، سمعت رغاء الجما...
وهي تمر بجانب المسجد فارتعدت وفرفطت في ملابسي نقط...
من البول، دهشني ظل أجسادها العالية وهي تمر مثل قطع سحا...
متفرقة تسبح في السماء تحجب ضوء الشمس في مرورها عن با...
المسجد، نظرت الجمال من النافذة بجانب رأسها واحدة تلو الأخرى
وهي تمر ورأتني وعرفتني ورغت رغاء مختلفا مثل نهيم الفيلة وكأنها
تنبه أبي إلى وجودي، كدت أذوب في حُصر المسجد تحتي من شدة
الخوف أن يتنبه أبي فيراني رغم أنني أعرف أنه لا يركب الجمل في
بنيان البيوت لئلا يكشف شيئا من أسرار البيوت الواطئة، بعد مرور
آخر الجمال قمت بسرعة قط هارب واندفعت من الباب وجريت في
الاتجاه المعاكس، كنت أجري وأنا منحنٍ، أجري وأنا أنحني أكثر
وأكثر كلما وقع في وهمي أن أبي قد يكون خالف عادته فيراني من فوق
بنيان البيوت من على مطيته العالية، لم أعلم قبلها أنه يمكن لإنسان أن
يجري وهو منحنٍ إلا في هذا اليوم، لماذا لم أهرب إلا اليوم، وممَّ
أهرب، أهرب من ذنب ارتكبته وأنا أتلقى بصبر طيلة حياتي عقابا
تلو عقاب على ذنوبٍ لم ارتكبها، ومن سيتلقى العقاب بدلا مني،

.. و المسكينة!، كنت أنت صغيرا يا مؤمن، لا تهدأ في مكان، ولكن .. ن كان رضيعا، أتذكر فمه الأحمر في شال أمي، أنفه ورموش .. الصفراء وأصابعه الصغيرة المخددة وكأنها نُقعت في الماء نهارا .. لا، لن يفتقدني أبوك وهو الذي لم يشتق لي مرة عندما كنت ذكرا .. عبداً، وبدلا من أن أهرب لخارج البلدة وجدت نفسي أجري إلى .. ملها، ولكني لم أعد خفيفا كما كنت في هروبي، كنت أجري بسرعة .. لا أنجز المسافات وكأنني أجري في كابوس، ولكني وصلت كما .. يحدث في الكوابيس، كان أبي قد أدخل جمال القافلة المنهكة في .. ساحة البيت من الباب الخلفي الواسع وترك الباب مفتوحا فدخلت .. تسللت بين الجمال الواقفة فلم أره، فعلمت أنه اكتشف غياب الجمل الأصفر فدخل يسأل عنه قبل أن ينيخها، لا أعرف كيف ساقت امي الخبر إليه، لم أسمع صوتها ولا صوتك ولا صوت واحدة من أخواتك البنات ولكن كان في الجو هناك رعشة وجود كوجود عجوز مقبل على الموت أو وجود جنين سيولد، صعدت السلم ذا الدرجتين ودخلت من الباب الصغير، وفوجئت بضغط وجود أبيك وأمك وأنت وأخواتك رغم نور الصالة المطفأ.

تعال يا خليفة، تعال.

ناداني أبوك ثم سألني: أين الجمل الأصفر؟

مات يا أبا خليفة.

قالت أمك فصرخ فيها:

- لم أسألك أنت، أسأله هو، الرجل الذي تركته خلفي وأوصيته.. يا خليفة؟ لم أرد، أين دفنته؟ من أخرجه معك؟ مات بعد كم يوم؟ هل جاء البيطري؟؟؟

ولم أشعر إلا بصوتي وهو يقول في حزن:

- ذبحناه يا أبي، الرجال ذبحوه، كان يموت وذبحوه.

- خليفة.. صرخت أمي تحذرني فصرخ أبي فيها:

- اخرسي، ذبحتموه، ذبحتموني، أكلتموني يا خليفة، بعت لحمي للناس، بعت لحمي يا نجس، قتلته لأنه كان من يرى نجاستك.

وكان أبي يقترب مني، يرتعش كل جسده، يصرخ بكلمات لم أعد أفهمها كأنما تلبسه جن، أو كأنه رأى جنا، هربت البنات، وقفت أمي بينه وبيني، ولكني دفعتها ليراني أبي وصرخت فيه:

- أنا لست نجسا، ولكنك تصدق الجمل ولا تصدقني، إيمانك بالجمل الأصفر جعلك كافرا بكل ما عداه يا أبي، كافر.

- أنت لا تفهم، لا تفهم يا خليفة.

وكانت لفظة خليفة من فم أبيك يا مؤمن في قمة غضبه وأسفه أكثر عذوبة مما سمعتها منه في حياتي كلها، كأنه لأول مرة يبصرني، يبصر كيف يمكنني أن أغير مصيره للأبد رغم إهماله المتعمد لي، وبدلا من أن يحادث ابنا يعترف به صار يحادث عدوا يحترمه، ولكنه رفع يده

. . .ي وتهيأت أنا للضربة، انحنيت وأغمضت عيني وأحنيت رأسي
. . .تيني وانتظرت، انتظرت، وأخذ جسدي يرتعش بالبكاء دون دموع،
..ل ويصنع في أذنيّ صليلًا كصليل ألف جرس في مدينة تهتز من
..ال قوي، وانتظار الضربة اسوأ وأشد ألما من الضربة ذاتها، انتظرت
. ..ل لم يحدث شيء، توقفت عن النشيج فتوقف الصليل وتفكك
. ..ي فانحططت على الأرض جالسا ونظرت، أمي جالسة ترضعك
..الدموع في عينيها ومن خلف باب غرفة أبي المغلقة سمعت أبشع بكاء
.. يسمعه انسان في حياته، وكأن ما مات ليس جملا واحدا بل أحياء له
..د خلايا جسد أبيك ...

....

لم تنته الحكاية بموت الجمل الأصفر بل بدأت، اعتكف أبوك
في غرفته لا يجرؤ احد على الدخول إليه عدا اختك الكبيرة تضع له
الطعام وتنصرف، ثم تعود وترفعه كما هو لم يُمس، أما أمك فوضعت
ال حزنها في علف الجمال وكأنها تعتذر إليهم عما حدث لأخيهم
، فاندهم، الجمال نفسها بدت وكأنها جالسة في مأتم طويل لن ينفض
إلا بمجيء صاحبه، لا تنفك ترغو من حين لآخر وهي تحول أعناقها إلى
نبش النافذة المغلقة والتي اعتادت ان يطل أبوك منها عليهم ليطمئن إلى
وجودهم، في هذه الأيام انقطع اللبن من ثدي أمك عن مصدق وكأنه
سبب الحزن، لم تفلح كل وصفات العجائز في أن تعيد اللبن ليدر، ثم
عاد اللبن أصفر اللون وكأن الحزن عكره، ولم يكن أمام أمك إلا أن ترضع

منه مصدق حتى أصابه مرض شديد كاد أن يموت منه، إحدى الجا...
قالت لها إنه محسود، ثم نصحتها أن تأخذ مصدق في حضنها وتطو...
فرش السوق بعد أن تكشف وجهه وتطلب من النساء أن يدعين له ما...
تصادف المرأة التي حسدته أو يصل الخبر إليها، فعلت أمك ذلك ...
انتبهت لها امرأة عجوز فصرخت فيها بغضب وهي تدفعها: امشي من ...
ابحثي عمن حسد ولدك، مرارة الإهانة ضببت عيني أمك بالدموع لدر...
جعلت تلك العجوز تشفق عليها، فأخذتها في بئر سلم مظلم، وطا...
منها أن تكشف صدرها، ثم ضغطت على حلمة الثدي وتشممت نقط...
اللبن التي انفرطت على أصابعها، ثم سألتها: هل مات أحد من أقاربك...
هل فزعت فزعا شديدا؟.. فقالت أمك: لا، فنصحتها العجوز: الحمد لله...
أن رضيعك عاش حتى الآن، لا ترضعيه من هذا اللبن بعد ذلك.

فُطم مصدق مبكرا بسبب حزن أمي، وعوضه الله بأنه كان الطارق
الوحيد الذي طرق باب قلب أبيك ففتحه، كره أبوك كل شيء قبل موت
الجمل الأصفر حتى أنت، وأحب كل مولود أو ميت بعد الجمل، عشق
إشارات مصدق ولغته الخرساء وكأنها إشارات من الجمل الأصفر إليه
تأتيه من عالم الموتى..

سأل مؤمن خليفة:

- وما قيمة هذا الجمل، ما أهميته؟

- هذا ما حاولت أن أعرفه طيلة حياتي ولم أفلح، لم يستعمل أبوك الجمال
في قيادة الجمال إلا بعد موت الجمل الأصفر يا مؤمن، لم يخش من

مر ولم يستشر الموت في الجمال إلا بعد ذبحه، ولم تكن الجمال
..ت من مرض، كانت تموت بإيقاع بطيء ولكنه ثابت، كل سنة تقريبا
. ت جمل او اثنان وكأنهم اتفقوا فيما بينهم على اللحاق بزعيمهم،
، ال جمل يموت كان أبوك يدفنه بتلك الطريقة الغريبة وكأن جُن..

..اد صمت عميق إلا من كركرة ماء في زجاجة نارجيلة وخبط أحجار
د في لعبة دومينو وشفطة عالية من زبون متعجل يحسو مشروبه
احن، قال خليفة وهو ينظر إلى ساعة يده:

الوقت تأخر، تعال.

دفع حساب المشاريب، خرجا إلى الشارع، أوقف تاكسيا وأملاه
، مهنه ثم التفت إلى مؤمن وقال له:

أنت الآن مخير في المجيء معي.

أردف عبارته تلك بأن أخرج آخر ما معه من مال بعد أن استبقى لنفسه
بضعة جنيهات ومد يده لمؤمن برزمة المال كلها قائلا:

خذ، اشتر ما تشاء وعد إلى أبيك وأمك، لا تقلق عليَّ، عد، خذ.

ولكن مؤمن لم يمد يده ليأخذ ما تبقى من مال خليفة، قائلا له:

سآتي معك.

- لن يعجبك الأمر.

- أريد أن أعرف أين ستذهب.

- المكان الذي سأذهب إليه لا يذهب إليه أحد ليتفرج، ستأتي معي وستجد نفسك مضطرا إلى أن تفعل كما سأفعل، وافق مؤمن قائلا

- اتفقنا، لا تقلق.

ركبا التاكسي وشقا طريقهما من شارع إلى آخر، في بداية شارع ضيق ترجلا، شم مؤمن رائحة توابل وعطور، محلات ضيقة على الجانبين وكأنها تبرعت من جغرافيتها لمسجد شاسع يقع بينها، خلعا حذاءيهما فتلقاهما من أيديهما رجل بشوش أعطاهما مفتاحا عليه ورقة من الكرتون المقوى مكتوب عليها رقم بلونٍ أخضر، توضأ وحشرا نفسيهما في زحام الناس بصعوبة، يخاخ له يد مكبسة رش عليهما رجل آخر في مدخل باب المسجد من الداخل معطرا ومن زجاجة صغيرة في يد شخص تال فرك في راحة أيديهما مسكا أحمر اللون ثم دفعهما تدافع الزحام من رحم الميضأة إلى دنيا المسجد، شهق مؤمن منبهرا باتساع المسجد وعلو السقف والنجفة الرئيسية المعلقة في قبته من الداخل والزجاج الفسيفسائي الملون بعشرات الدرجات من الألوان، انبهر بامتلائه بكل درجات الناس وانشغال كل واحد منهم بحالٍ مختلفة، من يصلي ومن هو نائم ومن متأمل للسقف ومن منكفيء على نفسه ويهتز مع أوراد يتلوها ومن منهمك في الحديث مع جاره ومن منشغل بتأمل وجوه وأحوال الناس كمؤمن، جلسا حيث تيسر لهما الجلوس، جاء جلوسهما إلى جوار حلقة لها طنين كطنين النحل، لم يتوقف خليفة عن الكلام منذ

ا، وعى مؤمن من كلامه ما وعى والباقي ضاع مع ما ضاع من طنين مؤمن وحركته التي لفتت انتباهه بشدة، كان شابا أسمر يدس ذراعيه إبطيه وهو يهمس محركا شفتيه بسرعة هائلة لا تكاد تمكنه أن يبتلع حتى، ثم يغمض عينيه من وقت لآخر في خشوع متشيا، عرف مؤمن حديث خليفة أن الاحتفال الذي هما فيه الآن اسمه حضرة وأن الشيخ في أول المسجد (لم يره مؤمن ولكن خليفة بدا واثقا وهو يشير) شيخ الطريقة، له كرامات مشهورة، وأن هذا الذي يقف إلى جواره خليفته في طنطا وأن كل محافظة لها خليفة ينظم أمور الأتباع الذين ينقسمون بين محب ومريد، المُحب أقل في الطبقة من المريد، يمكنك أن تكون مريدا باجتهادك في الأوراد والأذكار والعبادة، ثم قال بثقة من ينطق مأثورا:

ليس المريد من سبق ولكن من صدق.

قاطع مؤمن خليفة:

هل جئت إلى هنا من قبل يا خليفة؟

طبعا، كثيــــــر جدا، ذقت كما يقولون، ذقت وأريد الآن أن أُطعم، وصافحت الخليفة أكثر من مرة، لو رأيت وجهه وسماحته، ولكنهم يقولون إن شيخ الطريقة...

قاطعه مؤمن في حدة:

هؤلاء صوفية!!، جئت بنا كل هذه المسافة يا خليفة لنصبح دراويش نطوف حول القبور ونتمسح بها ونكلم الأموات ونستنجد بهم؟

- لا تتسرع في الحكم عليهم، المتصوفة الحقيقيون لا يفعلون ما تقوله عنه، هؤلاء العوام الجهلاء، ما رأيك في الشيخ، ألا ترى وجهه وسماحته؟

- وجهه السمح لنفسه، ثم ما علاقة هذا بما حكيته لي مع أبيك ؟

- علاقة وثيقة، أوثق مما يمكنك تخيله، أنا الابن الأكبر يا مؤمن، الابن الأكبر، ألا تعلم معنى ذلك في الصوفية، الابن الأكبر هو الذي يرث الطريقة، ولابد أن يكون مهيأ لذلك.

- ما هذه التخاريف؟ وهل أبوك شيخ طريقة؟، أبوك يصلي بالعافية يا ابني.

ضحك خليفة في ثقة:

- تقول هذا لأنك لا تعلم عن أبيك شيئا.

- حتى لو كان أبوك شيخ طريقة، الطرق الصوفية دين والدين ليس عقارا أو مالا يورث.

- ألم أقل لك؟ لو علمت قيمة ما يعرفه أبوك من أسرار ما تفوهت بهذا الكلام أبدا.

فتح مؤمن فمه ليسأله ولكنه عاد فأغلقه، رأى في خليفة ما لم يره من قبل، خليفة الذي بلغ من السن نيفا وأربعين ولم يتزوج حتى الآن، خليفة الذي جُن برفض أبيه له، قرر اخيرا أن يستجيب لحركة العالم وألا يقاومه.

ثم صاح صائح: الله الله الله، وأخذ يكررها مثل دقات طبل تحفيزية، قام كل الرجال الجالسين واصطفوا، وجذب أحد الرجال خليفة، ... خليفة مؤمن فصارا في صف مثلهم، قال خليفة وهو يشرح لمؤمن هامسا:

هذه يسمونها طبقة الاصطفاف.

ثم صاح نفس الصائح مرة أخرى فجلست الصفوف، وساد بينها هدوء عميق طويل، وفجأة صاح نفس الرجل (لا إله إلا الله)، فوقف جميع المتواجدين بالمسجد آخذين بتكرارها معه، منغمة مع تصفيق خفيف من الشخص الذي يصيح لضبط إيقاع الأنفاس الخارجة في نطق الحروف، قالها مرة بعد مرة حتى تاه مؤمن في عدد المرات واندمج في الصيحة الأخيرة مع خروج آخر حرف وتمايل خفيفا للأمام، ثم تغيّر لفظ الصيحة مع نفس الاهتزاز والتصفيق.

حي، حي.

مائة مرة على الأقل، لم يحصها مؤمن.

قال مؤمن واصفا لي المشهد:

الكلمة ذاتها مع الوقت والتكرار الجماعي كانت تُدغِم حروفها ويصبح من العسير تميزها، تتحول إلى شيء مثل التنهد أو التأوه، درجات سلم طيني هرسته الأقدام صعودا وهبوطا حتى استحال إلى منزلق أو منحدر، كان عند خالك في بيته القديم هذا السلم، هل تذكره،

لم يكن أحد منا يستطيع الصعود عليه، نحن الغرباء، أما أولاد خالي
فكانوا يصعدون، كثيرا ما راقبتهم وهم يصعدون لأعرف السر، كان
هذا السلم بالنسبة لي في طفولتي مثل سلم إلى السماء، إلى مخزن
لا ينتهي من المتع، لاحظت أن صعوده يحتاج إلى ثقة وإلى تماه، لو
حاولت أن تعثر على مكان الدرجات القديمة فستسقط، أما لو صعدت
بحدسك ولو مغمضا فستصعد، كأن هذه الطبقات من الذكر المكرر
مصدق تشبه البحث عن أشياء قديمة بداخلك، بدائية ولكنها نقية...

عندما كان مؤمن يفتح عينيه ليرى الوجوه المكتسية بالعرق رغم برودة الجو يعود فيغلق عينيه محاولا أن يندمج مثلهم لئلا يسقط من فوق سلم بيت خالي القديم... ثم انفجرت صيحة جديدة بروح جديدة.

- قيوم.

ولم يعد يشعر بالوقت، وفي أحايين كثيرة يغيب عنه المكان، يده ممسكة بيد من بجواره ويد من بجواره ممسكة به بإحكام حتى لو تراخت قبضته هو، وكأن الكلمات مثل نبض كهربائي يسري من خلالهم فيضيئهم ويطفئهم، كم اشتاق مؤمن أن يُسرعوا من إيقاع الحركة والكلمة، ليصبح التيار مستمرا كاملا.

- هو.

فجأة وجد مؤمن نفسه فوق سطح بيت خالي الذي لم يره من قبل، تباب من قش الأرز الأصفر الذهبي وكان هو واقفًا على أعلى تبة منها،

، ..اء في أول شروق الشمس، أو غروبها، مادا ذراعيه على امتداد التلقي . , الخائف من أي شيء، تنفلت يداه من أصابع شريكيه على اليمين ، ..مال وكأنه سيطفو، ولكنه فتح عينيه قبل أن يطفو، كانت الحضرة قد ، ..ب وقد تملكت مؤمن رعدة غريبة من الداخل والخارج..

نظر لخليفة بعينين يملؤهما الخجل، هل يشعر خليفة بما يشعر به الآن، هل هذا معنى أن يذوق فيتشوق إلى أن يُطعم، مستجيبا ليد خليفة . هي تسوقه خلال الزحام مثل طفل صغير في أول خطوات له بعد الحبو، ..شره في طابور طويل، وقبل أن يدس نفسه بالطابور هو الآخر في الزاحم كان قد صار بينه وبين خليفة أكثر من عشرة رجال، عندما اقترب . أى من في الطابور يأخذون يد رجل عجوز وينحنون عليها ويقبلونها، قال مؤمن في نفسه سأصافحه ولن أقبل يده حتى لو من باب أنه رجل كبير في السن، لا كرامات ولا يحزنون، عندما بلغ مؤمن المصافحة صافح.

قلت عندئذ سائلا مؤمن في فضول شديد:

صفه لي يا مؤمن.

- كنت أعرف أنك ستسأل هذا السؤال لذا تمعنت فيه جيدا.

ابتسمت فخورا بذكاء أخي وهو يقول:

- كان شيخا عجوزا جدا، حاجباه كثيفا الشعر، مظلتان فوق جبهة مشرقة، تظللان عينيه الوادعتين اللتين تبدوان رغم تشابههما مختلفتين، كأنهما توأم ولدا من بطن واحدة وعاشا حياة مختلفة، كل عين لها شخصية

مستقلة، ولكنهما متشابهتان، جالستان هناك تستظلان من إشر ا
جبهته تمارسان رياضة ذهنية ما، تأمل وجوه الناس، كل شعره أبيض
مائل إلى اصفرار كاصفرار قش الأرز، شعر لحيته وشعر رأسه، الر ،
كله يشبه حقل أرز مشمسا وقت الحصاد.

طال تأمل مؤمن لوجه الشيخ دون أن ينحني ليقبل يده، وأخذ الواقف
خلفه بدفعه برفق ويهمس بإلحاح شديد:

- مُر، مُر.

هنا وجد مؤمن نفسه ينحني ليقبل يد الشيخ الذي جذب يده بسرعة
وضمها إلى صدره وهمس بكلمتين لم يتبينهما فتحير وظن أن يده متسخة
فأدارها ونظر فيها، دفعه الرجال.

- تقدم تقدم، مُر مُر... وصِل وردك ثم عُد.

لم يفهم مؤمن معنى الكلمات ولكنه مر، ثم نظر إلى خليفة بعده،
أكثر من عشرة أشخاص كلهم صافحهم الشيخ وتركهم ينحنون على يده
يقبلونها حتى أتى خليفة ففعل معه الشيخ مثل ما فعل مع مؤمن، ولكن
خليفة لم يتلكأ وكأنه توقع الأمر..

قال شخص إلى جوار مؤمن:

- أنت جديد هنا؟ هز مؤمن رأسه أن نعم فقال: ألم تسمع ما قاله الشيخ؟

- لا.

- قال لك: تعرف على خليفتك.

..اله مؤمن في حيرة: أي خليفة؟

،طر له الرجل في استغراب وكأنه لا يفهمه ثم أتى خليفة ودفعه في ... لبير.

،عال، قاده إلى ميضأة المسجد، مد كفيه تحت الماء المنهمر ليتوضأ، ، ال مؤمن: أنا توضأت، قال خليفة بإصرار: توضأ، ثم لم يتمالك نفسه إلا أن صاح: هل رأيت ما رأيت، لقد عرفنا من بين مئات بل آلاف من ،. يديه، توضأ مؤمن صامتا والأسئلة تعج في صدره.

لماذا رفض أن أقبل يده؟

لأنك لست من أبنائه، لو كان الخليفة لرفض مصافحتك من الأساس.

وهل يوجد مسلم يرفض مصافحة مسلم.

- عندما يختلف معنى المصافحة من التحية إلى المبايعة، حتى بعد أن تبايع لو نقضت البيعة لرفض الخليفة مصافحتك.

- البيعة على أي شيء؟

- علي طاعة الله ورسوله.

- اسمع يا خليفة، أنا لا أحتاج إلى واسطة إلى الله ولا إلى....

- اسمع أنت، اسمع وانظر ثم احكم بتأن.

وعـادا حيـث كان المسـجد قد عـاد إلى اصطفافـه مرة أخـرى، لا
النـاس قد انشـقوا إلـى ناحيتين وبينهما ممـر إلى الباب الكبير للمسـ
في الناحية الأخرى، سـار الشـيخ بـبطء بينهما في ضـلعيـن متوازيـن م
الرجـال الصـارمين مُحمَّري الوجوه من ملاحاة الناس حتى خرج الشـ
من المسجد....

....

عـاد مؤمـن وتركه هناك، عاد ولـم يعد خليفة، وجـد خليفة دواءه في
الزحـام، مكـث هنـاك أكثر من شـهرين متالـين لا يقطعهمـا، تليفونه غير
متـاح دائما، وعندما عاد بـدا أكثر هدوءا ونحافة وصمتا، لا يُخفي نظراته
إلـى أبي، ليسـت نظرات غضـب ولا رضـا، وإنما هي نظـرات أقرب إلى
المراقبة والترقـب...

بعـد عودة خليفـة لم يتجدد الحديث في موضـوع زواجه، رافضا كل
ترشـيحات أمي له رغم ضغطها وإلحاحها عليه، تزوج مؤمن أولا وأخذ
الـدور العلوي كشـقة زوجيـة، كدر خفيف عـلا وجه أمي بعـد أن تزوج
مؤمـن، وصـار اهتمامهـا بخليفة مبالغا فيه، ثم اكتملـت دائرة الكدر على
وجههـا بعـد أن أصبح زواجـي وشـيكا، فوجئت بهـا ذات صباح تطلب
مني أن اسـتأذن من خليفة في موضوع زواجي وأحاول إرضـاءه وتطيـب
خاطـره، ثم أبلغتني في ضيق شـديد أنها طلبت من مؤمـن أن يفعل ذلك
قبل زواجه ولكنه لم يفعل.

. . ذ تزوج مؤمن صارت إقامة خليفة المؤقتة في خلفية الدار في
. . مبن اللتين بناهما أبي مكان مَبارك الجمال إقامة دائمة، يسميها
. ام . . إلى هناك ذهبت مع قدوم المساء وطرقت الباب ففتح لي، فوجئت
. . ندي ملابس الخروج كاملة فسألته هل هو ذاهب إلى مكان ما، فهز
ا . ه أن لا وأدخلني.

مندهشا أخذت أتفحص صور مشايخ الطريقة المعلقة على جدار
الصالة في إضاءة خافتة، فوق كل صورة إضاءة خاصة على حدة، نظر
إلى خليفة باسما وقال:

حطوة عزيزة، منذ كثير لم تأت إلى هنا.

تكفيك زيارات مؤمن.

مؤمن!. منذ علقت تلك الصور توقف عن زيارتي، يقول إنها تمنع
الملائكة من الدخول.

الملائكة.

تصور.

وإلى أين وصلت مناقشتكما معا قبل أن تنقطع.

وصلت إلى أنني مشرك وإن كنت لا أعلم، وأن هذه الصور أوثان.

ثم استدرك في ضيق شديد:

- وحتى لو كان كلامه عن الصور صحيحا، ليست هذه الصور.

بدا خليفة عازفا عن الحوار والمناقشة بعد هذه الجملة، وا لارتدائه ملابس الخروج علاقة بذلك فآثرت الدخول في الموضو مباشرة، حكيت له عن اقتراب حفل زواجي فهنَّأني.

- مبارك، متى الأمر؟

- اسمع يا خليفة، أنا أخوك الأصغر، لا يصح أن أبدأك بالكلام في هذا الموضوع ولكن..

بابتسامة تنافس ابتسامة الأشخاص المؤطرين في الصور خلفه استمع خليفة إلى حديثي كاملا حتى أنهيته ثم ساد صمت طويل بيننا.

- ولكنك فاجأتني يا مصدق، منذ متى تريد الزواج؟

كأن عبارته بمثابة رفض لاستمرار النقاش حول الموضوع الذي طرحته، ولكني كنت مصرا.

- خليفة، ماذا تنتظر؟ أن يقول الناس عنك إن أخويك الأصغر منك تزوجا وأنه ليس لك غرض في النساء لعيب فيك.

- قالوا عن موسى أكثر من ذلك فصبر..

- ولكن الله برأه، فمن يبرِّئك؟

- أبي، أبوك الذي سيبرئني، إما أن يبرئني أو يذهب إلى الآخرة بدليل براءتي إلى الله.

- ماذا تريد من أبيك أن يفعل؟

•، يعرف، لا أسألها منه فأفقد كل هذه السنوات من الصبر.

امت في عنف:

إن سأطلبها أنا منه.

ملس يا مصدق، أريد أن أحدثك.

عادت فجلست، انزلق خليفة من فوق كرسيه إلى الأرض في خفوت ، م م ساقيه أسفل منه، ألصق يديه بالأرض وتحدث، قال لي إن شيخ الطريقة مات منذ ثلاث سنوات وأنه منذ ذلك الحين متحير في أمره، ترك الشيخ ابنا عاصيًا وحفيدين، تعارك خليفة الخلفاء مع هذا الابن العاصي على وراثة الطريقة وتشاكيا عند المجلس الصوفي الأعلى فأقر المجلس الصوفي نقل أوراق الطريقة وأختامها من خليفة الخلفاء إلى هذا الابن العاصي، بمجرد أن استلم الابن الطريقة نقض خليفة الخلفاء العهد معه واستقل بعدد كبير من الأتباع المخلصين، ولكن ظل في الطريقة القديمة عدد أكبر واستأثر بالابن الفاسدون منهم وأصحاب المصالح، وبناء على نصائحهم غير الابن أوراد الطريقة وجعل الوصول لدرجة المريد بالسبق، كل وارد متم جديد على الطريقة يصير محبا طيلة حياته ولو بلغ صدقه عنان السماء، وكل وارث للطريقة من أبيه يصبح مريدا ولو كان فاسقا، ثم جعل ورد الترضية على الصحابة والتابعين والمشايخ وردا لطلب المدد منهم، وضم اسمه هو إلى ورد المدد رغم أن هذا لم يحدث من قبل، لا ترضية على الأحياء فما بالك بطلب المدد، ثم جعل المدد عكسيا أي يطلب المريدون المدد من شيخ الطريقة الحالي ابتداءً ونهاية

بسلسلة طويلة من الأسماء إلى النبي، ثم يطلبونه من النبي مرة أخرى صعودا إلى الشيخ الحالي...

- وهذا لا يرضي الله ولا رسوله، خصوصا وقد أخذ الشيخ الأكبر علينا العهد على طاعته ما دام يطيعهما هو..

- ولماذا لا تترك الطريقة طالما أنك تجد فيها ما لا يرضيك.

- البلد الخبيثة لا تُترك طالما بقي فيها الأنقياء.

قال ذلك واختلس النظر إلى صورة شيخ الطريقة المعلقة في الصدارة وكأنه يعتذر إليها، تذكرت كلمات لمؤمن تشبه كلماته.

- ولكنني لم أعد مواظبا على حضور الحضرات، تصور، جزء كبير من المريدين بدأ يدخن السجائر رغم حرمتها في طريقتنا لمجرد أن هذا الابن يدخن ويخشون أن يأتيهم الشيطان فيوسوس لهم أنهم أفضل من الشيخ لأنهم لا يدخنون!!

اتسعت عيناي من الدهشة وقلت لخليفة: لهذه الدرجة، فرد بأسى: وأكثر.

لسبب ما شعرت براحة شديدة في الجلوس مع خليفة في هذه الليلة، بدا لي صافيا هزيلا ومألوفا مثل نقش في قبلة مسجد من طفولتي، كنت مستعدا لأن أسمعه حتى لو تحدث طيلة الليل، ولم يخيب خليفة ظني، ابتسم أكثر ابتسامة مشرقة رأيتها في حياتي وقال:

- اسمك جميل يا مصدق، لأول مرة أنتبه إلى ذلك.

ا.ـباء كثيرة لا ننتبه إليها من طول المعايشة.

صـح جـدا، أول مـرة أنتبه إلى أنه اسـم مميـز، كثير من الناس اسـمهم مليفـة أو مؤمـن لكن مصـدق، لا أعتقد أنـه هناك واحد مـن كل ألف يحمل اسمك هذا.

الأسـماء رزق.

طبعا، طبعا، ولكنها أيضا من حب الأبوين لأبنائهما..

ابـوك يحبـك أنت أيضا يا خليفـة، لا أوافقك إطلاقا على اعتقادك في أبيك.

لـن أناقشـك فـي ذلـك، ولكن قـل لي: هـل جربت النسـيان مـن قبل يا مصـدق؟

ضرب هذا السؤال في منطقة وجع عندي، نظرت إلى خليفة فوجدت من براءة عينيه ما جعلني أقرر أن أبثه بعضا منه، قلت:

- أنسـى كثيرا، يقولون إن النسـيان نعمة، ولكن عندي أنا لعنة كبيرة، في أوقات كثيرة بعد أن استيقظ من النوم أظل غير قادر على استيعاب أمور تلقائيـة وبسـيطة في العالـم، لماذا الطائر يطير، لماذا يزحـف الثعبان، لماذا تحمـل النملة أثقل من وزنها، لماذا يخـاف الأطفال من الظلام، هناك وطن لا يعيش فيه أصحابه، هناك شخص يطير في السـماء ويلقي قنبلة على البيوت لأن من يسـكنونها يفكرون بطريقة مختلفة عنه، هناك رجل يذبح آخر وكلاهما متيقن أنه سيدخل الجنة، لو وجدت الإجابة

على هذه الأسئلة سأرتاح كثيرا، النسيان أول الشيخوخة كما يقول
ولكن التذكر بعده أول عتبة من عتبات الموت، أنا أموت بهذا النسيان
والتذكر كل يوم مرة.

نظر لي خليفة وكأنه لا يصدقني، تململ وسعل، تدريجيا غشي
عينيه طبقة رقيقة من الدموع:

- هذه أسئلة كبيرة يا مصدق، أكبر منك ومني، عجيب أنك تفكر فيها
وفي نفس الوقت تريد أن تتزوج وتنجب وتحيا..

ابتسمت وقلت على الفور:

- لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها.

- صدقت، صدق النور صلى الله عليه وسلم.

- عليه الصلاة والسلام.

ثم تنهد خليفة ولبث قليلا يفكر ثم استأنف حديثه:

- ولكني لم أكن أسألك عن هذا النسيان، ولكن عن النسيان الحقيقي
الذي لا يُفسر، نسيان الأسماء والأماكن والتواريخ، آخر مرة أكلت
فيها وماذا أكلت، عندما يسألك أحد عن طريق سلكته مئات المرات
من قبل فتتعثر في وصفه، أو يُحكى أمامك حدث ما عرفته من قبل
فتندهش وكأنك تسمع عنه لأول مرة.

- جميل هذا النسيان، وكأنك تولد طفلا من جديد.

الصوفية هي طفولة العالم يا مصدق، ليتنا نستطيع الحفاظ على طفولتنا إلى الأبد، عندما تسلك طريقا إلى هدف ما في حياتك ثم من طول الطريق ومشقته تأنس بمعالمه، وأول النسيان أنس يا مصدق، وما أشد غربتك إذا كنت تأنس بما لا يأنس به الناس عادة... ستمل يوما ما من السير في هذا الطريق الذي يجعلك مختلفا عن الآخرين فتبحث فيه عن ما يدهشهم لتخرج من غربتك.

أفهمك يا خليفة، علماء الكيمياء في القرون القديمة بحثوا عن طرق لتحويل النحاس إلى ذهب ليقتنع العوام بعلمهم، ولكنهم في النهاية اتهموهم بممارسة السحر.

أنت ذكي، ولكن لنعد إلى موضوعنا الهام الذي أتى بك إليّ الليلة.

قلت مصححًا له:

- جئت إليك لأن أمنا أرسلتني.

- وأنا كنت أنتظر ضيفا هاما، كنت أقرأ الصمدية، قرأتها ألفا ونصف مرة تقريبا، ما تجاوزت هذا العدد أبدا إلا وجاءني ضيف هام، عرفت أن ضيفا هاما سيأتيني فتهيأت له وكنت أنت الذي جئت..

- وأنا أصدقك رغم أن كلامك مبالغ فيه بعض الشيء.

- ربنا جعل لك من اسمك نصيبا، نحن لا نأتي إلى هذا العالم لنأكل ونشرب ونتزوج يا مصدق، نحن خلفاء الله في الأرض، وكل من لا يعمل لإثبات ذلك يجحد نعمة الله عليه ويعيش كالبهائم أو أقل.

- وكيف نفعل ذلك؟

- أبوك يحبك يا مصدق، يحبك أكثر من مؤمن ومني طبعا...

- لا أفهمك يا خليفة، لكني أشعر أنه يجب أن أفهمك، ما علاقة أبي وحبه لي بخلافة الإنسان لله في الأرض.

- اسمع مني ولا تناقش، منذ قليل عندما تكلمت عن النسيان جعلتني أقرر شيئا، أنت طيب ونقي وتصلح..

- أصلح لماذا؟

- تصلح لخلافة أبيك يا مصدق.

- خلافته!

- هل تعرف؟ أحيانا يسعى أحدهم خلف شيء طيلة حياته فلا يدركه، ونفس الشيء يُلقى أمام غيره فلا يفهمه، وكلا الحالتين لعنة وخزي، ولكن الخزي الأول أشد، رغم أن الخسارة الثانية أكبر، أبوك لم يكن يسافر في الصحراء لشراء الجمال، بل ظل يسعى خلف هدف وحصل عليه، ربما حكى لك أو سيحكي لك ذات يوم ولكني سأخبرك بما أعلم، يوجد رجل كان يعيش في الصحراء بين مصر والسودان، درويش له طريقة لم يُعلِّمها لأحد، هذه الطريقة تحوي أورادا وأذكارا وكلمات لتسخير الحيوانات الضارية وغير الضارية منها، لقد رأيت هذا وأنا صغير، يوم أن طاردني الجمل الأصفر الذي رأيت في عينه الموت وأنا في ماء الترعة، لم يهدأ الجمل إلا بعد أن همس أبوك في

امه بكلمات فخرجت وكأنه صار لا يراني، بقي هذا الحادث بلا تفسير
حتى كبرت وفهمت.

اعذرني لما سأقوله ولكنه كلام فارغ يا خليفة، أبوك يحب الجمال وهي كانت تحبه لأنه يرعاها، الجمل لم يبرك بعد أن اغتسلت لأنه يتضايق من الجُنب فقط.

تجاهل تفسيراتي وقال:

اسأل الشيخ خليفة، الدرويش أبو القمصان، هو يعلم من أسرار أبيك ما لا نعلمه، إنه يحبك ويحب رفقتك، وشخص مثله لا يحب رفقة أحد عبثًا، لا تضيع الفرصة من يدك كما فعلت أنا ومؤمن، مؤمن شذ ولم يعد يصلح، وأبوك غاضب منه، أما أنا فحاولت كثيرا ولا أزال أحاول ولم أفلح، ولن أفلح لأن أباك لن ينسى الدم الذي صبغ يدي ...

أي دم يا خليفة ؟

دم الجمل الأصفر.

الجمل الأصفر كان سيموت لو لم يذبحه الرجال.

ولم يقم الرجال بذبحه من فراغ يا مصدق، أنا من وضعت السم للجمل، أنا من قتلته، وأبوك عرف ذلك ببصيرته.

....

قام أبي بإعطائي الدور الثاني أسفل شقة مؤمن لأتزوج فيه، وكان خليفة آخرنا زواجا، ليس اختيار أبي، لو تُرك الأمر له لما سعى في زواج

خليفـة أبدا، ولكني كلمت أمي في موضــوع زواجه كما اتتويت فأخر.
أبي على لســاني.

ذات مســاء جاء أبي مـن الخارج ونادى على خليفة مـن غرفته، ...
حديث بينهما:

- أنا لم أرفض زواجك من زميلتك تعسفا ولا لأقهرك ولكني أعلم عنه
وعن أبيها ما لا تعلمه.

لم يرد خليفة وإن زينت وجهه ابتسـامة مرتعشـة، أردف أبي:

- مـرت كل هذه السـنوات وأنـا أنتظر أن تأتي لي بزوجـة أخرى ولكنا
(بلطت في الخط) منفقا كل أموالك على جماعتك من الدراويش.

سـارع خليفة مقاطعا ليسـد منافذ نقاش لا يريده:

- لن أخرج من يدك، رشح لي زوجة.

فصـاح أبي:

- يا عالم يا هو، رجل كبير في مثل سـنك ينتظر ترشـيح أبيه ليتزوج، كل
الذين هم في مثل سـنك أذابوا زوجة ودخلوا على الثانية..

فـي اليوم التالي بـدأ أبي في الاقتراح على خليفة في حضـور آذان أمي
المرهفة من المطبخ.

- حظـك بمـب يـا خليفـة، منذ الأمـس وأنا أسـأل وأبحـث، صحيح أن
الأرض البور أغلى من أرض الطرح، عندي لك عروس لامثيل لها في
الأدب، زينـب.

فتح خليفة فمه ليرد ولكن سبقته أمي وردت باستنكار:

- الأمر جاء!!

صرخ أبي فيها:

- هذه عرجة خفيفة يا ولية، لم تولد بها ولكنه خطأ من طبيب حمار وضع الجبيرة على ساقها دون أن يضبط العظام، وعلى كُلٍّ عندك أيضًا بنت الحاج إسماعيل.

صرخت أمي في استنكار:

- عالية.

- هي ولا أحد غيرها، طول وشنة ورنة وعيون خضراء وعود فرنساوي.

- هذه طُلقت من قبل، تزوّج ابنك الأكبر من مطلقة! تجعل أول بخته امرأة لا بنتا.

- إذن لتكن حسناء، المُدرسة، بنت عز، حمراء الوجه كالإنجليز، تفطر لحما وتتغدى لحما.

- عينها تندب فيها رصاصة، لا تخجل، لا تجد إلا كسر البنات تزوجه لابنك.

- ابنك هو المكسور يا نايمة على أذنيك، ابنك بينه وبين معاش الحكومة عشر سنوات.

صحح له خليفة مبتسما:

- 16 سنة.

-16 زفت على دماغك ودماغ أمك، أنا لا دخل لي بهذا الموضوع، تسكت وتسكت وعندما تتكلم تنطق بما يغيظني..

- ومن قال إني ساكت، أنا أدور الموضوع في ذهني، سأتزوج الأولى التي رشحتها يا أبي.

صاح أبي وأمي في وقت واحد:

- زينب!!

تزوج خليفة من زينب مع مقدم الشتاء الذي سبق موت أمي، لقد أعطاه أبي البيت الخلفي فبنى فيه دورين واستقر فيهما، كان خليفة راضيا وسعيدا، زينب كانت إحدى زهور طريقه التي بقي وقتا طويلا يتشممها ويأنس بها فينسى، ينسى حتى موت أمي الذي حدث وأحوال جماعته آخذة في التدهور عن ذي قبل.

....

الفصل السابع

زياد رجل البنك ومعلومات جديدة عن أبي

لم يكن يهاتفني إلا خليفة ليطمئن إلى استمراري في البحث، بمعدل مرتين في اليوم، مرة في الصباح الباكر ومرة في المساء، لماذا لا تهيج أحزان خليفة إلا عند الاستيقاظ أو قبل النوم،مثل آلام الأسنان..

مرة واحدة فقط اتصل بي خليفة وقت الظهيرة، كان يتحدث بلهجة من يجلس بين مجموعة من الناس، يؤكد على أسئلته وردودي عليه مثل تلميذ بليد يحاول أن يفهم، في صمت المكالمة كنت أسمع حول خليفة أصواتا أخرى تهمس له فتأكدت لي شكوكي، إنه يحاول أن يُبلغ رسالة للمحيطين به: هناك من يبحث بالفعل.

بدا لي خليفة كشخص لا يتعلم ولا يريد أن يتعلم، ماذا يريد من ظن الناس فيه إذا كان أبي أقرب الأقربين إليه قد أساء به الظن معظم حياته، هذه المكالمة كانت سببا في إحباطي، عدت إلى غرفتي بالفندق مبكرا فوجدت شخصا يرتدي نظارة شمس حمراء اللون ينتظرني أمام الباب،

قال لي إنه أحد موظفي البنك الذي سألت فيه عن أبي، وأنه كان متغيبا يوم أن ذهبت إلى هناك للسؤال عن أبي ولم يعد إلا الأمس من إجازته، ولكن.. كيف عثر على عنواني؟.

بغض النظر عن استحالة حدوث ذلك في عالمنا إلا من شخص له مصلحة لا أعلمها أو من محب للخير بصورة فائقة، كان من الأفضل لي أن اجاريه وألا أتطرق حتى لمسألة كيفية عثوره على مكاني في هذه المدينة الكبيرة، رجوته أن يتفضل لأريه صورة أبي، دخل، جلس على طرف السرير، متشاغلا بتأمل المكان، لا يزال يرتدي نظارة الشمس، بحثت عن الصورة أسفل الكتب على كرسي المكتبة وناولتها له، أخذ الصورة من يدي، تأملها أكثر مما تأملها الجميع، تأمل في صورة أخي الذي يقف إلى جواره أيضا، سألني عنه فقلت أخي، صمت قليلا ثم هز رأسه بالنفي وأعطاها لي:

- هل قدمت بلاغا عن غيابه إلى الشرطة؟

قلت على الفور:

- أفكر جديا في ذلك، أخي الأكبر فعل ذلك في محافظتنا ولكن هنا لابد من دليل للشرطة على تواجد أبي لأتمكن من تقديم البلاغ.

- لن تجده هنا على أي حال، من أرسلك إلى هنا غشك، أنا لا أنسى الوجوه أبدا، أبوك لم يأت إلى البنك..

تأكد حدسي الآن في هذا الرجل الطارئ، الأمر واضح، لقد جاء المعي بحمولته وينصرف، ما هي الاحتمالات التالية إن نشرت القمح المنزل أسفل تعاملنا الجاف اللبق وسألته كيف عثر على عنواني في هذه المدينة الكبيرة وأنا لم أعطه لمديره في العمل، شك وتهتهة وعرق على الوجه أم عراك في غرفة ضيقة قد ينتهي بمدية تشق بطني أو رصاصة تطلق بشكل عبثي، تأملت ملامحه، أصلع، في منتصف الأربعينات، لا ترهلات على جسده، رجل قبيلة يرتدي الجلباب بعد الظهر ويلعب الخطيب في أفراح العائلة ويجلس في جلسات عرفية أم رجل جريمة عتيد جاء ليخفي أثر جريمة ما، يجب أن أكون حذرا ولكن لا يغني حذر من قدر كما يقولون.

قلت:

أشكرك على النصيحة والاهتمام.

قام واقفا فقمت، صافحني في ود، أحاول أن أحفر ملامحه في ذاكرتي، سأحتاجها.

- لا شكر على واجب، في الحقيقة ورغم أنك قمت بعمل جيد، أعني كل هذه الإعلانات المعلقة على الحوائط وفي الشوارع، لا تعلم مدى الجهد الذي بذلته للوصول إلى مكانك، حاولت أن اتصل بالرقم الأول المكتوب ولكنه كان مشغولا باستمرار، اتصلت بالرقم الثاني فرد عليَّ شخص نائم، قال لي إنه أخوك وأعطى لي العنوان، كان لابد أن أرى الصورة لأني كما أخبرتك لا أنسى الوجوه أبدا، تمنيت أن أساعد...

هذا هو السـر إذن، ارتخت عضلات وجهي المتحفزة، ولكي أعالج شعوري الداخلي بالإحراج صحبته إلى الخارج وأصررت على ضيافته على الغداء، رفض في البداية، وقال لي إنه تأخر، قلت له: لابد، يمكنني أن أتصل بمديرك وأستأذن لك منه، فقال إن كان هذا ضروريا فسيدفع هو لأنني ضيف وهو صاحب البلد، كان يشعر بخجل، خلع نظارة الشمس الحمراء رغم أن الشمس كانت ساطعة، ذهبنا إلى مطعم قريب وطلب هو عددا من شطائر الفول والفلافل فسبقته ودفعت ثمنها، تمشينا حتى الكورنيش ونحن نقضم فيها، سألني: هل ستعود؟ قلت: لا، لن أعود حتى أعثر على طرف خيط، سرنا قليلا بعد ردي هذا ثم توقف فتوقفت بالتبعية، قال:

- لا تغرك البدلة والكرافتة، أنا من عشيرة لا تأكل طعام أحد وتخدعه أبدا (لوح بالشطائر في يده) هذا عيش وملح بيننا الآن، أبوك كان هنا، أبوك كان يبحث عن سلاح، طبنجة، هذا شيء لا يُسأل عنه في المقاهي، لم يسافر كل هذه المسافة ليبحث عن شيء يستطيع أن يشتريه من مكان قريب، أعتقد أنه اشترى واحدة بالعشرة آلاف التي قام بصرفها، فالمال الذي صرفه أبوك في الصباح عاد إلى البنك في اليوم التالي بنفس ربطته، على حساب مرادف لشخص أعرف جيدا أنه تاجر سلاح شهير.

قلت في صدمتي:

- من هو؟؟؟

قال وهو يضحك:

لو أعطيتك اسمه هل ستذهب إليه وتسأله: مرحبا.. من فضلك، أبي اشترى منك قطعة سلاح، أريد من فضلك أن أعرف أين ذهب وماذا ينوي أن يفعل بها؟

قلت محاولا ألا أتضايق:

بدون سخرية، ما الحل إذن؟

اسمع، هات رقم تليفونك، سأتصل بك قبل نهاية يوم غد وأخبرك أين ذهب أبوك، اعلم أن من باع الطبنجة لأبيك حذر إلى أقصى حد، أي قطعة سلاح يشتريها زبون غريب منه تظل مُراقبة حتى تخرج من المحافظة كلها، بعد ذلك ينساها، ولكن لا تقلق، عندي من سيجعله ينطق.

أمليته رقم تليفوني، قال لي: لا تذهب للبنك مرة أخرى ولا تسأل عني.

صافحني، سارع من خطواته وسبقني، ولوح بيده وهو يهم بعبور الطريق للناحية الأخرى.

....

وكأن حمولة كتفي تقاسمتها مع ذلك الغريب الشهم الذي لم أكن أعرف اسمه حتى، ولكن الأسئلة مع ذلك لم تزل تنقر في قلبي فتؤلمه،

لمـاذا يحتاج أبي إلى سـلاح؟، لم يكن أبي يثـق بنا ولكن ليـس لدرجة ا
يسـعى بعد كل هذا العمر خلف شـيء لـم يربّنا لمواجهتـه كما حاول ا
يربينـا لقافلـة جماله، بطريقة لم أكـن أتوقعها اجتاحنـي يقين غريب أنى
سـأصل إلى طـرف خيط عن أبي، ليـس أبي الذي عشـت معـه ولكن أبي
الحقيقي الذي لم أعرفه طيلة كل هذه السـنوات، ليـس لقاءً عارضا مفاجئا
بطريـق الصـدفة يعمل فيه تشـابه الـدم واللحم كمغناطيسـات، ولا بانبا ع
إشـارات غامضـة في رسـالة متروكة لي مع صـاحب الفندق، ولا من خلال
شـخص يتبعني فـي مجاهل المدينة الجنوبيـة المزدحمة في ذلك الوقت
من السـنة، يحتـك كتفه بكتفـي في اصطـدام متعمد فيهمـس لـي بمفتاح
خريطـة الوصـول إلى أبي، إن أبي شـخص لا يمكن العثور عليه بسـهولة
إذا أراد أن يختفي..

دائما كان أبي يعتقد أنه أكثر ذكاء وأكثر خبرة بالحياة منا، لدرجة أنه كان
يبذل مجهودا ليقنعنا بذلك، شـخص مثل هذا في حياتك سيظل محتفظا
بمسـافة ما بينكما يزرع فيها أسراره الصغيرة وإن كانت رقم تليفون، ربما
اشترى التليفون خصيصا لكي لا يعطي رقمه لأحد منا، لم يترك التليفون
عندما غادر البيـت، لماذا لم أفكر في ذلك من قبل، اتصلت بخليفة، سألته
إن كان يعـرف أحـدا ممن يتعامل معهم أبي بالتليفون لنحصـل على الرقم
منه، أخذ يتذكر:

- حموده الحلاق، شعيب مؤذن المسـجد القريب من بيتنا، رمضـان الذي يوزع الخبز على عربته الكارو كل صـباح.

صاح فجأة كأنه تذكر شيئًا: انتظرني قليلا، عندما أصل إلى الرقم أتصل بك، ثم أغلق الخط قبل أن أرد عليه...

بعد تمشية طويلة على النيل عدت إلى غرفتي وبمجرد أن أغلقت الباب خلفي رن جرس التليفون، لم يكن سوى رقم زوجتي، ولكن لم تكن هي التي ردت عليّ عندما فتحت الخط، وإنما ولدنا الصغير المتحدث الرسمي بيننا، وصوت أمه في الخلفية أسمعها تمليه وتوجهه إذا أخطأ أو تلجلج:

متى ستعود يا أبي؟، أمي تقول إنك ذهبت عند التماسيح، أمي لا تريد أن تكلمك يا أبي لأنها مصدعة، تقول خلي بالك من نفسك.

سقط أكثر من نصف المكالمة خارج انتباهي، كان هناك رقم يرن عليّ بإلحاح أثناء المكالمة، أختلس النظر إلى الشاشة أثناء المكالمة، رقم غريب، بمجرد أن أغلقت اتصلت به بلهفة، ربما هو خبر عن أبي من موظف البنك، ولكنه لم يكن سوى خليفة، سألته في خيبة أمل واضحة:

لماذا تتصل بي من رقم غريب؟

- حموده الحلاق لم يكن يرد على رقمي فاشتريت هذا الخط الجديد ليرد عليَّ، لم أعثر على رقم أبيك مع أي ممن اقترحت أسماءهم، كان لدي أمل في حمودة الحلاق ولكنه أخبرني أنه لا يسجل أرقاما.

ثم قال لي باهتمام:

- نسيت أن أخبرك، شخص صعيدي اتصل بي بخصوص الإعلان وسألني عن عنوان إقامتك في أسيوط.

- فعلا، جاء وقابلته، كان معي منذ قليل، رأى صورة أبي وأكد أنه لم يره..

اندهشت لأن خليفة لم يعاتبني أو يلمني على موضوع الإعلان، ولكن صوته بدا حزينا، شبيها بصوته في التليفون يوم أن أبلغته بموت أمي، لماذا نتبادل الدور على منصة الحزن، لماذا لا يوجد في كل مرة إلا واحد فقط ليلملم شظايا الموقف، قال خليفة مترددا:

- الوضع هنا أصبح صعبا للغاية يا مصدق، مستأجرو الأرض، وأزواج البنات يشككون في اختفاء أبيك، أحتاجك إلى جانبي، لو كان يمكنك أن ؟...

ثم ساد صمت مريب..

أبيك، أبينا، أبوه، أبوهم، أدرب لساني خفية في صمت المكالمة، أحاول أن أتخيل أي جملة يمكن أن تجبر خليفة أن يقولها منسوبة إليه: أبي، لو أن خليفة لم يخبرني بحاجته إليّ!!، لو قال أبي، لو قال أزواج أخواتنا، أزواج أخواتي، شيء ما في كيمياء الجُمل التي نتبادلها مرتبط بتكنيك الفرار والمواجهة، كنت مترددا في أن أخبره بأمر السلاح الذي اشتراه أبي، ستكون حجة جيدة لبقائي، ولكني وجدت نفسي أخبره أنني أفكر في السفر إلى أسوان، لو أن أبي (لم أقل أباك أو أبانا) سافر إلى مدينة في صعيد مصر فلن تكون سوى دراو، مدينة الإبل القديمة...

بعد صمت طويل ملتبس قال لي وكأنه غضب أو حزن: بالتوفيق لك، سنبقى على اتصال..

ام يغلق، لم أغلق، سألته: كيف حال مؤمن؟

ام أره منذ يوم اختفاء أبيك.

لا نراه في الشارع أو المسجد؟

لا.

لم يسأل عن تطورات اختفاء أبي؟

لا.. للأسف.

تنهدت، تنهد هو بالإيحاء، قلت:

خير.. خير.

قال لي خليفة قبل أن يقفل الخط:

مصدق، نسيت أن أخبرك، زوجتك عادت إلى الشقة وأخذت الدفاية التي تعمل بالزيت وشنطة مليئة بالملابس.

....

لم يتصل بي موظف البنك ذو نظارات الشمس الحمراء لا في مساء اليوم ولا في صباح اليوم التالي، لا أعرف اسمه ولم أحصل على رقم تليفونه ولم أحبذ فكرة زيارته في مكان عمله كما حذرني، الانتظار في أسيوط بعد ما قلته لخليفة وبعد ما عرفته خيانة، يجب أن أتحرك أو أوهم نفسي على الأقل أنني أتحرك، قلت لنفسي إنه في طريق عودتي من

أسـوان سـأمرّ على زائري الغامض الذي يعمل في البنك، سيكون ز...
الموظفون قد نسوا وجهي ويكون هو قد تمكن من الحصول على أ...
عندما أصبحت في المحطة كان عليّ أن أنتظر اكتمال العدد، شـ...
براحة عميقة لا أدري سببها واستسلمت لخواطري...

إلى أسوان إذن، على أية حال ما الذي جاء بأبي إلى أسيوط؟ ...
يجب أن يذهب إلى أسوان مباشرة، متبعًا خطى رحلته القديمة...
الشواهد تدل على ذلك حتى شرائه المريب لسلاح، ربما يفكر ...
خوض الصحراء للبحث عن الدرويش الغامض ليعتذر له عن ...
الجمل الأصفر ويخاف على نفسه من قطاع الطُرق...

قبل أن يتحرك الميكروباص جاءني هاتفه، لم أميز صوته في البداية،
قال لابد أن تأتي الآن، سألته: من يكلمني ؟، قال: زياد، كررت السؤال
بصيغة أخرى: زياد من؟ قال: رجل البنك الذي زارك في الفندق.

الآن وأنا على وشك أن آخذ طريقي إلى أسوان، ولكن لا وقت لدي
لألومه، قلت:

- انتظرت مكالمتك طيلة يومين ولكنك لم تتصل وأنا الآن في
الميكروباص.

- الميكروباص! هل ستعود إلى بلدك؟

- لا.. أنا ذاهب إلى أسوان.

قال مندهشا: أسوان؟ هل عرفت شيئا جديدا عن أبيك؟

قلت:

لا ولكنه تاريخ قديم له.

قال في حماس بالغ:

أبوك هذا لغز كبير، لابد أن تأتي الآن، هنا رجل عثرت عليه، حديثه عن أبيك مسلٍّ للغاية وشيق، ولا أضمن أنه سيأتي معي مرة أخرى...

الفصل الثامن

ظهور عم يحيى خادم المقام

في غرفة واسعة مؤثثة كغرفة استقبال من الدرجة الأولى استقبلني ، بادٍ مصافحاً إياي بقوة كأني عائد من سفر وقال لي حمداً لله على سلامتك، جلست حيث قادني بنفسه، بعيداً نسبياً عن رجل كبير في السن اخذ برأس عصا خشبية معوجة إلى ما أسفل نتوء ذقنه يتأملني ببصر كليل ، حاجبي عينين كثي الشعر، على رأسه شال أبيض ملفوف لا أعرف كيف يثبت مع كل هذه الإزاحات المتتالية بيده وهو يهرش من آن لآخر، حاولت تخمين عمره، إنه أصغر من أبي، ولكن أبي دائماً ما كان يبدو صغيراً عن سنه يثير دهشة السائلين إذا أخبرهم أنه تجاوز الستين سنة بكثير، هذا الجيل كله يبدو أصغر من سنه، أم أن جيلنا هو الذي يبدو أكبر؟ زيادة على ذلك بعض الناس يبدون كما لو أنهم لن يرقدوا أبداً في انتظار الموت، مثل الأشجار، سيموتون وقوفاً.. أو تأكل الأرضة أسفل عصاهم، أبي كان أحدهم وهذا الرجل.

صفق زياد بيده لينبه زوجته في الداخل ثم قادنا إلى الصالة، الغ
كان مُعدا في أطباقه على منضدة كبيرة..

بعد الغداء غسلنا أيدينا وعدنا لنجد صينية كبيرة مذهبة عليها أك
من عددنا أكواب زجاجية مقلوبة وبراد شاي نحاسي كبير يفوح البخا
من بوزه الطويل، قام زياد على صب الشاي لنا بنفسه، كلما فرغ الكو
وقبل أن يستقر مكانه ينهض بسرعة من جلسته فيملؤه مرة أخرى، التقط
الرجل العجوز كوبه بأصابع لا تتأثر بالحرارة وارتشف الشاي بسرعة
بالغة، ثلاثة أكواب أو أربعة لم أعدها وكأن ما يشربه ماء بارد ثم أدار
الكوب على وجهه في الصينية ففعلت مثله.

إن كان العجوز يفتقر للذوق في ملابسه وطريقته في الأكل فإنه
لا يخلو منه في طقوس تدخينه، أخرج من جيبه الداخلي علبة معدنية
مطظة منقوشة من الخارج لها لون النحاس ودفترا أصفر من دفاتر ورقة
البفرة لا أستطيع أن أتذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيها واحدا مثله،
أخرج من جيب آخر كيسا به عشبة شبيهة بالنعناع، وبدا منشغلا عنا تماما
بينما اختصني زياد بحديثه هامسا لي:

- الموضوع كان متعسرا لأن تاجر السلاح الذي أخبرتك عنه رفض أن
يفصح عن مصدر المال الذي أودعه في البنك إلا بعد أن أحكي له
الحكاية كلها، المهم بعد أن حكيت له مختصر الحكاية وأن الموضوع
إنساني بحت لا علاقة له بالحكومة أخبرني أن من أتى له بهذا المال

م يشتر به سلاحا وإنما دفعه منذ أسبوع ثمنا مقدما لبوتيك الملابس
الذي كان قد عرضه للبيع..

- إن جاء أبي من الشمال إلى الصعيد ليشتري بوتيكات الملابس.

- لا لا، من اشترى البوتيك ليس أباك، بل عم يحيى، رجل عجوز
مر عبدي أبا عن جد، ابن أخيه يعمل في البوتيك بمرتب شهري.

أشار زياد بطرف ذقنه إلى الرجل العجوز فقلت:

- إذن لم يشتر أبي بذلك المبلغ سلاحا منه!

- لا... الحمد لله، تخميني لم يصب الحقيقة، أبوك أعطى هذا المبلغ
لعم يحيى عن طواعية.

- أو كرهًا.

قلت هذا وأنا أبتسم مديرا وجهي ناحية الرجل العجوز الذي خمنت
أنه هو عم يحيى، كان منهمكا في طقوس إعداد سيجارته اللف، سحب
ورقة بفرة وفردها وخلط فوقها العشبة بالتبغ وأخذ يلفها بعناية شديدة
وبكل حواس أصابع يده القابضة على طرفي السيجارة مررها على طرف
لسانه مبللا نهاية الورقة بلعاب فمه ولصقها، ثم بدأ يدخن باستمتاع....

كان زياد يراقبه معي مبتسما في سخرية ومع أول سحابة دخان خرجت
من فمه إلى فضائنا المشترك قدمه لي قائلا بصوت يسمعه كلانا:

- عم يحيى.

فنظر الرجل إلينا وكأنه فوجئ بوجودنا.

- عم يحيى قال لي إنه لن يتكلم عن أبيك إلا في حضورك.

ثم علا صوته درجة أخرى:

- عم يحيى، هذا هو مصدق الذي طلبت رؤيته.

هنا فقط سألني العجوز بلهجة خشنة صعيدية:

- انت ابنه الصغير؟

هززت رأسي أن نعم، طلب مني أن يرى البطاقة الشخصية وصورة لأبي، قمت وناولتهما له، قرب الصورة من عينه كثيرا، ضيق من اتساع عينيه كأنه يعاني من ضعف بصر شديد، ولكني لاحظت ملامحه عندما رأى الصورة، انجذب سطح وجهه بحنين غريب لوجه أبي كما تنجذب فلينة سنارة صيد لسمكة هائلة في العمق.

إذا كانت هناك بصيرة فوق بصري اكتسبتها من طول احتكاكي بالآخرين فهي أنني أستطيع أن أميز نوع الشخص الذي يحادثني، الطريقة التي قضى بها حياته والعمل الذي يتكسب به عيشه، لون أصابعه وهو يصافحني ودرجة خشونتها، التجاعيد حول عينيه وإعتام الضوء في داخلهما، طريقة جلوسه والطريقة التي يُشبك بها أصابع يديه بعضهما ببعض، والمكان الذي يضعهما فيه بعد أن يُشبكهما، على ركبتيه: فوقهما أو بينهما، طريقة كلامه والألفاظ التي يستعملها، الكيفية التي يحرك بها

... ابتسم بالتوازي مع كلماته، من اللحظة الأولى عرفت أن عم يحيى ليس تاجرًا، ولا رجل دين، ليس موظفا وليس رجلا يقوده الآخرون، ... رجل كفاح وعمل، رجل مميز ولكنه شقي رغم ذلك، ندوب الشقاء ... وجهه ولا يراها أحد، حريص هو على ذلك، وكل هذا ينبئني أنه ... يكذب، وإن كان ما حكاه لي عن أبي فوق أن يُعقل..

للحظات بدا على عم يحيى أنه لن يتكلم، ولكن بصوته الخشن وبعد أن ابتلع ريقه بدأ يحكي.

....

الفصل التاسع

حكاية الديك الأحمر...

في تلك الغرفة بالمدينة الجنوبية ومع أناس لم تتعدَّ معرفتي بأقربهم لي إلا ساعات، عرفت ما حدث لأبي بعد اختفائه، وما أدى إلى اختفائه، عرفت ذلك من عم يحيى، الرجل الذي هاجر إلى الشمال في صباه، وكما سرد لنا حياته مختصرا، هو من مواليد نجع حمادي، مات أبوه بينما كان طفلا مراهقا، لم يرث عنه سوى بيت يختلف فيه أربعة ذكور كديوك شركسية، كلهم أكبر منه، بعد موت أبيه بسنة واحدة سافر هاربا من جحيم إخوته إلى مدن الدلتا والشمال، سمع من بلدياته العائدين من هناك في أجازات العيد أن فيها خيرا كثيرا، اشتغل في الإسكندرية ودمياط ورشيد وكفر الشيخ فاعلا في المعمار، كسب مالا كثيرا، هدم عمارات وبنى عمارات على ذراعه ولكن للأسف أنفق كل ما كسبه على الكيف حتى قرب ظهره على الانحناء ولما يتزوج بعد...

سـأله زياد عندئذ في خبث:

- لم تقرب امرأة في حياتك كلها يا عم يحيى.

فابتـسم حتى ظهرت لنا أسـنانه الصفـراء الصغيرة كصفوف ال...
العويجة.

- الحمـار الفواعلي عندما يهرم يقتلونه ويبيعون جلده وعظامه يا سـ...
اليه أما الحمار الحر فيموت بالعجز.

- ولكننا لسـنا حميرا يا عم يحيى.

قال في ثقة وهو يهز كتفيه:

- أنا عشت حمارا، أنا عارف نفسي.

في عمله بالمعمار وعندما بدأ يترأس مجموعات للعمل كان يكر... أن يناديه أحد بعم يحيى، كان يصحح لهم طالبا أن ينادوه بالمعلم يحيى أو الأسطى يحيى، أو يحيى (حاف)، ولكن كلما تقدم به السن أصبح اللقب أمرا واقعا مثل بناية آيلة للسقوط، لم تسرقه السكين كما يقولون، لم يبحث عن حياة بديلة يرتق بها مشاعر العوز بداخله إلى المرأة والأطفال والحياة الكاملة، ولكنه حبس في قبر كل ما يرغب فيه، ربط عليه في جوال وزمه ودفنه على عمق أمتار كثيرة تحت الأرض وأهال عليه تراب آلاف التفاصيل الصغيرة التي زحمت حياته، تفاصيل حياة السقالات والصياح والدق المستمر بالجواكيش والمسطرين، اتسعت تلك الحياة وتمددت فلم يعد لديه فراغ لشيء.

ا ا نعرفان كيف يدبغون الجلود، كيف يصنعون الزبيب، كيف ...ون التمر، إنها الشمس، الشمس كانت بالنسبة لي هي كابوس ه ار الذي لا أحتاج لأن أرقد وأنام لأحلم به، لا عجب أن الشمس ه ..ت من الفراعين الأشداء فالإله يجب أن يمتلك النار قبل أن يمتلك ا هم، الشمس تحرق وتعذب، وتطهر الرجال وتدبغهم وتمتصهم.

ا كان عم يحيى من الفراعنة الأوائل ما عبد الشمس لأنه كرهها، كان . اليل والقمر ولكن للأسف فالفراعين ما كانوا يعبدون بالحب..

إ خلاصي في حياتي كلها لم يكن إلا لربنا ولدماغي، صنف جيد و حلسة أنس لا إثم فيها وهواء بحري لطيف، من أجل هذا بحثت بعد أن مرت عليّ سنوات العمر ووهنت عظامي عن عمل يضمن لي ذلك، قالوا لي إن العمل في المخابرات هو أفضل مجال يوفر لي ما أرغبه.

المخابرات؟

أها، الأمن يعني، الحراسة، سيكيورتي.

نظر لي عم يحيى عندئذ رغم أنني لم أكن أنا الذي سألته وقال:

عندكم هناك في الدلتا مزارع السمك، حراستها سهلة ولكنها تتطلب رجل ليل وليس رجلا عاديا، يتحمل البرد والسهر في العراء، ليس من السهل أن تجد حارسا ليليا هناك، فأنتم قد اعتدتم على النوم على المراتب القطنية.

أكثر من عشرين مزرعة على عشرة فدادين مد البصر، أنا في الم.. من الخلف وثلاثة شباب معهم قطعتا سلاح من ناحية الأسفلت، يشعا. النار للإنارة والدفء ويصنعون ضجيجا ليطردوا لصوص السمك و ا كان كافيا ليطرد الجن الأزرق، افردوا لي كوخا من الخشب عشـ.. الكوخ يقع في نصف المزرعة، بعد أذان العشاء بقليل يأتي أصغر الش.. بالمشوي أو المحمر والصنف الجيد، حشيش درجة أولى يحمله .. مثله مثل كيس الشاي وحُق السكر، نأكل وأشعل القلاوح وأضع .. الشاي على النار وأرص أحجار الجوزة بالصنف الممتاز ونتسامر .. قرب الفجر، سنوات مرت على هذا الوضع وكأن كل شيء يخبرني أ.. حياتي ستنتهي عند هذه المرحلة وفي هذا المكان، لولا ظهور الد.. الأحمر..

غمغم زياد ساخرا: الديك الأحمر؟

رد عليه عم يحيى في حماس:

- مهما حكيت لكما لن تصدقاني، أنا نفسي لم أكن لأصدق لولا أن رأيت بعيني، حتى ما يراه الناس بأعينهم كثيرا ما يختلط، ولكني أعرف أيضا عن الرؤية عندما تختلط، أربعون عاما من شرب الدخان المغموس كانت كافية لأميز بين عالم الحقيقة وعالم الرؤى الخادعة، ولأعلم أيضا أن الديك الأحمر كان أساس المشكلة كلها، الديك الأحمر والساعتان قبل الفجر اللتان يأتي فيهما..

- ماذا يحدث يا عم يحيى؟

ا! شيء، قبل الفجر بساعتين كان الشاب الصغير يتركني ويدخل لينام
على مرتبتي، في الساعتين اللتين يتركني فيهما هذا الشاب كان يحدث
ال شيء، وكأنني أحلم وأنا يقظ، أرى عالما غير العالم.

ثم يحيى لم يدمن الحشيش كما أخبرنا أملا في أن يرى دنيا أخرى
. . التي يراها الآخرون ولكن ليغيب عن الدنيا وينام نوما هادئا، رغم
ا! ك فمنذ ترك الصعيد وهو لم يزل بعد شابا كان من النادر أن ينام إلا
. . . شروق الشمس، لا يصرعه الدخان الأزرق بالكامل، ولكنه يلقيه
في حالة بين النوم واليقظة، يمرر إلى عالمه الفظ ما استحال عليه تحقيقه
في الواقع، يخلط الحقيقة بما تمناه طوال حياته.... وما خاف منه أيضا!

بمجرد أن يتمكن الدخان من رأسه تتعرق ألوان العالم مثل لوحة
سوريالية، فيرى بيوتا واسعة بلا جدران ولا أعمدة، محمولة السقف
كما تحمل السماء سقفها، وتطوف حوله نساء من السهل أن يغويهن
ينكسرن عند أول لمسة مثل زلعات العسل بالود الرقراق، ثم تظهر النساء
الفاسيات اللواتي يتمنعن ويغادرن تاركات الحسرة والهواجس تعض
قلبه، وتبدأ العفاريت في المرور إلى جواره وهم يتحدثون في زعيق يصم
الآذان، ويزحف إلى ساقيه الممددتين قتلى يتخبطون في آلامهم الأخيرة
مثل النائمين عندما يتخبطون في عوالم كوابيسهم، وتهاجمه ذئاب تتبخر
عندما تصطدم بصدره بعد أن تبلغ بخوفه منتهاه، ويرى من أعلى نقاطا
وهمية في السماء، رجالا يسقطون وهم يصرخون، وآخرين يخرجون
من تحت أنقاض لا يراها ولكن يكللهم الذهول والتراب..

- ولكـن كل هـذا كـوم والديـك الأحمر كـوم، فـي البدايـة ظننته ضـ.
ما يتهيـأ لـي، كان يأتي مختلطا بمـا أراه ثم يظل ثابتا مثـل نقطة حـ..
بعد أن يسـود الهدوء، في نصف المزرعـة عند أرض الفضـاء التي نـ
بعـد الكوخ، ذلك المكان الـذي أخبرني اليه صاحب الأرض أكثر .
مرة أنه يفكر في أن يحفر فيه مزرعة لثعابين السـمك ولكنه كان يؤ..
الأمر للتكلفة، فثعابين السـمك تحتاج إلى أرض خرسـانية لكي لا نـ
للأسـفل في الطين بعد أن تسـحب المـاء لتصطادهـا، أرض وجدرا..
خرسـانية مائلـة إلـى ترعة قريبة مـن المتصف تفـر إليهـا الثعابين بـ..
سحب الماء فيسهل اصطيادها.

- المهم يا عم يحيى.

- المهم، هذا هو المهم، هذه الأرض كانت أسـاس المشكلة كلها، تماما
بعد أن ينام الولد معي والولدان الآخران على الأسفلت تخفت نارهما
وأصواتهمـا، يأتـي الديك الأحمر، لا أعرف كيف تنشـق عنه الأرض،
يذهـب إلـى مكان قريب من نصف تلك المسـاحة مـن الأرض وينقر،
ينقـر ويصيح ويرفرف والصوت قريب كأنـه يفعل كل ذلك في صماخ
أذنـي، لا أخفـي عنكمـا، رأيـت كل أصنـاف الحيوانـات فـي عملـي
بالمعمـار، ثعابيـن وثعالـب وذئـاب وكلاب مسـعورة وحمير تعض،
لكنـي لـم أنزعج، ثم يأتي هذا الديك في نهايـة العمر ويزعجني!!، في
الشـهر الأول حاولت أن أصطـاده فلم أفلح، بعدها صـار كل همي أن
أبعـده عن المكان الذي ينقـر فوقه ولو مؤقتا لكيـلا يصيح ويزعجني،

...م بجانبي حصى كثيرا يسألني عنه الشاب الصغير في أول الليل
ا ميه بسخرية إن الصعايدة ينظفون صمغ آذانهم بالحصى، وعندما
اى الديك الأحمر أقذفه به ولكنه لا يلتفت، تصيبه الحصاة وتعفر في
.شه ولا يلتفت، المهم، قبل الفجر يذهب الديك كما أتى، وعندما
اذهب إلى المكان الذي كان يحفر عنده أرى آثار نبش مخالبه وأرى
أيضا جدران بيوت تحت قدمي لدرجة أنني كنت أباعد بين خطواتي
خشية أن أدوس الفراغ فأسقط، غرف وأحواض وسلالم من الداخل
كما كان عندنا في الصعيد قبل أن يمسخها المعمار الحديث، بعد أن
يهبط ندى الصباح وتشرق الشمس وتبخره يختفي كل شيء...

قال زياد ضاحكا وهو يغمز لي بعينه:

الصنف لم يكن من الدرجة الأولى يا عم يحيى.

نظر عم يحيى إلى زياد بعينين ساخرتين:

نصدك مغشوش، قصدك إنها هلاوس، خمس وثلاثين سنة اشرب
الصنف وتريد أن تقنعني أنني لا أعرف الفرق بين الصنف الرديء
والدرجة الأولى، إذن قل على الدنيا السلام يا بيه.

- لماذا لم تخبر أحدا إذن بما يحدث؟

- الناس يفسدون ولا يصلحون، كلما قل ما يعرفون كلما كان أفضل.

ذات يوم اختفى هذا الديك بطريقة لم يتوقعها عم يحيى، قرر
صاحب الأرض أن يحفر تلك المساحة بعد الكوخ ويبنيها أحواضا

لثعابين السمك، جاء الحفار وبدأ يحفر، طبقة سوداء قاسية مثل
حمار عجوز غاب فيها الحفار خمسة أيام، ينصرفون عند الم
ويسهرون كعادتهم وبعد نصف الليل ينتظر عم يحيى مجيء الديك وا
لم يعد يأتي، ثم جاءت طبقة طمي أحمر لينة كالقشدة عمل فيها الحف
يومين حتى وصل إلى الطبقة البيضاء، طبقة القواقع التي كانت قاع ال
القديم، هنا أشار صاحب الأرض للحفار أن يتوقف، قال لعم يحيى إ
هذه الأرض هي الأرض الثابتة التي يستطيع أن يرمي عليها الخرسا
باطمئنان دون أن يخشى أن تتشقق، ثم أمر الرجال أن يضعوا العلا
خطين من الجير ليحفر بينهما مجرى لاصطياد الثعابين بعد سحب الما
الخطان كانا يمران قريبا من المنتصف، بدأ الحفار في العمل حتى وصل
إلى المكان الذي كان ينبش فيه الديك الأحمر فاصطدم بلوح من الرخام
الأبيض عرضه متر وممتد في داخل الأرض، لوح لم يستطع الحفار أن
ينبش تحته لينزعه من مكانه.

- لا أنسى أبدا وجه صاحب المزرعة وهو يقفز في الطين بحذائه الكلارك وجلبابه الدفة الأبيض الناصع وينحني على ركبتيه ليمسح الطين عن الرخام ويتفحصه طويلا ثم ينهض على ساقين مرتعشتين وعينين تدوران لدرجة أنه لم يستطع الخروج من الحفر وحده، أشار للحفار أن يتوقف ودخل الكوخ الخشبي، عصرت له ليمونتين كبيرتين في كوب ماء وحليته بالسكر، تناوله من يدي وجرعه دفعة واحدة ثم قال ببطء شديد وهو ينظر لي.

- اجمع الموجودين يا يحيى.

ا.ل مرة يناديني صاحب المزرعة ندا لند، انطلقت وناديت عليهم:
. الحفار، وابنا البيه، الشبان الثلاثة وكان أصغرهم قد ذهب لإحضار
.. ، بعد أن تجمعوا حوله تأمل البيه في وجوههم وكأنه يقيس مدى
.. بهم بكتمان ما سيقوله، ثم زعق في ابنه الصغير أن يظل بجانب
.مرة حتى يناديه، وبدأ الكلام هامسا.

قال إن الله فتح علينا باب ثراء لا يتخيله أحد، كنز من كنوز الأولين
ي بحث عنها الجميع ويبذلون في سبيل العثور عليها المال حتى آخر
.. م يمتلكونه، وأن الحرص هو الشيء الوحيد المطلوب، سيتكفل هو
. كل مصاريف الحفر واستخراجه وبيعه، المطلوب منا جميعا: ممنوع
البوح بأي كلمة أو إشارة ولو لزوجاتنا في البيوت حتى يتم الأمر، سنظل
م ابطين هنا لا أحد سيذهب إلى بيته حتى لو طال الأمر إلا لحضور
جنازة أقرب الأقربين له، ونصيب كل واحد فينا قد يتعدى نصف مليون
لو كان ما يتصوره صحيحا.

طريقة البيه في الكلام ونظراته كانت توحي أنني لست من المحسوبين
في مكافأته ولكن على أية حال حمدت الله على ذلك لأنه قال مباشرة
بعد أن أخرج طبنجته ليعزز قوله:

- المعترض أو الخائف يغادرنا الآن، لأنه بعد ذلك لن يكون تعاملي
إلا بالسلاح..

لـم يغادر أحـد، مما جعل البيه الكبير يتوغل أكثر في الشـرح، قال:
هذا الرخام عليه نقوش فرعونية، وهو بداية سلم إلى مقبرة مليئة بالذه
والمومياوات، سنستمر في الحفر عليها بداية من الآن..

انتظرنـا حتـى أتى الشـاب الأصغر بالغـذاء فكـرر عليه البيه بنفـ
الحديث والوعيد، فوافق على البقاء ثم تناولنا الغذاء ومعنا البيه وا
وتعاهد الرجال على العيش والملح ألا يخرج السـر مـن بينهم والحال
لا يلومن إلا نفسه...

نـزل الرجـال بالفـؤوس وبدأوا فـي إخلاء الطين من فـوق درجا
السـلم بمسـاعدة الحفار وحماسـهم الشـديد، عند الدرجـة الثالثة بدأوا
يشـعرون بالطين تحتهم ساخنا لدرجة جعلتهم يتصببون عرقًا، كل ضربة
فـأس وكأنهم يغرسـونها في الحمـم، أحاطوا أيديهـم وأقدامهم بالخرق
وبللوها بالماء فسـاعدهم ذلك في إخلاء درجتين إضافيتين، وكان الليل
قـد هبط فخرج الرجـال ليتناولوا عشـاءهم، بعد العشـاء صلينا وأشعل
الحفار كشـافاته وجـاء الرجال بدراجاتهم النارية حـول الحفرة فأضاءوا
مكان السـلم، ومع أول ضـربة فأس في الضوء خرج الماء.

صحت أنا وزياد في عم يحيى عندئذ بدهشـة:

- ماء؟

مـاء يخـرج بقوة من عند السـلم، في البداية ظن الرجال أنها ماسورة
مياه عثرت فيها فؤوسـهم فكسـرتها، ولكن لون الماء في ضـوء الكشـافات
كان يبـرق فيه ذرات لها لون فضي، حـاول الرجال دفع أيديهم في الطين

حث عن مصدر الماء ليسدوه، ولكن كل رجل عمم الماء جزءا من
نه أصابته حكة شديدة، أشار اليه للحفار أن يغرس صندوقه حول
كان الذي يخرج منه الماء فاندفع الماء أكثر وأكثر وتدفق ليملأ حفرة
لم ويعلو حواف القناة التي صنعها الحفار، ويخرج منها ليفيض على
الحفرة الكبيرة، هتف فيهم اليه أن يأتوا بالطلمبة ليسحبوا الماء.

كان الرجال قد تعبوا، علاوة على البثور التي ملأت أجسادهم، لكنهم احتملوا بشجاعة حتى جذبوا طلمبة الماء من بداية الأرض إلى أس الحفرة، نزل الشاب الصغير والأوسط في الماء وتحسسوا الأرض مم يجذبون خرطوم السحب إلى مكان السلم الذي اختفى تحت الماء، قام الرجل المتبقي بمساعدة ابني اليه بوضع طرد الطلمبة في بداية قناة صغيرة قام الحفار بصنعها على السطح ممتدة إلى الترعة عند رأس الأرض، وقمنا بتشغيل الطلمبة.

كان الماء عند بداية تشغيل الطلمبة قد صعد إلى ارتفاع نصف ساق الشاب الأوسط وهو أقصر رجل فيهم، وهي كمية في العادة لا تستغرق ثلاث ساعات لتسحبها الطلمبة، اغتسل الرجال بما تبقى من ماء الشرب، أرسل صاحب المزرعة ابنه بسيارته لجلب الماء وجلسنا حول النار ندخن السجائر، غرق كل واحد منا في أفكاره، لم يكن لدى أحد من الرجال البال لتدخين النارجيلة رغم أن هذا وقتها، ولكن صنف السجائر عوضنا، سجائر من الصنف الغالي وزعها اليه من علبته الخاصة، كل نصف ساعة يذهب أحد الرجال لينظر بالكشاف اليدوي، ويعود باليأس

علـى وجهـه، ولكـن اليه وهـو رجل متنور وطيب شـرح لنا أن سـ م الطلمبة أضـعف بكثير جدا من قوة الماء الذي يخرج، قال إنه في الص ا سيأتي بطلمبتين إضـافيتين فيجففها.

نـام الرجال قبل الفجر بنصف سـاعة، ناموا مثـل قتلى، منذ خر ـ مـن الصـعيد مـرت عليّ ليال كثيرة دون الكيف، كلها كانت سـيئة، ولك هـذه كانت أسـوأ ليلة، أو هكـذا كنت أظن، الماء الـذي لا ينتهي وصو لا يضعـف وكأن طلمبـة الميـاه تقاتـل العبـث، وعنـدمـا تذكـرت الدي أتـى، أتـى قبل الفجر متأخرا عن ميعاده، وقف علـى حافة الحفرة ثم نظ ناحيتنا طويلا وكأنه يلومنا على ما حدث، وشـعرت لأول مرة في حيا بالخـوف، بـل تضـاءلت فـي عباءتي من شـدة الخوف، ثم سـمعت أذان الفجـر من بعيد، وكانت هذه أول مرة يظل الديك حتى هذا الوقت، رأيـ يقفز في الماء، سـمعت صوت تخبط أجنحته هناك وهو يشـقه، ثم سكن الصوت ولم يخرج الديك، كانت آخر مرة أراه فيها....

فـي الصـباح ذهب صاحـب المزرعة بالثلاثـة رجال وأتـوا بطلمبتين إضافيتيـن، قبـل العصـر كانت ثلاث طلمبـات تهدر على حافـة الحفرة، ارتفـع المـاء فـي المجرى التـي صنعها الحفار إلـى الترعة حتـى أنه كان يفيـض علـى الناحيتيـن ويتـسرب إلـى بعـض مـن مـزارع السـمك، بدأ منسـوب الماء يقل حتى ظهر اللوح الرخامي الأول، تعجل الرجال فنزلوا وخاضوا في الطيـن بأحذيتهم وعندما وصلوا إلى المنتصف انفجر الماء مرة أخرى بقوة شديدة لدرجة أنهم عندما وصلوا إلى الحافة كان الماء قد

.ا. ر أنصاف سيقانهم، وخلال نصف ساعة صار الماء أعلى من الأول
.ا. ، ورغم الطلمبتين الإضافيتين بدا وكأن الطلمبات تقاتل فقط لأجل
الا يهبض الماء ويغرق المزرعة..

كان اليأس قد توغل في نفوس الرجال، إلا أن اليه انهمك في
. ا.المات تليفونية عديدة في طرف الأرض البعيد، قام الابن بتوزيع
. .وب الترامادول علينا، أنا أرفض الكيمياء عادة ولكن في هذا الوقت
كان المتيسر أحسن من لا شيء.

عندما أنهى اليه مكالماته أتى ناحيتنا بوجه يحمل نصف أمل ونصف
يأس، قال لنا أبشروا فإن هذا الماء يعني أن تخمينه صحيح، المقبرة تحت
أقدامنا كبيرة لدرجة أن الفراعنة وضعوا عليها رصدا، وأن أحد أصحابه
المؤتمنين وهو صاحب منصب عال في الدولة وله اتصالات عديدة
بالخارج والداخل، وهو الوحيد أيضا الذي سيستطيع بيع التماثيل إلى
الأجانب بثمن مجز، قال إنه سيرسل إليه ساحرا مغربيا يستطيع التعامل
مع هذا الرصد مقابل أن تكون له نسبة من الكنز، اعترض الرجال في
البداية وتسخطوا ولكن صاحب المزرعة امتص غضبهم وكانت حبوب
الترامادول قد أتت بمفعولها فوافقوا..

طيلة الليل امتلأت أحاديث الرجال بحكايات عن الصراع بين الجن
والسحرة والأعاجيب التي تحدث بينهما، عن الزئبق الأحمر الذي يعتبر
إكسير الحياة للجن والذي وضعه الفراعنة في تلك المقابر لتسخير الجن
للبقاء والحراسة...

كان صاحب المزرعة قد عاد هو وابنه الصغير إلى بيتهما لأنهما في صباح اليوم التالي سيسافران إلى القاهرة لاصطحاب الساحر، بقي .. ابنه الكبير الذي لم يدخر جهدا في سبيل إرضائنا بالحبوب والصنـ... ولكن العيب لم يكن في الكيف ولا في يأس نفوسنا ولا المجهول القادم بل كان في الهواء، رائحة الهواء كانت مثل خليط من ليال عشناها من قبل، ليلة سهر فيها ملك الموت يجمع جثث رجال أعرفهم أسفل عقار انهدم فوقهم وهم يزيلون عمودا حسب تعليمات مهندس غشيم، وليلة استضفنا فيها في السكن رجلا غريبا فوضع لنا السم في شطائر فول ليسرقنا عندما نموت فصرنا نقيء حتى كنا نتزلق على قيئنا، وليلة اكتشفنا فيها فوق سطح السكن امرأة ورجلا غريبين عاريين تماما يمارسان الجنس في صخب يوقظ الموتى لا الأحياء، وليلة طافت فيها بعض الغربان فوق جيفة حمار شرد فدهمته سيارة نقل عند الأسفلت البعيد فظل ينتفخ ويتحلل حتى انفجر مثل إطار سيارة...

سمع عم يحيى صوتا يناديه:

- عم يحيى.. عم يحيى.

اكتشف عم يحيى أنه كان نائما وكان يحلم، لأول مرة يشرب الحشيش وينام، الهلاك والموت والسيل من الجبل والغرق لا يأتي إلا بعد أن ينبه، إذا تجمعت الغرائب في ليلة واحدة فأيقن بأن العاصفة ستأتي.

كان الذي أيقظه هو سائق الحفار، نظر له عم يحيى مندهشا، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عدة مرات، وجهه لا يبشر.

قال يا عم يحيى انظر معي، السمك يا عم يحيى، السمك.

انتفض عم يحيى بسرعة من دفء عباءته، رأى على ضوء القمر الل القريب من الأفول بقعا بيضاء تطفو على سطح الماء، أخذ يجري ويصرخ:

يا خراب بيتك يا يحيى، رحت في داهية يا يحيى.

استيقظ الرجال على صراخه وأشعلوا كشافاتهم، صوبوها على البقع البيضاء، كان سطح الماء تطفو عليه مئات من سمك البلطي الميت جاحظ العينين، كان السمك قد اختنق.

سأل زياد عم يحيى في فضول:

هل يختنق السمك يا عم يحيى.

طبعا، السمك يستهلك الهواء من الماء فيختنقه الماء ولكننا كنا قد قمنا رغم مشاق اليوم بتجديد الماء في ميعاده المضبوط، وليس هناك ندى ولا ضباب، الضباب يخنق السمك أيضا.

كنت أتخيل المشهد كما وصفه عم يحيى، رقد عم يحيى على بطنه وأمسك بالسمك الميت يقذفه على البر وكأن هناك من فاجأه وهو عار فأسرع ليستر نفسه، السمك متعفن، متحلل تقريبا، انقذف في الماء بملابسه، ستغرق يا عم يحيى، ستغرق، صاحوا به، نظر للسماء وهو يتصور غضب البيه صاحب المزرعة، آلاف الجنيهات ضاعت في ليلة واحدة، نظر للسماء وفوجيء بأن السحابة الوحيدة التي توشك أن

تحجب القمر على شكل ديك ينحني لينقر في الأرض، وكان الا...
الكبير لليه يراقبه مندهشا وهو لا يعلم كيف يتصرف.

....

جاء اليه في اليوم التالي مع قرب الغروب ففوجيء بما حدث، كان الرجال قد قاموا بتجفيف الأحواض التي أضيرت واصطادوا ما تبقى فيها من سمك حي ووضعوه في أقفاص من البلاستيك وفوقه مجروش الثلج ثم ذهبوا به إلى بورصة السمك وباعوه برخص التراب، لم يتوقف عم يحيى عن العمل معهم طيلة النهار ونام من شدة التعب عندما أخذوا الأقفاص للبورصة، لذلك لم ير الساحر المغربي عندما جاء، ولكنهم حكوا له عما حدث، مر الساحر على مزارع السمك التي تم تجفيفها ورأى السمك الملقى على الأرض متحللا تماما وفوقه سحابات هائلة من الذباب تشاكس بعض الغربان الجريئة، انحنى وغرس اصبعه في السمك وشمه ثم وقف ومسح إصبعه في ذيل جلبابه وقال في لكنة لوم لليه الواقف خلفه يتأمل أفعاله بدهشة:

- لماذا قمتم بتصريف الماء في أحواض السمك؟

نفى اليه ذلك، ولكن الساحر لم تهتز ثقته لحظة أن ما قتل هذا السمك هو الماء الذي خرج من الحفرة، قال عم يحيى إنه من الغريب أن يكون الحال مطابقا لكلمات الساحر المغربي، فالأحواض التي أضيرت كانت هي الواقعة على جانبي القناة التي قاموا بشقها لتصريف الماء.

صافح الساحر جميع الرجال عدا عم يحيى الذي لم يكن حاضرا، •حص في عيونهم ثم أبقى يد أصغر الشباب الثلاثة في يده طويلا حتى •ال له:

أنت من سيذهب لإحضار السعف.

كان صاحب المزرعة تائها في أفكار خسارته بموت السمك ولكنه . د بسرعة:

أي سعف؟

رد الساحر بثقة وببطء:

سعف نخل، نخلة بكر لم تطرح من قبل، ثلاث سعفات.

استأذن الشاب اليه فأذن له، طلب الساحر رجلا آخر لم يحدده ليرسله إلى المدينة القريبة لشراء بخور معينة كتبها له في ورقة، وعندما وصل السعف كشف الساحر عورته أمام الرجال دون خجل وتبول عليه ثم طلب منهم أن يغرسوا الثلاث سعفات حول الحفرة في الماء ويقوموا بتشغيل طلمبة ماء واحدة فقط.

في تأفف واضح التقط الرجال السعف المبلل وخاضوا في الماء حتى غرسوه في الطين فلم يعد ظاهرا منه إلا الشواشي، وكان الساحر قد سبقهم وجلس عند رأس الأرض وأشعل البخور التي أُتي بها إليه وأخذ يتمتم، ظل على هذا الحال طيلة ليلة كاملة وجزء من نهار لا يأكل ولا يشرب ولا يصلي ولا يقضي حاجته، بعد غروب شمس اليوم التالي

كان الماء قد جف تماما وظهر اللوح الرخامي ودرجات السلم ولكن الساحر حذرهم من النزول، قال إنه لابد أن يمر الليل.

في صباح اليوم الثالث بعد وصول الساحر بدأ الرجال في الحفر مرة أخرى وفي وجود الساحر، وصلوا إلى باب صغير من الحجارة مليء بالنقوش استغرق الرجال وقتا طويلا في إحداث ندبة بعمق خمسة سنتيمتر، وكانت الشمس قد غربت فأمرهم الساحر بالخروج بسرعة، قضوا ليلة مرهقين، ليلة أخرى بالسجائر فقط.

المختلف في تلك الليلة أن عم يحيى كان أقل حزنا لأن البيه ربت على كتفه وقال له: لا تحزن يا عم يحيى، إن شاء الله ربنا يعوضنا.

قال إنه بسبب الفرحة لا بسبب المخدر لم ينم طيلة الليل، كانت ليلة هادئة جدا، حتى السماء كانت خالية من السحب، ولكن لا شيء يريب بقدر الهدوء والصمت، في صباح اليوم الرابع استيقظ الجميع رغم التعب وانطلقوا، لكن أمام باب المقبرة كانت المفاجأة، وجدوا كلبا راقدا هناك، كلب أسود طويل السيقان ضامر البطن حاد النظرات كشر عن أنيابه عندما رآهم، قذفوه بالطوب، صاح فيهم الساحر وهو يمنعهم ويقف حائلا بينهم وبين فتحة الحفرة.

- لا تسقط نقطة دم واحدة على الباب وإلا ضاع الكنز للأبد.

- ولكن هذا كلب.

أشار الساحر للبيه أن يجمع الرجال ويصعد بهم إلى أعلى الأرض، ساروا في صمت حتى وصلوا إلى قرب الكشك الخشبي وهناك أخبرهم

الساحر أن عليهم استدراج الكلب للخارج حتى إن كان الثمن أن يعض الكلب أحدهم، ولكنهم جميعا خافوا النزول وأخذوا يقترحون:

نقذف حبلا معقودا فيلتف حول عنقه ونجذبه فيختنق، دون نقطة دم واحدة.

نلقي له قطعة لحم ندس فيها السم فيموت.

نشعل نارا ونلقيها عليه، إما أن يحترق أو يهرب.

صاح الساحر مفزوعا:

- لا لا، ستقتلوننا جميعا إذا فعلتم، أنتم لا ترون من يقف خلف هذا الكلب، يجب استدراج الكلب وحبسه دون قتله ودون نقطة دم تقع على الباب الرخام.

قال أكثر من واحد وبأكثر من صيغة:

- أنت تصعب الأمور.

- الكنز يستحق.

- أرواحنا أيضا تستحق، لن نضحي بها من أجل كلب.

صرخ الساحر هامسا وكأنه يخشى أن يسمعه الكلب:

- اسمعوني جيدا، هذا الكلب فخ كبير، إنه مرتبط بالباب، من أرسل هذا الكلب إلى هناك له مطالب.

حتى اليه لم يتحمل هـذا العبث، صرخ وهو يخرج طبنجته من جيبه ويلوح بها:

- كلب يا خلق، كلب يقف بيني وبين كنز من الذهب، كلب بثمن رصاصة في رأسه.

- إما أن يخرج هـذا الكلب طواعيـة أو ننفـذ طلبـات من أرسـله علينا وصدقوني لن يكون شيء سهلا أبدا، لن يطلب مالا أو طعاما أو شرابا فهو لا يحتاج هذه الأشياء كما تحتاجونها، سيطلب منكم شيئا يعلم إنكم لن تنفذوه إلا بالكفر، لأن مهمته التي هو مرصود من أجلها هي حراسة الذهب، ولكن لكل شيء أصولا، هو مجبر على اتباع عهد سيدنا سليمان الذي أخذه على نفسه، العهد هو ما بيننا وبينه، العهد يحرقه ويؤذينا، لو تعجلنا وتجاوزنا فصدقوني نحن عاجزون أمامه، يستطيع أن يقتلنا في لحظة واحدة بأقل من المجهود الذي يبصق به أحدكم على نملة فيغرقها، لا نريد أن نسلطه علينا، الصبر جميل، إذا لم تلتزموا به فاسمحوا لي أنا خارج اللعبة من الآن.

سمعنا صوت سائق الحفار وهو يقول بحشرجة:

- اسمحوا لي أنا، أنا منسحب.

نظر إليه الجميع وقال اليه وهو يكاد يختنق من الغيظ:

- ما معنى أنك منسحب؟

الحمار متوقف منذ أسبوع، لم أذهب لبيتي ولا لأولادي، كنتُ أظن أن الأمر مجرد حفر، وأنا حفرت، لكنْ جن ورصد وموت، لا.. أنا خارج اللعبة.

قال الساحر في هدوء يغيظ:

أنت داخل اللعبة كما قررت منذ البداية ولكن قرارك بأن تكون خارج اللعبة ليس بمزاجك، أنت وافقت ووضعت اسمك في الورقة.

عندئذ سأل زياد عم يحيى:

اي ورقة يا عم يحيى؟

قائمة مفصلة بأسماء المشتركين في الأمر بأسماء آبائهم وأمهاتهم، طلبها الساحر قبل أن يبدأ وصافحهم واحدا واحدا ولم يضع فيها صاحب المزرعة اسمي، مستخفا بي أو غضبا مني على موت السمك، ما تظن أنه يضرك ينفعك، قال الساحر إن كل من صافحهم مرتبطون بالأمر، ذهابهم يضعف الحلقة، بالطبع لم يتقبل سائق الحفار هذا، هاج وماج وحاول أن يصعد للحفار بالقوة فمنعوه وقيدوه وكان هذا السائق هو أول من سجنوه في الكوخ.

بعد تقييد سائق الحفار وحبسه في الكشك اختلى البيه بالساحر بعيدا عند طرف الأرض، اختليا كثيرا، وكلما حاول أحد أن يذهب إليهما أشار له صاحب المزرعة من بعيد أن يرجع، وضعنا الغداء ولم يعدم سائق الحفار أحد الشباب ليطعمه في فمه، ثم عاد اليه إلينا بسرعة بعد أن

أنهى كلامه مع الساحر المغربي، وأمرنا أن نبني خيمة على رأس الحف لإقامة الساحر، قال إنه وعده بأنه سيطرد الكلب عن طريق مضايقه بالتعاويذ والسحر.

كانت الأرض بجانب الحفرة لا تزال طرية عندما قام الرجال بغرس أربعة قوائم خشبية نصبوا عليها خيمة مربعة من قماش أسود اشتروها، مع بخور آخر، أكثر من المرة الأولى وأغلى، بخور وشمع، ظل الساحر هناك حتى شروق الشمس ليس معه إلا زجاجة ماء، ينطلق الدخان بكثافة من باب الخيمة رغم إغلاقه بالكامل، عند الظهيرة خرج الساحر يتصبب عرقا وطلب طعاما، كانت رائحته كريهة لدرجة أننا وضعنا له الطعام وابتعدنا عنه، أكل بلهفة وسرعة فائقين ولم ينبس بكلمة واحدة تبل بها ريقنا، ثم بدأ العواء بعد أن عاد مباشرة، ظل الكلب يعوي طوال الليل، عواء كلب عادي، مرة كل ساعة أو ساعتين، ثم بدأ العواء يتغير، طوله والمدة بين كل مرة، كل نصف ساعة يعوي الكلب عواء غريبا، لم يعد عواء كلب عادي، كانت صرخات تشبه صرخات البشر تنطق حروفا واضحة في بداية الصرخة ثم تمتد صرخته طويلا بعد ذلك في حرف واحد كأنها صيحة شخص يسقط في كابوس، لم يسكت الكلب إلا بعد أن خرج الساحر مع شروق الشمس، كان وجهه يحمل من الحيرة أكثر مما يحمل من التعب، سأله أبيه المتلهف.

- هل خرج الكلب؟

ا عاب لا أعرف.. لا أعرف، ثم مال رأسه على صدره وسقط في نوم ... أرسل اليه أحد الرجال لينظر في الحفرة، عاد بعد دقيقة منكسا ا في خيبة أمل، الكلب لا يزال هناك...

ام الساحر وقتا طويلا، لم يتقلب حتى، وعندما استيقظ أكل كل ما د مناه أمامه من طعام، لم يسأل عن وجود الكلب من عدمه، عاد للخيمة ... ومع قدوم الليل مرة أخرى سمعنا أول عواء الكلب ولكن الجديد سائق الحفار بدأ يصرخ هو أيضا، كلما صرخ للكلب صرخ هو رعبا، ادي علينا بأسمائنا واحدا تلو الآخر ويرجونا ألا نتركه وحده.

....

بعينين حمراوين دامعتين أدار فينا عم يحيى نظرات مرتعبة وهو يقول:

ما زالت هذه الليلة تطاردني في أحلامي حتى الآن، لم أكن أخاف من الكلاب ولا الظلام، في هذه الليلة بدأت أخاف من كل شيء، حتى الروائح التي تتغير، لم أنم بسبب الرائحة، نفس الرائحة التي شممتها في الليلة التي رأيت فيها الديك آخر مرة، ليلة أن مات السمك، رائحة الجيفة والموت المختلط بغبار الأسمنت وعرق الرجال ومني رجل وامرأة اختلطا في الحرام تحت نظر الله دون سقف ورائحة قيء صنعه رجل لا يكتفي بالسرقة بل يتجاوزها إلى القتل، ولكن رائحة القيء والموت كانتا أشد، وفي ساعة الديك سكت الصوت.

كان البيه قد غادر المزرعة قبل استيقاظ الساحر وترك ابنه الم
معنا، ولم يكن أحد من الرجال متيقظا سوى رجل واحد، أما البقية ن
جميعا حول سائق الحفار كما طلب منهم ورجاهم، حتى هذا ال
الواحد تركني بعد قليل، قال إنه رأى خيال رجل يسير عند الأسم
البعيد ويعبره إلى بداية المزرعة، أخذ سلاحه وذهب ليطمئن، ع
جلستي لتصبح بعيدا جدا عن أي زاوية أرى منها سقف الخيمة في الأر
المشئومة، فجأة سكت عواء الكلب، وعندما سكت رأيت الرجل ال
كان معي آتيا من بعيد وهو يجري ويشير بيده لي ويصيح وكأن خلفه الم
عفريت، أو كأن خلفي أنا ألف عفريت، كان يشير خلفي، وقفت دون ا
أجرؤ على النظر ورائي، عندما وقفت سمعت صوت الغرغرة وشم
رائحة دم قوية، ساخت قدمي في الأرض تحتي، شعرت بنقطة من الم
تسرب في سروالي، نظرت لأضواء القرى البعيدة عنا ووددت لو أم
فأنغمس فيها، ولكن الشاب كان هو من طار إلى مكاني وأخذ يهز
بعنف وهو مفزوع، يهزني لأرد عليه، أشعر بثقل جسدي على يده بحيث
لو تركني لسقطت على الأرض، عندئذ سمعنا صرخة سائق الحفار
ليست صرخة بل ولولة طويلة لا تنقطع مثل جهاز إنذار في سيارة، سمع
الرجال يستيقظون ويتخبطون في الجدران هربا إلى خارج الكشك
الخشبي، من شدة تخبطهم يكادون يخلعون الكشك من جذوره.

- ماذا حصل ماذا حصل؟

صاح فيهم الشاب الذي تركني أسقط على الأرض وطار إليهم وهو ...حب أمان الطبنجة، عندما نظرت خلف هياكلهم المندفعة من فراغ ...ب الصغير كمجموعة عصافير احترق عُشُّها أغمضت عيني على ... لا أريد أن أرى، لا أريد أن أسمع أيضا ولولا أن سكت سائق ...مار عن ولولته لسددت أذني، كانت لحظة واحدة كافية جدا لأرى ... شيء، حتى أمنية أن تنشق الأرض وتبتلعني لم يكن في إمكاني أن ...اها لأن ما تحت الأرض هو ما خرج إلينا الآن، خرج على شكل ...احر تعيس أسفل ذقنه وفي موضع تفاحة آدم منه يندفع الدم فلا يستطيع أن يسده بكلتا يديه، كلما فتح فمه ليستنجد بنا غلب الدم يده وانتثر من ...ين أصابعه وخرج الصوت من بين شفتيه فحيحا مرعبا، كان يتبع الرجال لينقذوه وهم يهربون منه، ولولا أن سقط لما عادوا إليه، ربطوا حول عنقه شالا وضغطوا على الجرح بأيديهم وعندما تماسك الابن الصغير اتصل بأبيه، طلب منهم أن يحملوه إلى الأسفلت فذهبوا كلهم يتعاونون في حمله، ليس من تحت إبطيه بل مرابعة مثل جيفة نتنة، وكان الساحر كلما أفاق التاث وتخبط في أيديهم كأنه يطرد عنه هجوما ضاريا ويفلت منهم ويكاد أن يسقط فيضعونه على الأرض حتى يغشى عليه مرة أخرى.

فكر عم يحيى: هذا هو ما تبقى من الساحر: ذيل برص يتلوى بعد أن هرب الساحر من جسد المغربي المسكين الذي ولد ليموت في مكان أبعد من مولده بآلاف الأميال.

ذهبوا بالكشافات ولم يعد منهم أحد، ساد الظلام، تحسس عم... الأرض تحته، غلبه القيء فلم ير السيارة التي أتت وحملته سريعا إلى المستشفى، لم يبحث عمن تبقى معه من الرجال ومن ذهب منهم، دا... به الدنيا فظل جالسا في مكانه على الأرض، كل الأصوات والر... ذهبت، ولم يكن في حاجة لينظر أو ليسمع العواء فيعرف، الكلب ... إلى موضع حراسته بعد أن نهش حنجرة المغربي المسكين..

....

- لم أعرف مصير الرجل المغربي من الرجال بعد أن عادوا، الدم الذي نزف منه كان كافيا لقتله، وعلى أقل تقدير فقد حنجرته التي نزعها الكلب بأسنانه، الشاب الذي ذهب مع أبيه وابنه الكبير لم يخبرنا عندما عاد ماذا حدث للساحر، دخل وبدل ملابسه وطلب من بقية الرجال أن يفعلوا كما فعل هو بملابسهم المتسخة بالدم، جمعها وأحرقها كلها كومة واحدة فصارت ترابا قبل أن تشرق الشمس، عندما اتضحت الرؤية رأينا الدم، من شدة خوفنا قمنا بإراقة كل ما تبقى لدينا من ماء الشرب على الدماء المتناثرة على الأرض ناسين أنه كان يمكننا استعمال ماء المزارع، وفي حراسة الطنجة فككوا قماش الخيمة ولكنهم لم يستطيعوا بقوتهم الواهنة أو رعبهم المستمر من خروج الكلب عليهم أن ينزعوا قوائمها فتركوها مشرعة في الهواء، وبعد أن قمنا بأعمال المزرعة المعتادة غرقنا في النوم متجاورين حول الكشك، استيقظت مع قرب الغروب فدخلت لأطمئن على سائق الحفار، عندما خرجت رأيت الشاب الأكبر يغسل وجهه عند زير الماء، سألته:

...قال لك البيه بخصوص سائق الحفار؟

- ...ال يبقى كل شيء كما هو بعد إزالة الخيمة وآثار الدم وعندما يأتي ...تصرف فيما تبقى.

استيقظ البقية على حديثنا، أشعلت النار وقذفت فيها (القلاوح)، ...وا في المزرعة يزاولون أعمالهم ثم جاءوا تباعا لشرب الشاي، كان ...لهم مجيئا الشاب الأوسط الذي كان معي في ليلة أمس، سألته:

من الرجل الذي ذهبت لتراه عند الأسفلت ليلة أمس؟

كان عرباويا يرعى الغنم، قال لي إن عواء الكلب يفزع ماشيته، أيقظه من نومه، يفزع حتى الكلاب، قال إن الحمار خلع رسنه من الأرض، والغنم لأول مرة في حياتها هدمت السياج الشبكي الذي أقامه لها، قلت له إنه ثعلب ابتلع سما وضعناه له بعد أن دأب على اختطاف السمك من الماء.

- الذئب يخاف من الماء.

تنهد في شرود وقال:

- هذا أول ما جاء إلى ذهني وقتها.

ثم أردف مستنكرا:

- أنا رأيت ذئبة تصطاد السمك.

تجاهلت مناقشة موضوع الذئاب وسألته:

- ولكنك كنت تجري.

- آه، عندما رأيت الكلب واقفا بجانب الخيمة، لدقيقة ظننت أن الذ‍ سيغادر الحفرة للأبد.

تبادلنا معا نظرات مثل لعاب في حلق خائف أو متردد ثم قال بصو قريب من البكاء:

- اسمع يا عم يحيى، أنا وجدت قطعة لحم حمراء صغيرة خلف الكشك أعتقد أنها جزء من حنجرة الساحر، دحرجتها بعصا حتى أسقطتها في الماء للسمك، وألقيت العصا خلفها، تفتكر ربنا هيحاسبني؟...

....

لم يجيء اليه في صباح اليوم التالي ولا الذي بعده حتى انتصف النهار، كنا قد قمنا بأعمال المزرعة كما ينبغي وتناوب الشباب في الذهاب إلى بيوتهم، لولا الحفار الراكد في جو السماء بجانب الحفرة والقوائم الخشبية الأربعة لظننت أن ما حدث كان وهما، لم يجيء في سيارته ولكنه جاء مرتديا شخصيته القديمة وكأنه نسي ما حدث، نزل من سيارة أجرة وقطع المسافة مشيا يتفحص في الأحواض كما هي عادته الأولى، سارع إليه أكبر الشباب وتحادثا شارحا له بيده ما تم من أعمال، وعندما أشار له إلى الكوخ الخشبي عبس وتجدد في الهواء كابوس الأيام الفائتة، ناداني اليه وهو يلج باب الكشك، عندما لحقت به كان

.ا موارة مع سائق الحفار المقيد، سمعت السائق يؤكد للبيه أنه لن
. ا مدا بما حدث أمامه، فرد عليه أنه واثق من ذلك لأنه لن يعرض
، لغضب الباشا الكبير الذي أرسل الساحر المغربي، وأن أي كلام
.. م سيكون تأكيدا على اختفاء الساحر الذي مات ولن يصدقهم أحد
.. ات من كلب أو جن أزرق، بل سيصدقون أن كل من اشتركوا في
... ، قتلوه، أمرني البيه بفك قيوده وأعطى له ثلاثة آلاف جنيه وخرج
الى دون أن يصافح واحدا فينا، سألت البيه:

الساحر مات؟

ايوه يا يحيى، مات قبل أن نصل به للمستشفى.

يا سعادة البيه اتجاهكم لم يكن إلى المستشفى، المحافظة في الجهة الأخرى، الملاحات في هذه الجهة، أتمنى فقط أن تكونوا دفنتموه إلى أبعد ما استطعتم لأن ماء البحر لو ثار وغطى الملاحات سيخلخل الرمل وتطفو الجثة.

قال البيه وهو يتنهد:

ربطنا فيه حجرا يا يحيى، والجثة كانت ثقيلة في ذاتها، الناس أسرار.

الحمد لله.

قمت لأنصرف.

لم تسألني يا يحيى لماذا قتلت المغربي؟

كان سيموت على أي حال يا بيه، بدلا من الفضيحة والأسئلة.

قال باستسلام وهو ينكس رأسه:

- كانت أوامر الباشا في القاهرة.

- أنا لا أعرف إلا الباشا الواقف أمامي، وهذا أفديه برقبتي.

- تسلم يا عم يحيى.

قلت في رجاء مستغلا حالة الرضا التي أثرتها عند اليه:

- لي طلب صغير عندك.

- أؤمر.

- تردم الحفرة.

صرخ فجأة:

- لا لا.. إلا الحفرة، سيضيع الكنز.

- لا يزال عندك أمل؟

- لا.. ولكن بردم الحفرة كل مجهود الأيام السابقة سيضيع، ثم ما أدرانا ما الذي يمكن أن يحدث لو ردمنا الحفرة فوق الكلب، من يضمن لي أن لا يحدث ما حذرنا منه الساحر لو قتلنا الكلب.

- وما الحل إذن؟

- سنبني سورا حول الحفرة، أنا أعرف أنك كنت تعمل في المعمار، عندك خبرة في البناء، أنت من سيبنيه.

قلت بسرعة:

السور فكرة سيئة، قد يصعد عليه ولد شقي أو سارق فيقع المحظور، ولكن عندي فكرة أفضل من السور.

نظر لي اليه الكبير بفضول شديد فقلت ببطء.

سنبني ضريحا، مقاما....

....

مرة أخرى بدأ عم يحيى في طقوس لف سيجارة أخرى من سجائره المحشوة، قال موجها الكلام لي:

- بعد أن قابلت أباك أخذت على نفسي عهدا بأن أمنع عنها المكيفات والحبوب، هل تعرف أن في الثلاث سنوات التي مرت علينا بعد أن فتحنا تلك المقبرة وحتى التقيت بأبيك بلبعت وشربت قدر ما شربته وبلبعته في حياتي كلها لأنسى تلك الليلة المشئومة..

قال زياد ساخرا:

- وهذا الذي تلفه في التبغ يا عم يحيى، ملوخية؟

قال وهو يغمز لي بعينه ويبتسم بأسنانه الصفراء المعوجة:

- لا.. هذه نبتة طيبة يا ولد عمي، مثلها مثل اليانسون والكراوية، ولكنها أقوى.

قلت أنا في قلق:

- ثلاث سنوات؟، ما علاقة أبي المختفي من شهر واحد بما حدث معك، قبل ثلاث سنوات يا عم يحيى.

- علاقته بما تبقى من الحكاية يا غالي أبيك، الكلب.

صحت مندهشا:

- الكلب !!!

- آه، الكلب،كلب أسود يحرس تلك الحفرة في الأرض، لا يأكل ولا يشرب ويكاد لا ينام أيضا، بنيت فوق تلك الحفرة قبة كبيرة من السيراميك الأخضر بجدران من الطوب وباب حديدي عليه سلسلة وقفل حديدي في حجم رأس العنزة، مقام مفتخر لشيخ مغربي مسكين مات دون ثمن سوى وضع معلق.

بصورة مفاجئة غزا الضحك زياد الذي كان صامتا وأخذ يضرب كفا بكف.

- حكاية ولا ألف ليلة وليلة يا جدعان، سحرة ومشايخ وكلاب سوداء وكنز، أنت تستحق جائزة «أبو لمعة» في الكذب يا عم يحيى....

لم يغضب عم يحيى بل ابتسم كالمستخف بزياد وقال:

- سامحك الله يا ولد عمي، لو عشت لحظة واحدة في واقع ما حكيته لك ما صدك إلا السد العالي وأنت تزربح..

- طبعا طبعا.

ثم انقلب زياد كما بدأ جادا وفضوليا وقال:

- أنا واثق منه أن البيه صاحب المزرعة لم يتوقف أبدا عن محاولة الحصول على الكنز كل هذه الفترة.

فاطعتهما:

- ما علاقة المال الذي أعطاه لك أبي بهذه الحكاية الطويلة العريضة يا عم يحيى.

اصبر يا بني، اصبر، أبوك كان صبورا.

طمئنني يا عم يحيى أولا، هل أبي بخير، أنت قلت أنه كان صبورا، «كان» فعل ماض.

أبوك بخير طالما أنه بعيد عن العيون يا بني.

- لا أفهمك، ماذا حدث؟.. هل كان في خطر.

- لا..هو في أمان الآن...

ثم التفت إلى زياد متجاهلا قلقي وهو يجيب على كلامه:

- البيه صاحب المزرعة مات بعد مرور سنتين يا أ.زياد، انزلق في مغسلة السيارات، خرج من سيارته ليدور حولها مطمئنا على نظافتها، انزلق على الأرض الخرسانية المبللة وكسر رأسه ومات في لحظتها، عرفنا الخبر ونحن في المزرعة وأرسلنا الشاب الكبير لتقديم العزاء والوقوف مع ابنه، عندما عاد حكى لنا كيف كانت الجنازة، كثافة

الحضـور ومقرىء شـهير والأكواب الخزفية بالقهـوة الممزوجة وا...
فـي نهاية الحديث ذكر لنـا بحزن أن الإبن الصغير لم يحضر لمصابه...
المعزين في العزاء، قلت للشـاب الأكبر لابد أنه مريض فقال: لا يا ع...
يحيى، يقولـون إنه غادر إلـى فيلا المصيف ولـن يعود إلا بعـد انتها...
مراسم العزاء.

ولكـن الابن الصـغيـر لم يظل كل هذا الوقت فـي المصـيف، جاء بعد...
أن مر أسـبوع على موت أبيه وسـهر معنا، كان جلد ذراعيه متقشـرا بتـ...
من الملح والتعرض للشمس، أكلنا وشربنا الشاي وسجائر بانجو بسـبـ...
من قـبيل احترام ذكرى المرحوم أبيه، حاولت بكل الطرق أن أسليه ولكـ...
في نهاية السـهرة سـألني السـؤال الذي كنت أخشى الإجابة عليه منذ رأيـ...
وجهه في أول الليلة مقبلا علينا، سـألني وهو يشـير إلى القبة المغلقة: هـ...
لا يزال هناك يا عم يحيى.

هززت رأسي أن نعم.

سـأل: متأكد؟

أجبته: أحيانا أسـمعه وهو يعوي من الداخـل ويتخبط في البوابة كأ...
يحاول الخروج، وكأن طبيعته الكلبية تعود إليه من حين لآخر.

قال في أمل:

- لو فتحنا له الباب.

- لا لا، أبوك ما كان ليفعل ذلك.

، رحمة الله عليه، ترك لنا هذا الخازوق مغروسا في مؤخراتنا، فلا هو يقتل ولا هو يرحمنا من التفكير.

انت الذي ترحم نفسك بنفسك يا سعادة البيه، ما الذي ينقصك؟ انت غني، أنت وأخوك لديكما مال لا يقوم به الجراد لو كان أخضر، سيارات وبيوت ومزارع.

قاطعني الشاب الصغير في زهق وكأنه سمع هذا الكلام ألف مرة قبل ذلك:

ينقصني أن أصعد إلى العالم يا عم يحيى، نحن نعيش تحت الأرض، أنت لا تشعر بذلك لأنك ميت ومدفون، أما أنا فحي، في هذه الحفرة أتنفس وآكل وأشرب ولكني أعيش بين الموتى، هل سمعت عن أمريكا أو فرنسا يا عم يحيى، وحتى لو سمعت، أن تسمع غير أن ترى،هناك الأحياء الحقيقيون، الشوارع والمحلات والمقاهي والبارات، النظافة والتعامل وآدمية البشر المحفوظة والتقدم، هناك نعيم يا عم يحيى، نعيم...

سكت الشاب الصغير، سكت عم يحيى ولكن عندما نظر إلى عيني الابن الصغير عرف أن الحكاية لم تنته فصولها.

....

العلاقة بين الأخوين بعد موت أبيهما لم تكن في أحسن حالاتها، البيه الصغير يحب الإنفاق والسفر للخارج ويرفض الزواج والصداقات

الحميمة ويقول إن الإنسان يعيش حياة واحدة يجب استغلالها بالكامل، أما البيه الكبير فيحب الأرض والادخار لشرائها، يحب الدوران حول الأشياء حتى لو كلفه ذلك طيلة عمره، يقول إن ... العائلات مثل عمود فقاري، كل جيل يضيف فقرة ولكن فردا واحدا متهورا مثل أخيه يستطيع كسرها بضربة واحدة.

كان اجتماعهما على رأي واحد في حياة أبيهما يكاد يكون مستحيلا، وبعد موته صار الوضع أشد حرجا مما كان عليه، اكتشفا أن المال الذي تُرك لهما غير كاف إلا لتحقيق ما يرغب فيه واحد منهما فقط، صار الإرث كرنة واحدة وقلب واحد وكبد واحد يتقاسمانه كتوأم سيامي ملتصق، إذا عاشا معا عاشا مختنقي الأنفاس وإذا انفصلا ماتا على الفور.

بعد ثلاثة أيام جاء الأخ الكبير واطمأنَّ على الوضع في المزرعة وسأل هل جاء البيه الصغير إلى هنا قبلي فأخبره الشاب بزيارته، حذرهم أن التعاملات لابد أن تكون من خلاله هو، بيع السمك وشراء الزريعة والجار والعلف، ومرتباتهم وأكلهم ومواصلاتهم عليه هو، أما صنف الحشيش فترف الأيام السابقة التي لن تتكرر بعد موت البيه، يكفي الذنوب التي ذهب بها إلى العالم الآخر جراء هذه السُّنة الزفت التي استنها فينا، من أراد أن يشرب ففي غير وقت العمل ولن يتحمل هو التكلفة.

دار في المزرعة دورتين يتفحص كل شيء ويسجل مفردات كل ما يراه في أوراق دفتر صغير دسه في جيبه قبل أن يناديني، ذهبت إليه فسألني دون أن أن ينظر ناحية القبة الخضراء اللامعة:

– هل لا يزال الكلب هناك؟

أخبرته بما أخبرت به البيه الصغير ولكنني لم أخبره أنه سأل نفس السؤال، دار بيننا حوار قريب من الحوار الأول ثم انصرف.

لم يعد الذهاب إلى البيت الكبير ترفا يتسابق عليه الشباب الثلاثة، .ل تحول إلى كدر يهربون منه ومن أسئلة الأخ الكبير المتفحصة الخانقة التي تمتلىء بالتهديد، كان كل واحد فيهم يذهب مرة بالتناوب ومن وصفهم وحكاياتهم كنت أرسم صورة عما يحدث هناك، البيه الصغير الذي يصطنع زوابع مستمرة لتكدير جو البيت، بداية من استضافته لشاب فرنسي معه في غرفته، شاب له شعر أصفر وعينان ملونتان وشنطة ظهر أكبر من جسمه النحيل كله، يستقدم له البيه الصغير أكلا مخصوصا غاليا من مطاعم فخمة في المحافظة، علاوة على الزجاجات الملونة التي لم تكن مجرد بيرة ولكنها خمور غالية، بالرغم من ذلك لم يكن يظهر عليهما سُكر، بل كان يصحبه للتفرج على معالم قريتهم وكأنه يتجول به في متحف كبير دبت فيه الحياة..

رأينا هذا الخواجة الصغير ذات يوم، أتى إلى المزرعة واحتفى الرجال بقدومه بسيل من الشتائم المليئة بأسماء الأعضاء الذكرية والأنثوية وكان هو يرد عليهم في ابتسامة (شوكرا شوكرا) بينما يزداد وجه البيه الصغير احمرارا خجلا من كلماتنا.

أكلا معنا سمكا مشويا على الفحم وشربا صنف الحشيش الممتاز الذي أتى به البيه الصغير معه، ثم أخذه البيه ليرى المقام، دار حوله دورتين، نزل على ركبتيه وتفحص التراب وشمه بين أطراف أصابعه ثم

أمسك قضبان البوابة الحديدية ودس رأسه بينهما ومكث طويلا هنا حتى تعتاد عيناه على الظلام، ثم أدار رأسه لليه الصغير ورطن بشيء، فجاء إلى ناحيتي:

- افتح البوابة يا عم يحيى.

هززت رأسي:

- لا يا سعادة البيه، لن أفتحها.

قال مهددا:

- بقولك افتحها.

- لو خرج البيه الكبير بنفسه من مقبرته، أبوك، لرفضت أن أفتحها له.

أدار وجهه وصرخ في أحد الشباب أن يفتحها هو فأجابه:

- المفتاح مع عم يحيى يا بيه، البيه الكبير الله يرحمه هو الذي أعطاه له.

- إذا لم تفتحوا الباب سأكسر القفل.

- براحتك يا بيه، أملاكك وأنت حر التصرف فيها، لكن الأمانة لن أفرط فيها أبدا.

انطلق البيه الصغير غاضبا في الأرض بشكل عشوائي يبحث عن شيء يحطم به القفل، عثر على حجر أبيض فانحنى والتقطه، ذهب إلى البوابة وضرب به القفل فارتدت قوة الضربة إلى ذراعه فأسقط الحجر

أوها، جرب عدة مرات والخواجة الفرنساوي يراقبه مندهشا، قال أحد
مال هامسا في سخرية:

امامه سنة كاملة يأتي ليعمل معنا ليستطيع كسر هذا القفل بهذا الحجر.

لو أعطيته الجاروف لاستطاع بعد شهر واحد.

كان الرجال يتراهنون على وهن اليه الصغير ويتسمون في أكمامهم، الضربة القادمة سيسقط منه الحجر مرة أخرى، بعد كم مرة سيمل من المحاولة ويتعب.

صاح الخواجة بشيء فتوقف عن المحاولة، رد عليه اليه الصغير وهو يشير إلينا، رطانته معه قريبة من السب، أعرف أن الخواجات لا تتغير وجوههم عندما يسبون، يسبون أو يستمعون للسب وكأنهم يتأملون منظرا طبيعيا خلابا، لكن وجوهنا نحن تتغير، نحن نتأثر بأي شيء، لا أعرف أهو نضج زائد عن اللازم أم عدم نضج، انصرف الاثنان ولكن ليس بالمزاج الذي أتيا به، المختلف أن الخواجة التفت إلينا وأشار لنا محييا (شوكرا شوكرا) لكن الرجال لم يكن لديهم مزاج لتحيته كما استقبلوه.

قال الشاب الصغير:

- سيغضب أخوه الكبير بشدة إذا عرف أن الخواجة أتى إلى هنا.

- ومن سيخبره؟

- سيعلم سيعلم.

- ما الذي كان يريد الخواجة رؤيته في المقبرة.

قلت في سخرية:

- لا أعرف، ربما كان يريد أن يتفاهم مع الكلب على الخروج، إنهم يتعلمون تلك اللغات عندهم.

قال في جدية:

- إنهم يقرأونها يا عم يحيى، لا أحد في العالم يستطيع أن يتحدث كما كان الفراعنة يتحدثون، لغتهم ماتت، الحروف هي ما تبقت.

قلدته في جديته:

- ربما يريد أن يتحدث معه بالإشارة، يكتب له في ورقة ويريها له.

انتبه الشاب فجأة إلى ابتسامتي.

- أنت بتسخر منا يا عم يحيى.

- وأنت اللي بتعمله دا كنافة يا روح عمك يحيى.

تضاحكنا طويلا بقلب صاف ثم قلت:

- دعنا نتكلم جد، لعل الخواجات يعلمون أكثر مما كان يعلم الساحر المغربي، الجن يهرب منهم، هل سمعت أن أحد الخواجات به مس أو أن الجن خطفه كما يحدث عندنا.

- عندهم أطباق طائرة وكائنات من الفضاء، كل واحد عنده اللي يكفيه.

الشيء الذي أثق في حدوثه أن هذا الباب لو فتحه أحد لن يمر الأمر سلام.

لا أعرف من أخبر البيه الكبير بما فعله أخوه الصغير بهذه السرعة الفائقة، جاء مع غروب الشمس ودون أن يلقي السلام على الرجال الذين وقفوا احتراما له ذهب رأسا إلى المقام الأخضر، تفحص القفل والحجر الملقى على الأرض، جاء مباشرة إليَّ ومد يده.

هات المفتاح يا عم يحيى.

ليس معي يا سعادة البيه.

- أعطاه لك البيه، أنا أعرف، رأيته بعيني وهو يعطيه لك.

- أعطاه لي لأخفي زفرته يا سعادة البيه، قال لي إرمه في مكان لا يصل له أحد.

- أين رميته؟

- في أحواض السمك.

دار وأشار إلى الأحواض:

- أي حوض منها؟

- لا أتذكر، كان هذا من وقت بعيد، الأحواض جُففت وحفرناها أكثر من مرة، لابد أنه اختفى مع الطين أو أكله الصدأ.

قال أحد الشبان الثلاثة:

- أو أكله سمكة بلطي.

نظر البيه الكبير إلى قائل العبارة من الشباب محاولا أن يلمح في عينيه أي بوادر سخرية ثم هتف مشيرا إلى المقام:

- سأكسر القفل إن لم تعطني المفتاح.

- اكسره يا بيه، أملاكك وأملاك أخيك وأنت حر فيها.

وكأنني دلقت كوب ماء بارد على جمرة غضبه وتمره المصطنعه، وكأنه يتنبه لأول مرة إلى وجود أخيه شريكا له بالنصف والذي يستطيع أن يثير زوبعة كبيرة في موضوع المقام، انصرف سريعا في سيارته ثم عاد بعد ساعة تقريبا ووضع قفلا كبيرا جديدا على السلسلة الحديدية مرادفا للقفل القديم وانصرف دون كلمة واحدة..

....

- الأخبار التي يحملها الشباب من البيت صارت أكثر سخونة، أسرع تلاحقا، وأصبحت هي حديثنا اليومي، البيه الكبير اقتحم غرفة البيه الصغير في غيابه، وبعثر ما فيها مفتشا عن أشياء تُدين الخواجة بالمؤامرة التي افترضها، الخواجة يريد سرقة الذهب من المقبرة، عاد البيه الصغير من الخارج واكتشف الأمر، علا صوتاهما في نقاش حاد انتهى بتهديد البيه الصغير بأنه إن لم يتوقف أخوه عن تصرفاته تلك فسيذهب هو وضيفه للإقامة في أي فندق ويرفع عليه دعوى إرث ويضعه حيث

.ا.ب.، وهو تقسيم الأرض والعقار بينهما، هذه التهديدات أتت بثمارها .ربما أسرع مما تخيل أي أحد منا، تساوت كفتا الميزان ومثل أخيه ابي أيضا اليه الصغير ووضع قفلا آخر، وساد الهدوء لأيام طويلة...

أجمل ما في وقت العصر والصباح الباكر هو صعود السمك إلى سطح .ـاء صفوفا يفتح فمه ويغلقها يغترف من الهواء الخارجي وكأنه يؤدي .لاة الحنين إلى حياة اليابسة، يتميز العصر برائحة الماء الساخن وهو .د، الشاب الصغير رغم سخريته المستمرة ممن حوله يقول أحيانا كلاما امجز عن تكراره من شدة حلاوته، أنا لم أتزوج ولم أنجب لكن عندما اذكر في أولادي الذين لم يأتوا أجدني أفكر تلقائيا في هذا الشاب.

يقول وهو مستلق على قفاه:

أتعرف يا عم يحيى هذه الأقفال الثلاثة عمَّ تعبر؟ إنها تعبر عن مأساتنا في الحياة.

اي مأساة يا أبا العريف؟

- القفل الأول الذي وضعه اليه الله يرحمه وضعه لأنه كان خائفا، الثاني وضعه ابنه الكبير طمعا، لأنه كان يريد أن يحتكر الذهب لنفسه، والقفل الثالث وضعه أخوه الصغير لأنه ظن أن الخواجة هو الوحيد القادر على طرد الكلب وخوفا على ميراثه من أبيه، الشيء الذي يجمع بين الأقفال الثلاثة هو الطمع يا عم يحيى، الطمع هو شر كل شر.

- وأنت عندما اشتركت يا حبيبي لم تكن طماعًا.

قام واعتدل جالسًا في جدية لم أعتدها منه:

- نعم يا عم يحيى، كنت طماعا، وإلى الآن طماع، طامع أن هذا الذه الموجود تحت الأرض يكون ملكي وملكك، أصحاب هذه المقبر، هم أجدادك وأجدادي، ليسوا أجداد السياح ولا أجداد اليه الك والصغير وحدهما، ولا حتى أجداد المستفيدين من المتاحف، هل زرت المتحف يا عم يحيى مرة في حياتك، مستعد تدفع من جيبك م أجل أن تسافر وتتفرج على الآثار، نحن لا ندفع لدخول شيء هناك إلا للدخول إلى دورات المياه في مواقف سيارات الأجرة، وحتى هذ، حالها يقرف الكلب ويسد النفس.

قلت في تثاقل:

- أنت تقول كلاما مختلفا عن كل مرة، هل تتذكر؟... كنت أول واحد يضرب في الباب الرخام بعزم، ما الذي غيرك؟

- خجلان يا عم يحيى، رأيت الخواجة وهو هيموت لأجل يدخل المقبرة، فاهم هوا عايز يعمل إيه، مش خايف من الكلب مثلنا، وفاهم لغة ناس المفروض أننا اللي نعرفها بحكم الجيرة على الأقل مش القرابة، أنا متأكد الآن أني لو ذهبت للكلب وقتلته مش هيحصل حاجة، الجن حقيقة بس احنا اللي بنسلطه علينا، الساحر المغربي هو اللي ضخمه في عيوننا وعين نفسه لغايه ما قتله، اعطني المفتاح يا عم يحيى وأنا هطلعلك الكنز.

ادىرت قائما:

«د ا كل خلق يشتد يقول هات المفتاح هات المفتاح، المفتاح حجة الضعيف، المفتاح غشاء البكارة يا متجوز يا فاهم، البوابة هي تختة الجبان والمفتاح البشورة في إيده في سؤال صعب وطويل، أنت فاهم، بس مش هتقدر تعمل حاجة، هتخاف إن لو سمعك اليه الكبير هيطردك.

لو سمعني هيدخلني للكلب وبعدين يديني شوية ملاليم لو طردنه.

مش بقولك إنك فاهم.

قام هو وتمطع حتى طقطقت عظامه الفتية ثم قال:

اقعد أنت يا عم يحيى، سوف أمر على الأحواض بدلا منك.

في ذلك اليوم رأيت ما لم أره من قبل، رأيت الشاب الأصغر وهو يدور حول المقام قليلا، ثم دس رأسه في فرجة من فروجات البوابة الحديدية، ومكث رأسه هناك قريبا مما مكث الخواجة الفرنساوي، ثم وكأنه يجرب خدعة من خدع صدى الصوت صاح وعوى مثل كلب، اضطرب قلبي حتى كدت أسمع دقاته في أذني، ثم صاح وعوى مرة أخرى ولكن الكلب لم يرد بعواء مثله، وعندما عاد لم أكلمه ولم ألمه، فعلى وجهه كانت ملامح الانتصار لا توصف.

....

كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها الخواجة الفرنساوي، لم يأ مع البيه الصغير، بل أتى مستقلا سيارة أجرة حاملا شنطة كتف صغير، وحذاء رياضيا وكأنه ذاهب إلى رحلة مدرسية، قطع المسافة في سر ه وكان يلتفت خلفه كأنه يتوقع أن يتبعه أحد.

- سالامو عليكوم.

قالها مبتسما وكأنه يفاجئنا بكلماته الجديدة التي تعلمها، رد عليه الرجال الثلاثة بما تيسر لديهم من ألفاظ السب حتى أسكتهم الشاب الكبير: عيب يا رجاله ضيف يرضك.

أشار لي الخواجة أنه يريد أن يكلمني بينه وبيني، فقلت له لا، هززت رأسي وأشرت للرجال وأنا ثم أشرت بأصبعي علامة الواحد فسارع الشاب الصغير مترجما: one وان وان، كلنا واحد، لا يوجد سر بيننا.

ضحك الرجال على لغته التي يمطها وكأنه يحاول أن يقلب اللغة العربية إلى لغة الخواجة بالتنويم المغناطيسي، ولكن الخواجة فهم رغم ذلك واضطرب لذلك الفهم، هرش في رأسه ومن الشنطة الصغيرة على كتفه بعد تردد طويل أخرج رزمة من الدولارات ومدها إليّ، مشيرا إلى البوابة وهو يقول: اوبن، افتح، هززت رأسي وقلت:

- لا يا خواجة، الأمانة أمانة..

إذا كان هناك شيء تعلمته من المعمار غير أن الأسمنت يجف بسرعة فهو أن الأمور تتطور بسرعة أسرع من جفاف الأسمنت، تتطور

، صل لكارثة، أعلم ذلك بيقين لمسته عبر جثث اثني عشر رجلا أنا من مملهم إلى الموت، ماتوا تحت أنقاض عمارة طلب المهندس هدم أحد أعمدة الجراج فيها ليتسع لدخول سيارة ليموزين لزبون مهم، بعد ذلك دانوا يقولون المعلم يحيى يطلب شغلا بالمسطرة، المعلم يحيى ناقص ،صمنا على الرسم الهندسي، المعلم يحيى يخاف من الشغل، ولكن لا هذا ولا هذا، الأمور الكبيرة تبدأ بتفاصيل صغيرة..

ظهرت خيبة الأمل على وجه الخواجة جلية وهو يكرر الطلب فأرفضه ثم يعيد المال إلى شنطة الكتف، ولكنه لم ينصرف على الفور، جلس دون ضيافة وشرب الشاي الذي صببناه له ثم أخرج زجاجة ماء معدنية فتمضمض بها من صبغة الشاي في فمه فتضاحكنا لحركته، لماذا يفترض الأجانب أنهم عندما يشربون ما نشربه رغم عدم استلذاذهم بالأمر يعطيهم هذا خطوة إضافية داخل نفوسنا، يتوددون إلينا بذلك، ألا يعلمون أننا نأكل ونشرب معا ولا يمنعنا ذلك من أن يخون بعضنا البعض، وكأنه كان ينتظر الضحكة، أخرج من شنطته موبايل كبير الحجم ثم وقف وتوجه إلى المقام، قام بتصوير المقام من زوايا كثيرة ثم مد يده داخل المقام من خلال البوابة والتقط عدة صور أخرى، ثم انشغل بشيء جعله ينكفئ لوقت طويل على شاشته..

كنا منشغلين بالتفرج عليه عندما انحرفت السيارة المألوفة لنا من على الأسفلت ونزل منها اليه الكبير مندفعا وهو يصيح، لم ينبهنا لوجوده إلا صيحته: أمسك أمسك، فانتثر الرجال من جلستهم واندفعوا نحو

الخواجة في اضطراب بالغ وجذبوا منه التليفون الذي تشبث به كثيرا في اندهاش وهو يحاول أن يمرر أصابعه على الشاشة التي تعمل باللمس وقيدوه من خلف ذراعيه..

عندما وصل اليه الكبير إلى كتلة الشباب الملتفة حول الخواجة سارع وجذب التليفون من أيديهم، لا أعرف ما الذي أغضبه بشدة وهو ينظر إلى شاشته، ما الذي يمكن أن تثبته تلك الصور التي أخذها الخواجة، جذب شريحة الخط بأظافره في سرعة ورماها في وجه الخواجة في احتقار شديد فسقطت تحت قدمه وعلى طول ذراعه ألقى التليفون في أحد أحواض السمك، هلع الخواجة لدرجة جعلته قادرا على أن يفلت للحظة من أيدي الرجال الأخطبوطية قبل أن يعيدوه، دار حوار من طرف واحد، الخواجة يتكلم بالفرنساوي بسرعة واليه يتكلم بالعربي، الخواجة يشير إلى المقام في رجاء وغضب مهذب واليه الكبير يقول له سأدفنك هنا أنت ومن أرسلك، سأدفن أخي معك إن لزم الأمر...

أمر الرجال فحملوه إلى السيارة حملًا، عاد الشاب الصغير مسرعا وبحث في الأرض عن الشريحة ولحقهم قبل أن يدير اليه الكبير سيارته وانحنى ليعطيها للخواجة ولكنه لم يقل له وهو يأخذها: شوكرا شوكرا، نفس الشابين اللذين ذهبا مع أبيه عندما أخذ الساحر المغربي، لكن هذه المرة كان متجها للناحية التي لم يتجه لها أبوه، كان متجها به ناحية المحافظة القريبة..

....

يوم السيارات، وكأن مولد شيخ المقام انعقد ولن ينفض، ينصرف ا.. ه الكبير مع الخواجة فيأتي البيه الصغير من الناحية الأخرى للأسفلت ، ي سيارة صغيرة استطاع أن يمر بها من الطريق الترابي الصغير بين الأحواض حتى يصل بها إلينا دون أن يترجل منها ثم يفرد طوله عندما ..زل وينظر مُعجبا إلى إطاراتها ويأتي تجاهنا ملقيا السلام، يسأل وهو ،نـير حوله: أين البقية؟ يفتح الشاب الصغير فمه ليتكلم ولكني أمسكت ..،ه وضغطت عليها لأسكته ثم أخبرته كاذبا أنهما انصرفا منذ نصف ساعة لبعض شئون المزرعة...

يذهب ليطمئن على القفل الخاص به ثم يعود مليء الوجه بابتسامة واثقة، ويجلس إلى جوارنا، نبارك له على سيارته الجديدة، ويسأله الشاب في فضول مصطنع: أين الخواجة؟

رد في لامبالاة:

- ذهب إلى بلاده، سافر اليوم، صحا مبكرا جدا وأخبرني أنه حجز طائرة العودة، الناس دي بتقرر وتنفذ في لحظة واحدة مش زينا.

كدت أن أخبره بما فعله الخواجة منذ قليل ولكني لم أفعل، ليس اشفاقا عليه، ولكن لانعدام الفائدة من إخباره، كان ظهره إلى الأسفلت البعيد عندما أتى الشابان الآخران في سيارة البيه الكبير، توقعت أن يقيم البيه الكبير حفلة سب ولوم علينا بسبب ما حدث بيننا وبين الخواجة ولكنه انصرف على الفور بمجرد رؤيته للسيارة الخاصة بأخيه الصغير.

ظل البيه الصغير معنا طيلة النهار، أرسل فأتى لنا بطعام وسجا
على حسابه، لم يأكل معنا ولكنه أتى على علبة سجائر كاملة وحده، ا
يكن يشرب بل كان ينفخ، يسحب أنفاس السيجارة بعنف وكأنه يود ا
يشعل حريقا مصغرا في صدره، ولكن الدخان لا يصنع الشرر ولو كا
في صدرك أكوام من القش، نظر الفتى إلينا وكأنه يغالب التردد ثم الق
بمفاجأته قائلا:

- طبعا أنتم لا تعرفون أنكم تمشون وتنامون يوميا على كنز لا يقد
بثمن.

- نعرف.

- ليس كما أعرف، الخواجة أخبرني بكل شيء.

عرض علينا أن نتقاسم الكنز سويا مقابل أن نتكتم عليه ونعاونه في فتح الباب، هو يعرف خواجة آخر يراسله على الإنترنت يستطيع أن يفتح هذا الباب بمعاونته في أقل من يوم، سيسرق مفتاح أخيه الطماع، وستعطيني المفتاح الذي معك يا عم يحيى، ومفتاح القفل الثالث معي، سأكون حريصا على أن ينام أخي في الليالي التي سنعمل فيها، سننبش المقبرة ونتقاسم ما فيها ولا من شاف ولا من درى، ثم نعيد الأقفال إلى مكانها.

- لا تردوا الآن، فكروا جيدا.

قام واقفًا وسوّى ملابسه، ركب سيارته وأشار لنا قبل أن يغلق بابها، وتنطلق مع أول زمجرة لموتورها أغنية صاخبة تكاد تحطم الزجاج إلى شظايا..

- ما رأيك يا عم يحيى؟

قالها أحد الشباب، لا أعرف من هو، لم أكن أنظر ولم يكن بالي معي لأميز الصوت، قمت من مكاني وأنا أقول كأن بي مسًا: رأيي؟.. كررت الكلمة وأنا أتوجه ناحية الكشك، تحت الكنبة التي أنام عليها نزلت على ركبتي وحفرت، أخرجت المفتاح ملفوفا في قطعة من الخيش، ثلاث نسخ.

رأيي؟

أخرج من باب الكشك وأنا أقولها، أسير بين الأحواض فيتبعني الشاب الصغير فأهتف به بصوت خشن أهدده: ارجع فيعود، الظلام مكتمل ولكني أعرف طريقي مغمض العينين، أرى التماع المفاتيح وهي تتقلب في الهواء وتسقط في الماء، واحدا واحدا، عندما أعود إلى الشباب أخبرهم: هذا هو رأيي، من أراد المفاتيح فهي هناك.

....

- وعندما كنت أنظر إلى المقام لا أستطيع أن أخلع عينيّ من عليه لأن كثيرا ما كانت الخواطر الغريبة تتملكني، ليست أقل غرابة من المغزى الذي اخترعه الشاب الصغير للأقفال الثلاثة، خاصة عندما يأتي أحد

الغربـاء المارين في الطريق، عرباوي يسـوق غنمـه، مزارعين يبكر
إلى أراضـيهم ببهائمهم، بهوات يمرون في الطريق الأسـفلتي مسافر
إلـى مدنهـم.... يقطعون سـيرهم عندما يـرون القبة الخضـراء، يأت
ويسـألون: أيـن الجامـع؟ فأجيبهم: ليـس جامعـا ولكنه مقـام ولي.
أوليـاء الله الصـالحيـن، إن أردت فصلّ معنا، نفـرش ونتوضأ ونصلي
منـذ بُني المقـام وأصـبح من النـادر أن نهمل صـلاة أو نصليها فرادى
يصلـي بنا الشـاب الكبير في ظل المقـام وبعد أن تنتهي الصلاة يسأله
الغرباء: ما كرامات الشـيخ صـاحب المقام؟

فيشير الشـاب إلى ناحيتي وهو لا يخفي ابتسامة واسعة لا يمنعها من الانفجار في الضحك إلا تكرار السؤال:

- اسألوه، فهو خادم المقام.

وكنـت أجيبهم بأشـياء مبهمة من قبيل ما كنت أسـمع في طفولتي في الصعيـد عـن الأولياء، طـار في الهـواء، وضـع منديلا على سـطح الماء وصلّى، أشار إلى طائرة من طائرات العدو بأصبعه فأسقطها..

وكنـت بعد أن أحكي هذه الكرامات فأدهش الناس أعود فأندهش من نفسـي، أنـا رأيت بعيني كرامـات كثيرة في عملي ولكننا لم نكن نسـميها كرامـات، رأيت عاملا يسـقط من مـكان عال كاف ليميتـه فلم يصبه أذى وقـام يجري، رأيت من نجا من الأنقاض حيـا دون خدش بينما مات من كان فوقـه فـي التنقيـب، رأيـت من تقطـع أيديهم وسـيقانهم في حوادث عمـل، وهؤلاء عادوا إلى أعمالهم دون ذرة يقين زادت في قلوبهم، ربما

... اليقين أكثر في قلب من كان يسرق أحذية المصلين أو من تصيبه ... رة القاتلة على عاهرة أن تؤجر نفسها للرجال فيعطيها من جيبه ما ... ول به أطفالها لكيلا تضطر إلى الزنى، تدور في رأسي الحكايات كما ... ور الرحى بدون قمح فتطحن ما عشت عليه طيلة حياتي مقتنعا بصحته، ... داني كنت أعمى لا أبصر، كان الناس يقولون لي بعد أن بلغت الأربعين: ... وج يا عم يحيى، الزواج نصف الدين، فأسألهم وما النصف الآخر، فلا أحد منهم إجابة واضحة، فأعلم أننا نرمي الكلام في الدين كما يرمي لاعبو الورق أوراق الولد، لكي (نقش)، لكن ما قيمة الولد الذى (يقش)، لا أعرف، كل هذه الكرامات لكي (نقش)، لكن ما قيمة الورقة التي أرميها بالنسبة لي، حكى لي من حكى أنهم رأوا سحرة ينشرون الناس بالمناشير ثم يقيمونهم جزءا واحدا، ورغم ذلك يشاهدهم الناس من قبيل التسلية ولم يقيموا لهم مقاما بعد موتهم، إذن لابد أن هؤلاء الأولياء قاموا بما هو أكثر من كل ذلك، شيء سهل ولكننا نعجز عن فعله، عندما كنت أرى المقام بأقفاله الثلاثة والشمس تلتمع على قبته الخضراء أفكر في أن أقول للناس الذين يسألون عن كرامات الشيخ:

- هذا الشيخ لم يطمع في حياته أبدا ولم ينظر إلى ما في أيدي غيره، هذه كرامته: أنه لم يطمع وأحب الجميع.

ولكني أرى الناس في خيالي عندما أخبرهم بذلك يضحكون ساخرين مني ويقولون: كلنا كذلك، لم نطمع... فتراودني أفكار جنونية، أن أقيم فوق هذا المقام «يافطة» تقول هنا كنز، هنا مقبرة ذهب، إما أن تموت

أو تصبر غنيا، عندئذ سيعلم من قال إنه لم يطمع كيف يقتتل الأخوا
على كنز مُهلك.

وكنت أسأل نفسي، لماذا لا يتذكر الناس صالحيهم ويتبهون إليه،
إلا بعد أن يموتوا فيقيموا لهم مقامات الموتى، لماذا لم يجتمعوا حوله
في حياتهم و بدلا من أن يتناقلوا كراماتهم يفعلون مثلهم، أليست السماء
مفتوحة للجميع؟ لماذا لا تتحول تلك المقامات إلى صوامع لعُباد
يعلمون الناس كما ينبغي وكما يصنع الرهبان في الأديرة؟

....

ولكني لم أجد إجابةً على أسئلتي الكثيرة إلا بعد أن رأيت أباك
يا مصدق بعيني، وتحدثت معه، وعرفت أن الكرامات في الدنيا مثل
الكنوز يقتتل عليها الناس فإذا مات صاحبها عادوا إلى رشدهم وعرفوا
أن القيمة ليست في اللون ولا البريق وإنما في الندرة والخامة.

ذات يوم أتوا به محمولا مقيدا مكمما، وضعوه في الكشك الذي
أقمت فيه، على الكنبة، تركوه لي وخرجوا، عجوزا في مثل سني،
ساعدته على الجلوس وسقيته، منذ اليوم الذي ألقيت فيه المفاتيح في
حوض السمك لم أعد أخرج من الكشك الخاص بي إلا ليلا أو لعمل،
لذا بقيت معه محاولا أن أتجاهل وجوده، لم ينطق بكلمة ولم أكن
راغبا في الحديث معه، ولكني أتذكر المرة الأولى التي تمعنت فيها في
وجهه، كنت جالسا على الأرض عندما عبر شعاع الشمس خلال كتفيه
ولحيته الخفيفة البيضاء وبدون أن أشعر وجدت نفسي على سطح دارنا

ي ذلك اليوم من طفولتي الذي أبصرت فيه تلك الحمامة، كنت طفلا ...افيا، أسعى خلف ساقي أختي الكبرى أحمل عنها الملابس المُنشرة ... تجمعها من فوق أحبال الغسيل، تضعها بين ذراعي اللتين ضاقتا عن حملها فلم يعد من وجهي إلا فرجة من بين تلك الملابس أتنفس منها وأبصر، من هذه الفرجة رأيت الحمامة فوق برج الحمام هناك، لم تكن ...به حماماتنا ولا أية حمامة أخرى من حمام الجيران، كان لها تاج ملون من الريش على رأسها يضوي بألوان الطيف كلما التفتت برأسها رغم أنها كانت في الظل، صحت وأخبرت أختي بها ورميت لها الملابس لأصطاد الحمامة، قذفتها بالطوب فمر الطوب من خلالها ولم يفزعها، أتيت بعصا طويلة وحاولت أن أدفعها بها ولكن العصا تقاصرت عنها، قالت أختي تحذرني: يا يحيى لا تؤذها، إنها حمامة هاربة من الجنة، ولكني لم أسمع كلامها، تسللت صاعدا على المخروط المبني من الطوب اللبن متشبثا بأعواد الخشب البارزة التي يقف عليها الحمام، حاولت أن أمسكها ولكنها طارت، علقت قلبي بخيط وطارت فجذبته معها، جذبته وجذبني خلفه من فوق البرج فلم أدر إلا بصرخة أختي تدوي خلف جسدي وهو يطير من فوق سطح دارنا، ولم أسمع صرخة أختي إلا بعد أن اختفت الحمامة في السماء ثم غابت عني الدنيا.

....

أقبل الليل ولم نشعر به، أنا وزياد بينما عم يحيى يحكي، ابتسمت قائلا:

- لم ير أبي أي أحد إلا أحبه.

سألت عم يحيى:

- كيف أتوا به إليكم يا عم يحيى، وماذا أرادوا منه؟

- أنت من سيجيبني على هذا السؤال، كيف اختفى أبوك؟ كيف ترك البيت؟ ثم أخبرك ببقية حكايتي.

....

بعد أن ماتت أمي تكفلت زينب زوجة خليفة بأمر خدمته، كانت تملك من الإلحاح والصبر الجميل ما يجعلها تتوافق مع طباع أبي الغريبة، الطعام يتم تبديله في أوقات الصلوات فقط لأنه لم يكن يسمح مع شكوكه الزائدة عن الحد بتواجد أحد معه، بدقة تصل إلى دقة جراح ماهر يستأصل ورمًا خبيثًا مختبئًا كانت زينب في الدقائق التي يذهب فيها أبي للصلاة تتعامل مع عالمه الخاص المتمثل في غرفتين فقط محتفظًا بسر مشهد غرفته الخاصة الثالثة التي كان يغلقها بمفتاح يحتفظ به معه ويترك لها بقية الغرف مباحة، لدرجة أن (النكتة) كانت تقول إن زينب تأخذ الهواء الذي تنفسه أبي وتنفضه من التراب في الخارج ثم تعيده بحرص إلى مكانه مرة أخرى.....

اعتكاف أبي في غرفته أو ذهابه للصلاة ظل أمرا غيبيا لزينب، فقط تدخل وتخرج منفذة واجباتها بدقة في الوقت المتاح لها دون أن تحاول أن تستكشف ما خلف الباب، فقط عندما يسعل أبي تعلم أنه بالداخل فتفر بسرعة، وعندما لا يُمس الطعام يكون التفسير الوحيد أن أبي قد تأخر في الخارج من وقت الصلاة إلى وقت الصلاة التالية، في هذا اليوم

ا ل مختفيا طيلة نهار كامل، بدأت زينب تلتقط مفردات غيابه من بعد الظهر بقليل، صينية الطعام التي وضعتها له أعادتها كما هي عدا البرودة في طالتها، ولأن طعام الإفطار لم يُمس أيضا مما تسبب في ارتباك ... لدرجة أنها لم تنتظر حتى يعود خليفة من الخارج وأتت لتدق على أبي بعنف وفزع، ارتديت ملابسي مسرعا ونزلت معها..

دققت على الباب بعنف متصاعد لا يستطيع احتماله نائم حتى لو كان ... ربما، أتى خليفة ثم مؤمن، كانت لدينا خطة بعد أن تجمعنا أمام الباب، ... سلم المسجد الطويل وأسندناه على بداية الفتحة التي صنعها أبي ... خرا لتركيب شفاط هواء ولم يفعل، كان سرير أبي في الناحية البعيدة من الغرفة وعلى السرير ناموسية ثقيلة مسدلة دائما بطريقة لا تُظهر الراقد تحتها، تناقشنا حول إرسال أحد الأولاد الصغار عبر النافذة الضيقة، ولكن ماذا لو فوجىء الولد بما نخشى حدوثه، كيف سيتصرف ويبحث عن المفتاح مع الجثة الساكنة، ماذا لو لم يجد أحدا هناك وتعذر إعادته مرة أخرى فاضطررنا إلى كسر الباب وبالتالي إغضاب أبي، في النهاية قررنا الانتظار حتى الصباح ومن ثم كسر الباب.

أتى وقت الغروب، أسمع دقات خليفة بعد كل صلاة على باب أبي ثم انصرافه، لا أعلم ما بعثني لفعل ذلك، بعد أن غابت الشمس توجهت إلى مقبرة الجمال،ربما ذهب أبي إلى هناك حنينا إلى حياته القديمة، اقتربت من المكان الذي اعتاد أبي على الجلوس فيه، رأيت شخصا جالسا في الظلام، اقتربت منه وصحت:

- أبي؟

فسمعت صوتا هادئا ليس بصوت أبي:

- تعال يا مصدق، كنت انتظرك.

صرخت مندهشًا:

- الشيخ خليفة.

كانت أول مرة أرى فيها الشيخ خليفة منذ ماتت أمي، ظن الناس ا، اختفاء عادي مثل سائر اختفاءاته السابقة ولكن غيبته طالت، وكأنه ذه، معها، لم أره إلا في ذلك اليوم الذي ترك فيه أبي البيت مما أثار الشكوا في صدري ناحيته، سألته:

- أين كنت كل هذه الفترة يا شيخ خليفة؟

هز كتفيه في لامبالاة، فسألته وأنا أنظر حولنا في الظلام:

- هل رأيت أبي، هل مر من هنا وأنت جالس؟

- لا... ولكني كنت انتظرك هنا.

- هل تعلم أنني كنت آتيا للبحث عنه هنا؟

قال في ابتسامة أبوية:

- هل ضاع أبوكم؟

صحت فيه بعصبية:

- أجبني أولا يا شيخ خليفة، هل كنت تعلم أنني سآتي إلى هنا الآن، أم أنك اعتدت أن تنتظر الناس في أي مكان يخطر في بالك؟

ظرة واحدة من عيني الشيخ خليفة ردتني إلى صوابي، ما هذا الذي ام انه، هل آخذ عادات الشيخ خليفة الغريبة وشطحاته بجدية، طبطب ا ى الأرض بجانبه وقال لي: اجلس، وكأنه ربت على كتفي فجلست، م، وقال:

احك لي يا مصدق، ماذا حدث، ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت؟

رك أبي البيت منذ صباح اليوم ولم يعد حتى الآن.

قال في غير ما قلق:

سيعود، كان أبوك يسافر كثيرا ويعود، حتى بعد أن ترك تجارته بقافلة الجمال، لاتقلق عليه.

تأملت في كلماته قليلا، لماذا أنا قلق!

لماذا قلت إنك كنت تنتظرني يا شيخ خليفة؟

لن تصدقني إن أخبرتك.

قل وسنرى.

- أبوك هو من حدد لي المكان والوقت وأخبرني أن انتظرك هنا اليوم، قال لي عندما يأتي مصدق خذ منه ما تريد، فسألته ولماذا يأتي إلى هنا في هذا الوقت، رد قائلا: مصدق هو الوحيد الذي كانت أمه ترسله كثيرا إلى هنا ليبحث عني عندما تقلق عليَّ في غيابي، عند مقبرة الجمال.

قلت مبتسما:

- كان يعلم إذن عن إرسال أمي لي خلفه كل مرة.

- طبعا، أبوك كان يحب أمك جدا، ضحى من أجلها بشيء ثمين للغا،
لولا حب الرجال للنساء لهُدمت الدنيا كل يوم وبُنيت يا مصدق، ل
حب الرجال للنساء لفَنيَ الرجال في الحروب.

- كان أبي إذن يعلم أنه سيترك البيت اليوم.

هز كتفيه:

- لا أعرف، ربما، وإلا ما كان أرسلني.

- لم يخبرك إذن إلى أين سيذهب؟

- لا.... فقط قال لي ذلك ثم تركني.

تنهدت وقلت لأنهي الحوار العبثي:

- وماذا كنت تريد من أبي يا شيخ خليفة؟

- مائة جنيه فقط.

- مائة جنيه، صحت في تعجب، هز رأسه أن نعم.

- وماذا ستفعل بالمال يا شيخ خليفة، هل ستشتري به ملحًا مجروشا.

قال في ثقة:

- لا... بل سأشتري به كنزا وسأعطيه لك.

....

صاح زياد:

، هل أعطيته المال؟

طبعا، بل إنه رفض أن يأخذ زيادة عن المائة جنيه.

لم نستفسر منه عن الكنز الذي يود شراءه لك!

لا.. اعتاد الشيخ خليفة على الكلام بهذه الطريقة، امش معي يا مصدق وسأعطيك كنزا، قل خلفي: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، تعال معي يا مصدق وسأعطيك نفحة. بعد مشي طويل يتل فيه ظهري ينحني فجأة ثم يمد يده إلي بعد أن يمسحها في قماشة صدره: خذ يا مصدق، حبة توفياء وجدها على الأرض، يتقاسمها معي، خذ رزقا ساقه الله إلينا.

لم تشك أبدا أنه ربما كان الشيخ خليفة هو من اختطف أباك.

لو رأيت الشيخ خليفة ما قلت هذا أبدا.

قاطعنا عم يحيى بصوته الخشن ملقيا بمفاجأته المدوية:

لا أعرف ما شكل الشيخ خليفة الذي تحكون عنه، ولكن في ذلك اليوم أتى رجل غريب مع أبيك وكان أبوك يعرفه ويكلمه ويناديه بذلك الاسم الذي ذكرته: خليفة.

حتى الأستاذ زياد أخرسته الدهشة مثلي..

....

الفصل العاشر

هروب عم يحيى...

قال عم يحيى مستطردا:

بعد أن مر أسبوع على عرض البيه الصغير لنا أتى البيه الكبير وأخبرنا أنه نيابة عن نفسه وأخيه الصغير الذي نفض يديه من الموضوع سيتكفل هو بإخراج الكنز من المقبرة أو ردم الحفرة للأبد، واتفق مع الشباب الثلاثة على إعطائهم نسبة من الكنز مقابل معاونتهم له، قبل غروب الشمس بقليل أتى البيه الكبير واصطحب معه الشابين الأكبر والأوسط وبعد أذان العشاء بقليل أتت السيارة تحمل أباك مقيدا ووضعوه في الكشك، كنت قد هددت البيه الكبير أنه في حالة محاولتهما فتح بوابة المقام واستخراج الكنز فسأترك لهما المزرعة وأعود إلى بلادي، ولكن لدى رؤيتي لوجه أبيك يا مصدق قررت أن أظل حتى لو قاما بذلك..

تركته في الكشك مقيدا ومكمما وخرجت باحثا عن الشابين، ا
يأكلان بشهية بجانب زير الماء، لا يأكل بشهية إلا المذنبون أو فار
البال من الهموم، سألتهما:

- من هذا الرجل العجوز الذي أتيتما به؟

رد الأكبر والطعام في فمه:

- لا نعرف، كان معنا رجل آخر اصطحبنا إليه، رأيناه جالسا بجانب
موزع ماء ري على رأس حقل من حقول الأرز، نزل الرجل الذي
كان معنا وكلمه وأتى به دون مقاومة، ركب معنا السيارة وبعد أن
تركنا العمار خلفنا نزل الرجل الأول، ناداه العجوز كأنه فوجئ بنزوله
فلم يلتفت، حاول أن ينزل خلفه ولكن اليه الكبير قاد بسرعة والباب
مفتوح وصرخ فينا أن نغلق الباب ونكممه، ورغم أنه لم يتحرك مرة
أخرى أمرنا أن نقيد يده أيضًا..

- إذن اختطفتم العجوز.

قالا وهما يكفئان وجهيهما في الطعام:

- صلي على النبي يا عم يحيى، لا تقل هذا الكلام الكبير، الرجل ركب
معنا طواعية.

الولد يقش، صلي على النبي: عليه أفضل الصلاة والسلام والموضوع
ينتهي، ولكني لا أريد أن ينتهي الموضوع، أعود إلى الكشك، أفك
الكمامة عن فم أبيك يا مصدق، ولكنه لا يتكلم فضلا عن أن يصرخ،

. ظر إلى عيني مباشرة، قيد في يده وآخر في قدمه، كانت لديّ قناعة ... سبتها بالنشأة في الجزء الأول من حياتي وظلت معي طيلة عملي ... المعمار وهي أن لا أخفض عيني وأنا أحادث شخصا مهما كانت سلطته أ، مركزه، في صغري قوة شخصيتي كانت تكفيني وفي شيخوختي كِبر ... ـي كان يبررها، ولكن تحت ضغط النظرات المسلطة عليّ من ذلك العجوز انحنت عيناي ويداي لأفك قيد القدمين قليلا لعلي أخفف بذلك ... ن قساوة الحبال فسمعت صوته فوق رأسي يقول:

لا... اتركه.

استجبت بسرعة، القيد على أي حال كان فيه سعة.

بدون المكيفات يفقد العقل سيطرته على الأعضاء، نمت ليلتي كاملة على الأرض، في الصباح أتى الرجل الآخر الذي ساعدهم في اختطافه في سيارة البيه الكبير.

- صفه لي يا عم يحيى.

- رجل ما بين الخمسينات والأربعينات، لا شيء يلفت النظر فيه خاصة لرجل مثلي رأى آلاف الناس في حياته، رفع يده عندما مر على جلستنا كأنه يحينا، قام الشباب بإشارة من البيه الكبير ولكني ظللت جالسا، ذهبوا جميعا إلى المقام، أمام البوابة تبادل البيه الكبير وذلك الرجل الغريب المسمى خليفة حديثا خافتا، نادى البيه الكبير عليّ نقمت وذهبت إليهم، مد يده في الفراغ بيننا وقال آمرا:

- هات المفتاح يا عم يحيى.

- رميته يا بيه، أنا قلت لك.

- رميته بعد أن طلبته منك، أنت كذاب يا عم يحيى، رجل كبير السن وكذاب.

نظرت إلى الشباب في لوم وكأني أسألهم، من منكم باعني ووشى بي ؟ ولكنهم خفضوا جميعا عيونهم!!

شخط البيه الكبير فيهم:

- هات الفأس يا ..

أُتي بالفأس، بضربة واحدة مدروسة انكسر القفل الأول، أخرج البيه الكبير سلسلة مفاتيحه، فتح القفلين المتبقين، كان جذر البوابة مغروسا في التراب، بدءوا في إخلائه بالفؤوس ولكن من شدة تعجله طلب منهم البيه الكبير جذب البوابة عنوة، فُتح الباب، وهنا بدأ البيه يوزع أوامره، أمر الشاب الصغير أن يذهب إلى رأس الأرض ويرد المسافرين والمارين عن المجيء للصلاة عند المقام، وأمر الشاب الأوسط:

- هات العجوز.

انطلق الشابان، وقبل أن يصل الشاب الأصغر إلى رأس الأرض كان الآخر قد خرج ومعه العجوز، نظر البيه إلى الحبال المربوطة في يد أبيك وقال متسخطا:

- رباطكم كخيبتكم.

رد أحدهما في حيرة شديدة:

كان مربوطا أجمد من كدا.

تساءل اليه:

من دخل عنده بالأمس بعد أن انصرفت أنا، ألم تحرسوه؟

عم يحيى بقي معه طوال الليل.

نظر اليه إليَّ بنظرة غاضبة متشككة،ثم دار حوار بين أبيك وهذا الرجل المسمى خليفة، قال أبوك:

- ماذا تريد مني يا خليفة؟

- أنت تعرف ما أريد، طلبت منك أن تعلمني فلم تفعل.

- وأنا قلت لك إن ما أعرفه لا يمكنني أن أعلمه لأحد، هل يمكنك أن تطلب من الطير أن تعلمك الطيران، أو من الزواحف أن تخبرك كيف تزحف على بطنها.

- علمني الكلمات.

- يا مسكين، الكلمات لابد أن تُؤيَّد من خالقها، قل كُن وسنرى كيف يمكنك أن تخلق الكون بكلمة علمها لنا الله.

اندفع الآخر في تهور قائلا:

- لو علمها الله لي كما ينبغي لفعلت ولخلقت أرضا وسماءً خاصتين بي.

- لا تقـل الكفر يا خليفة، اسـتغفر ربـك، قل لهم أن يتركونـي ولن أ.
أحدا بما فعلته.

قال في يأس ممزوج بالحقد والغضـب:

- خلاص، فات الوقت.

صـاح اليـه الكبير في الشـابين أن يكمّما فم أبيـك وألا ينزعا كمام، إلا بعـد أن يبدآ في تدليتـه للكلب بحبل، لم أصدق في البداية ما يحدث. دفعه الشابان للداخل وأعادا تقيـد يديه وساقيه بعضهما إلى بعض، وربطا حول وسـطه حبلا غليظا ومرراه من حول كتفيـه وتحت إبطيه، لم أرهما وهما يدليانه للكلب ولكني سمعت زمجرة الكلب المتحفز، حاولت أن أدخل من البوابة فمنعني اليـه الكبير وظل ممسـكا بذراعي، خرج الشابان بسـرعة فـي فزع وحـاولا دفـع البوابة خلفهمـا لإغلاقها فصـاح الغريب والبيه في نَفَس واحد: لا اتركوها، تحولت زمجرة الكلب إلى نباح عال، في قلق سأل اليـه الرجل الغريب الذي كان كل تركيزه منصبا في البوابة.

- هل أنت متأكد؟.. قد يقتله الكلب كما قتل السـاحر.

- كما أنني متأكد من ظلي الذي أمامي.

ثم خفت صوت الكلب فجأة خفوتا واضحا، عندئذ ومن شدة ذهوله تراخـت قبضة اليـه على ذراعي فاندفعت داخلا مـن البوابة، درت حول شاهد المقبرة المزيفة في خوف شديد، وكانت مشاهد ليلة مقتل السـاحر

.م، بي تندفق إلى عيني مع نبضات قلبي فتؤلمها، نظرت، أسفل السلم ،ا، ام الباب الرخامي رأيت الكلب الأسود جالساً على صدره في ا. نان شديد، والرجل العجوز ملقى على درجة السلم السفلي حيث ''، ،، ليس بينه وبين الكلب مسافة تُذكر، مغمض العينين يتمتم بأدعية، ألت نفسي: هل هذه هي الكلمات التي طلب منه الغريب الآخر أن ،امها له، هل استكان الكلب له ولم يؤذه لمعرفته أنه لا مطمع له في اا ،دز أم بسبب الكلمات؟، رأيت الغريب يأتي ومن خلفه اليه، أطلا كما اطللت وارتد الغريب بوجه فيه انتصار عظيم.

هل رأيت؟

شيء عجيب فعلا، لم يمسه الكلب، ولكن هل سيُخرج الكلب.

هناك كلمات يقولها تجعل الحيوانات تهدأ وكلمات أخرى تسخرها له.

- إذن كيف سنجعله يُخرج الكلب.

- لقد قلت لك سأدلك على رجل يستطيع أن يفعل ولم أخبرك أن بوسعي إقناعه بالفعل، قلت لي وقتها إنك ستقنعه، فهو عنيد للغاية، طيلة سنوات حاولت أن أقنعه بكل الطرق أن يعلمني ولم يرض بذلك.

نادى اليه على الشابين وأمرهما أن يُخرجا أباك، حاولا جذبه ولكن الحبل عاندهما كأنه مربوط إلى هلب سفينة مغروس في الرمال، أمرني اليه أن أستدعي الشاب الصغير وأحل محله في الحراسة..

راقبت الموقف من بعيد، بعد قليل من وصول الشاب الـ ...
إليهم خرجوا يسوقون أباك إلى الكشك، لم يدخل معه إلا الع...
واليه الكبير، استغرقا وقتا طويلا حتى خرجا مرة أخرى، تحادثا ...
حمل الهواء صوت نقاشهما الحاد الزاعق إلى مكاني البعيد، ثم ...
البيه الكبير بشكل فجائي وغادر المزرعة، عندما مر بي قذفني بجز...
غضب عينيه، ولكني لم أهتم..

أشعلت إحدى سجائري وأنا أراقب الحدث دون رغبة في الذها...
إلى هناك، رأيت الغريب يجلس بجانب الكشك، أسند ظهره دون أ...
يُمكن لمقعدته من الأرض كما كنت أرى الفواعلية يفعلون في أما...
جلوسهم، وضعٌ فيه من التأهب للقيام أكثر من التأهب للجلوس، ثم قام
فجأة ودخل الكشك، عدت إلى المزرعة، كان الشباب الثلاثة جالسين
جلستهم المعتادة عندما مررت عليهم، أخذت سطل الماء من فوق الزير
بعد أن ملأته واتجهت به إلى الكشك، هذا العجوز منذ الأمس لم يأكل
ولم يشرب، عندما دخلت رأيت الغريب واقفا أمام أبيك الجالس على
الكنبة، لم يكن بينهما كلام ليقطعاه عندما دخلت، نظر لي الغريب نظرة
غائمة، فككت رباط العجوز ليتمكن من أن يشرب بيده، قال الغريب
وكأنه ينهي حوارا بدأ.

- إذن لا توافق على إخراج الكلب.

- لا... لو كان في إمكاني أن أفعل فلن أفعل.

فادر الكشك غاضبا بشدة، لو كان له باب لصفعه خلفه، بعد أن شرب
... مني أبوك مشفقا.

ضع القيد في يديّ حتى لا يطردوك.

ولكني لم أفعل، جلست في الناحية الأخرى من الكشك، بنفس الطريقة التي كان يجلس بها الغريب بالخارج، سألته في حيرة:

لماذا لا تُخرج لهم الكلب وتأخذ نصيبك.

قال في ثقة وثبات:

هل تغترف الطين بملعقة من الذهب أعارها لك ملك يراك حتى لو اختبأت منه.

الله غفور، ألم يعطها لك لتأكل بها.

لتأكل بها ما أمرك به. ليختبرك بها.

إذن لا تأخذ من الكنز شيئا، أخرجه فقط لتنجو، عشرات الكنوز في بلادي كان يكشف عنها الطوفان أو زلزال أو عاصفة شديدة.

- حتى العواصف أو الزلازل بأمر الله، لست مستعدا لتحمل الذنب، نحن ندخر الأموال في الدنيا لينفقها أولادنا بعد أن نموت ثم يحاسبنا الله عليها، فما بالك بكل هذا الذهب ومع هؤلاء الطامعين الذين لم يترددوا في اختطافي من أجله.

- أنا خائف عليك، قد يقتلونك.

- لـن يـستطيعوا أن يضروني، ولو استطاعوا فسيكون هذا مرادي،
متقبل للأمر، أنا خائف فقط من أن أفشل في اختبار من الله لي، ،
الباب الذي رموني عنده ملطخ بالدم ولن يفتحه إلا الدم أو الذنب
تذكرت عندئذ كلام الساحر المغربي.

....

بدايات الليل كنت أمكثها مع أبيك نتكلم كثيرا، ثم أتركه عندما أشعر
أن النوم بدأ يداعب عينيه، الصالحون يا بني ليسوا صنفا واحدا، لا
منهم تخجل من مصارحتهم بشيء ارتكبته في حياتك، هؤلاء يستو
هم ومن يسخرون منك أو يشهرون بك، حياة قاسية مثل التي عش
ستعلمك أن كل كلمة لها ثمن، أغنى الناس هم الصامتون والذين
يموتون مبكرا بسبب أمراض الكتمان، الرجل الصالح الذي لا تخجل
من مصارحته بما يخزيك هو من يستطيع أن يشفيك من آلامك، لأ
يفهمك، دارت أحاديث كثيرة بيني وبين أبيك، لم أخجل من أن أصار
بأنني منذ مراهقتي وحتى الآن لا أزال أحتلم حتى في سني هذا، قال لم
حينئذ مشفقا:

- تزوج يا يحيى، تزوج.

- في هذا السن؟ وبعد كل هذا الصيام الطويل، حتى لو رغبت في ذلك.
من أين أجد المال الذي سأتزوج به.

فيقول باسما:

- لو يسر الله لي وخرجت من هنا سأعطيك المال.

ﻓـ حـت عندما قال لي ذلك، للمـرة الأولى في حياتي يعرض أحدهم الا ملجأ دون مقابل ومن غيـر ذُل، فرحت لدرجة أنني لـم أتكلم حتى ..، ثم خرجت، كان الجميع قد ناموا عدا الشـاب الصغير، جلسـت إلى جواره فابتسم لي:

ادخل نام يا عم يحيى.

لا أنام في الليل.

است تنـام يا عم يحيى، تنـام حتى تشـخر، إن لك جفنا ثالثـا كالجمال والزواحف، جفن النوم، وأنت تنام بأعين مفتوحة كالقطط..

صدمتني كلمات الشـاب رغم إنها قيلت في سياق مداعبة لا سخرية، من بوادر الشـيخوخة أن تفقـد حواسـك حتى لـو اسـتطعت أن تضبط امضائك، لاحظت ذلك منذ شـهور، يكون الشـاب جالسـا إلـى جانبي الأيمن، بعد قليل أجده إلى جانبي الأيسـر، أسـأله متى تحركت فيبتسـم في غموض ولا يجيبني...

قـال لـي الشـاب الصغير إنه سـيدور فـي المزرعـة ليطرد النـوم عنه، راقبته، يدور بالكشـاف الذي في يده في الماء فيتخبط السـمك، السـمك لا ينـام، عمـره قليـل ولا ينام، يطفئ الكشـاف ويضيئه عدة مـرات وكأنه يداعب السـمك بالضـوء، ثم يضع الكشـاف تحت إبطه ويشعل سـيجارة، يقـف مع كل نفـس دخان يُخرجه عاليا في السـماء، انتهى من سـيجارته، أرى ذرات التبـغ تتناثـر عن العقب الذي ألقاه عاليا ليسـقط في الماء، ثم لم أعد أرى ببسـاطة.

....

عندما بدأت أرى مرة أخرى شعرت بألم في كتفي وعنقي، لم ا..
الشاب في الجهات الأربعة وكان قميصه بجانبي، لمحت ضوء الكشا..
في المقام، انتفضت، ماذا فعل المجنون؟ هل أنادي فأوقظ اله ..
هرولت إلى المقام ودخلت، رأيت الشاب ينزل السلم بحرص شا..
الكلب واقف متأهب للخطوة التالية، مع كل درجة ينزلها الشاب الصـ..
كما لو كانت تضيف عضلة إلى جسد الكلب فتجذب أوتار أعضا..
أكثر وأكثر، لم يعد متبقيا من السلم إلا درجة واحدة، وكان الشاب قر..
جدا من الكلب الأسود، أقرب مما كان العجوز، سمعته يقول بصو..
لا يرتجف:

- ابتعد عن الباب، لا أريد أن اؤذيك، ابتعد.

رأيت - وكأنني أحلم - الشاب وهو يمر بجانب الكلب، لكن الكلب يظل على تحفزه ينظر أمامه، لا ينظر إلى الشاب الذي مرَّ بجانبه، مشى بطيئا لا يلتفت حتى وصل إلى الباب، حينئذ التفت سريعا ناحية الكلب ثم عاد بوجهه ومد يده فلمس الصخر المنقوش وكأنه لا يصدق، ظل كثيرا بقدر ما انتظمت انفاسي ودقات قلبي الخائف، ثم عاد بنفس الطريقة صاعدا السلم، لم يكن متبقيا إلا درجتان ليصل إليَّ، التفت ورآني، هل سبق الكلب رؤيته أم سبقت رؤيته قفزة الكلب، لا أعرف، ما كادت عيناه تصافحان عيني حتى اختفى كل وجهه أسفل كتلة الكلب السوداء الذي انقض عليه بشراسة، للحظة قاومه الشاب، حاول أن يخلعه من فوق كتفيه، حاول ألا يسقط على ركبتيه وبالتالي لا يُمكِّن كل مخالب الكلب منه، للحظة ثم سقطا لأسفل يتدحرجان...

أخذت الكشاف فتحركت أبعاد الضوء مما جعل الكلب ينتبه لي
... أن يُمكن فكيه من عنق الشاب، نظر لي وأنا أنزل الدرجات الرخامية
... حفزا، بدا لي كعقاب يلتهم فريسته على صخرة عُشه، سواد شعره
... رب من لون الأبنوس، سواد لامع لا يضاهيه إلا لمعان عينه، لا شيء
... ح به إلا أسنانه، أما الباقي فيتراوح بين النُبل والجمال، لم ألوح
الكشاف في وجهه، تركته على إحدى درجات السلم مسلطا على بؤرة
الحدث، كان الشاب مغشيا عليه أو مستسلما، لم أعرف إلا عندما جذبته
... ن تحت الكلب من ذراعه فاستجاب زاحفا، لم أتكلم، لم أنظر إلى
عيني الكلب، وكأن ما فوق الشاب ليس إلا قطعة خرسانة ثقيلة سقطت
على أحد عمالي وأنا أحاول سحبه من تحتها، بينما انشغل لساني بتلاوة
ما أسعفتني به الذاكرة، ولا الضالين آمين، غاسق إذا وقب، من الجنة
والناس، الله الصمد لم يلد ولم يولد، كان الوقت ثقيلا والهواء ثقيلا
وحتى الظلام كان ثقيلا، وكأننا نصعد من عمق بئر، تلوت حتى التاث
لساني بما لا أدركه، تلوت حتى خشيت أن أفسد الكلمات.... وكنا قد
وصلنا إلى قمة الدرج الرخامي عندما سقط الشاب على صدري مغشيا
عليه بالفعل، وأفزعتني سقطته لدرجة أنني لم أنظر لصاحب الذراع التي
امتدت معي تحت إبطي الشاب ورفعته، اعتقدت أنه أحد الشباب وقد
استيقظ وجاء باحثا عنا، جذبناه سويا إلى الخارج وفي ضوء القمر رأيت
وجهه، أدركت أن كلماتي التي تلوتها لم تكن بتلك القوة التي اعتقدتها،
وإنما هو الحضور المشع لأبيك يا مصدق، كان واقفا هناك يبتسم لي،
ولكن كيف تخلص من قيوده؟..

المفاجأة ألجمت لساني وعقلي، لا أتذكر أين وضعنا الشاب، ولا ما
قال لي، كل ما وعيت عليه، أنا وذلك العجوز المبارك في الكشك، ا
أعيد ربط قيوده مرة أخرى، لم أستطع أن أمنع نفسي من النزول ع
قدميه وقبلتهما:

- أنت أنقذتنا من الموت.

- لم أفعل شيئا.

- كيف عرفت أننا هناك، لماذا لم يهاجمنا الكلب، كيف فككت الحبا
عنك؟

تجاهل كل أسئلتي وأجاب على سؤالي الأخير فقط:

- انظر ليدي، يدي لا يثبت فيها قيد منذ صغري يا عم يحيى..

فوجئت، عم يحيى، من أنا ليقول لي (عم) يحيى، فتحت فمي
لأتكلم ولكنه عاجلني:

- اخرج للولد.

خرجت أجري، وجدت الشاب مُسندا إلى جدار المقام، أتيت بسطل
الماء وكببت على يدي ونثرت منها على وجهه فاستيقظ، بقوة العراك التي
لم تزل مختزنة في روحه رفص بقدميه في الأرض ليهرب من الكلب، ثم
نظر لي مندهشا ومسح على رأسه:

- ماذا حدث؟

- أنت مجنون.

قام بسـرعة، بحث عن الكشاف، نظر للضوء الخامل الآتي من البوابة . عند الدرج، تذكر مـا حدث، جذبني من يدي لنبتعـد وأثناء كل ذلك ..، يتحدث وكأنه محموم:

امـاذا أتيـت خلفي، هل رأيت الكلب، لم يضرني، نفذت من جانبه إلى باب المقبـرة وعدت ولـولا أن الرعب تمكـن مني لرؤيتـي لك أعلى الـدرج، حسـبتك أحد الشـاب، خفـت أن يبلغ البيـه فيطردني، خفت للحظة ولولا هذا لعدت سالما.

ثم تحسس جسـده، خدوش عنقه وذراعيه.

أنا سـليم بالفعل، كيف حـدث؟ أنت من سـحبتني من تحـت الكلب يا عـم يحيـى، شـعرت بذلك ولكنـي اعتقدت أنـي أحلـم، أنت رجل شجاع يا عم يحيى، لو كان أحد غيرك لتركني.

ثم توقف والفرحة تغزو ملامح وجهه:

ولكن ألا تدرك معنى هذا ؟ الكلب لم يضرنا نحن الاثنين، هذا الكلب وهم يا عم يحيى...

....

طيلة ما تبقى من الليل ظللنا نتحدث أنا والشـاب، أخبرته كيف انتبهت مـن نومي وعثـرت عليه ولكني لم أخبره بتدخل أبيك في حادثته، رجوته ألا يخبـر البيه بما فعله مع الكلب خوفا من أن يجبره على طرده، وعندئذ لن يتكرر ما حدث منذ قليل، قال لي:

- يا عم يحيى، ما حصلت عليه يكفيني، هو أهم من أي كنز، أما الـ الآخر فلا أطمع في خردلة منه، الكنوز لها ناسها يا عم يحيى، فأنا أعل يقينا أنني لو أخذت أحد هذه التماثيل وحاولت بيعه لقبضوا عليّ ، أول كمين بلا ثمن...

نام الشاب عند الفجر ولكني ظللت مستيقظا، قلقا من أن يلفت ضو الكشاف الآتي من المقام انتباه أحد، حاول الشاب أن يطمئنني عند، أفاق ونظر فوجدني مستيقظا فقال: مع اشتداد ضوء النهار سيبهت ضو الكشاف وحده إن لم يضعف شحن البطارية...

ولكنهم أتوا مع أول ضوء النهار، لأول مرة يأتي كل هذا العدد م الغرباء إلى المزرعة دفعة واحدة، كان هناك شخص رابع جديد علاو على خليفة والبيه الصغير، وبدا واضحا من النظرات المتبادلة بين هذا الوافد الجديد وخليفة أنهما يتبادلان مشاعر كراهية متساوية، أما البيه الصغير فلم يبدُ مهتما بما يمكن أن تسفر عنه الأحداث بقدر اهتمامه بالتسلية التي ستنتج عن الأحداث ذاتها، وكأنه أتى معهما لمشاهدة حفلة، أما هذا الرابع الغريب فظهر في هيئة سيئة للغاية، محمر العينين وكأنه سهر الليل كله، ومن وقت لآخر يسعل بشدة وينتهي سعاله ببصقة بين ضلفتي منديل قماشي يتفحص به بصقته جيدا ثم يدسه في جيبه..

ذهب هذا الرجل الرابع إلى المقام رأسا وولج من بوابته، رأيته يخلع جلبابه ويطويه فوق الشاهد فيظهر أسفله سروال متسخ وصديري له أربعة صفوف من أزرار سوداء، نظر إلى أسفل الدرج ثم التقط من الأرض

عصاة صغيرة وبللها بلعابه ثم رماها إلى الكلب الذي نبح نبحة واحدة
، سكت، رسم مستطيلا حول السلم بعود جاف من حطب القطن، ثم قام
،دفعنا للخارج دون كلمة واحدة وأغلق البوابة خلفه، وقبل أن يدفعنا
البه الكبير بدوره لنبتعد من أمام البوابة رأيته يسجد في إطار المستطيل
ثم يرقد من وضع السجود على جنبه وكأنه سقط في النوم.

لقرابة ساعتين تشاغلت أنا والشباب بأعمال المزرعة ثم ذهبت لأطمئن على أبيك، قبل أن أدخل الكشك رأيت الغريب ذا العينين الحمراوين يخرج من المقام بخطوات غير منتظمة ويتجه للبيه ويتنحى به جانبا، قال أبوك عندما رآني:

- أريد أن أشرب.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب فيها شيئا، هرولت مسرعا وأتيت بسطل الماء ومن شدة اضطرابي لم أفك قيده وقربت السطل من فمه فشرب، سألني بعد أن شرب:

- هل جاءوا به؟

- من؟

- الساحر.

- تقصد الغريب الجديد، هل هو ساحر؟

- منذ يومين يهددونني بأنهم سيأتون به، ماذا قال؟

- يتحدث إلى البيه الآن.

- سيأمره بما لا يستطيعه إلا بالكفر، إما أن يذبح الابن أباه أو يزني الر -ا بامرأة حرام عليه.

- لماذا لا يتركونك إذن طالما أنهم وجدوا الحل.

قال متألما:

- ألا تعلم يا مسكين، أنا الذبيح، ولكن رفاقك لن يدركوا أن الذ ساعدهم على خطفي ليس ابني كما أخبرهم...

....

صحت أنا في دهشة بالغة مقاطعا عم يحيى:

- ليس ابنه، ساعدهم في خطفه وأخبرهم أنه ابنه، أخبرهم أن اسمه خليفة، تسمّى على اسم أخي الأكبر، ولكن لماذا؟ كان يمكنه أن يختار أي اسم آخر.

- لا تُرهق نفسك يا بني بالأسئلة، أنا فعلت مثلك ولم أصل إلى إجابة، الشيء المؤكد عندي أن خليفة الذي اختطف أباك اسمه خليفة بالفعل، لو سألتني كيف عرفت، سأخبرك بأن البيه الكبير لم يرث عن أبيه إلا حرصه الزائد، بل زاد على حرص أبيه دقة تقترب من دقة موظف سجل مدني، إن كان هذا المدعو خليفة قد أخبر البيه الكبير بأن اسمه خليفة فهو كذلك بالفعل، وإن كانت الفرصة متاحة له لينقب عن العلاقة بينهما لفعل، ولكني لا أعرف متى أخبرهم بأن العجوز أبوه، قبل أن يختطفوه أم بعد اللحظة الحاسمة التي انقلبت فيها موازين الأمور.

ماذا حدث بعدها يا عم يحيى؟

عندما أخبرني أبوك بأنه سيكون الذبيح وكأن أحدا ضربني على رأسي، تخدر لساني وعقلي، ولولا أني سمعت صوت صياح بالخارج ما أفقت.

خرجت من الكشك، ماذا فاتني، الأخوان يتعاركان، خليفة يضع سده حاجزا من الاشتباك بينهما، بينما الساحر الجديد مرشوق بجانب المقبرة يقلب عينيه في الجميع بمكر ودهاء، كيف تطور الأمر سريعا لهذه الدرجة، هل اختلفا على تقسيم الكنز قبل أن يخرجاه؟ قال لي الشاب الصغير هامسا عندما سألته عن سبب عراك الأخوين: لا نعرف السبب، ولكنهما تعاركا بعد أن خرج الساحر واختلى بالبيه الكبير...

اقتربت منهما، سمعت جزءا من الحوار الدائر بينهما، البيه الكبير وجهه ممتقع بشدة وكأن مصائب العالم وقع كدرها في صدره والبيه الصغير مثل فأر حبيس مضطرب ينظر حوله، يوزع نظراته ومشاعره، لخليفة بمقت وللساحر بغيظ ولأخيه بحنق.

قال خليفة بصوت عال:

- يا جماعة أنا نصحت لكم من الأول، هذا ساحر والساحر لا يأتي بخير لأنه كافر.

نظر له الساحر في بغض، ولكن البيه الصغير لم يَبْدُ منتبها، فحَّ في اتجاه أخيه بغل شديد:

- لن أغفر لك أبدا، أنت مليء بالشك، أولا تتلصص عليَّ أنا وذلك الفرنساوي وتتهمنا بما يوهمك به قلبك القذر والآن لمجرد أن هذا

الكلب يقول لك ما قاله تشك في أخيك وزوجتك دون سبب، أنا ، أريد المال، أريد نصيبي من أبي، محال أن أعيش معك تحت سقف واحد بعد الآن..

- تقول هذا الآن لأن الجن كشف ما في صدرك لي، هل تظن أن نظراتا لها وحبك للكلام معها والنكات التي لا تُحسن قولها إلا في وجودها تخفي عليّ، كنت أتغافل بحسن النية والآن ها هو ما اجتهدت في ستره يظهر..

- ما ظهر هو خبثك الذي يستخدمه الجن للتلاعب بنا، أنا لا أريد الكنز، أريد نصيبي من ميراث أبي، لا أريد الكنز، لا أريد أن أعاشر امرأتك، سواء في البيت أو هنا على باب المقبرة حتى لو كان هذا سيفتح لي كنوز العالم كله... حتى حتى، حتى لو طلبت مني هذا بنفسك.

ما هذا الجنون؟ ما الذي قاله الساحر؟ كيف جرؤ أن يقوله؟ للمرة الأولى أرى البيت الصغير يتهته بتلك الطريقة، إلى متى سأنتظر هذا الجنون حتى يكتمل، واذا كان هذا هو الخيار الأول فما هو الخيار الثاني أن يذبح الابن أباه.

عدت للكشك بسرعة وخفة، قلت لأبيك قم معي سنهرب من هنا، انحنيت لأفك قيوده، ماذا حدث لها، هل كان وهما؟ القيود التي كانت ترتخي من تلقاء ذاتها صارت الآن مشدودة بقوة وكأن الله يريدنا أن نختبر قدرنا، أن نسعى إليه بقوة، كأن الكرامة التي رأيتها طيلة الأيام السابقة إشارة لأجتهد فيما بعد أن أصنع كرامتي لنفسي، أترك أباك

.. الخشب وأهرول إلى صندوق العدة أسفل طلمبة المياه، أتناول منها .. مجة منشار لأقطع بها الحبال، ألمح الطبنجتين ملفوفتين في قطعتين .. الخيش ومربوطتين بالدوبار، كنا نحفظ الطبنجتين في صندوق العدة .. اء النهار، أسقطت إحداهما في الماء خفية وأشهرت الأخرى، طلقة .. في الهواء ليتنبهوا إلى ما فاتهم مني، نعم، التفتوا إليَّ يا كلاب الذهب، .. خادم المقام، ولكن المقام ليس فارغا كما تحسبونه، إنه مليء، ليس .. الذهب، بل بولي صالح، ولي حي، وأنا لن أسمح لكم بقتله، أو حتى .. جرد التفكير في ذلك.

أنت مجنون يا عم يحيى، سيب اللي في إيدك، إياك، هوديك في داهية،.......

تهديدات غاضبة مثل أزيز النحل في خلية نحل انكبت مكوناتها على الأرض، ولكني لا أريد العسل، أريد الشمع، أريد الخشب، أريد العشب الذي امتص منه النحل رحيقه، أريد ما أتى بالعسل.

صرخت فيهم أن يأتوا بأبيك، كانت الطبنجة ترتعش في يدي، وساقاي ترتعشان من تحتي ومشاهد الرجال في عيني ترتعش أيضا، بينما أنا على وشك أن أبكي، ليس من ضعف، بل من بدايات لمشاعر لم أستطع فهمها، وكأن وليًا صالحا لمسني بيده المباركة، فانطلقت كل مشاعري المكبوتة بداخلي مثل مقبرة ركد فيها الهواء حتى تجلط وتعفن، صرت مشتاقا للحياة محموما ببداياتها داخلي مثل طفل يسيل لعابه على شدقيه في نمو أسنانه الأولى، كنت أريد أن أقتل وأن أغفر، أن أسخر،

وأن أشخر، أن أنخر، وأن أرتعد، أن أبصق وأن أتعرق، أن أصهل وا، أخور، أن أنبح وأن أقلد جميع أصوات الحيوانات بإتقان، كنت مـ... لأن أعترف بولد لم أتشارك في إنجابه وأن أحب امرأة وأتزوجها وأنـ... منها، هناك خاتم ثقيل من الشمع بداخلي تشقق وخرج منه بركان م... المشاعر لا أفهمها..

اقترب مني الشاب الصغير فألقيت إليه صفيحة المنشار على الأر... وأمرته بقطع الحبال، الحبال كانت تلمع في القطع مثل عنق سيـ... اسماعيل تحت سكين أبيه النبي عندما أراد ذبحه ففداه الله بكبش عظيم، ولكن أين الكبش الذي سيهبط، سماء صافية، ليس فيها إلا سحابة تشـ... طفلا رضيعا يمص إصبعه، من الذي ولد ومن الذي سيموت، يصيح البيه الكبير في إشفاق كاذب:

- ارم الطبنجة يا عم يحيى وكفاية لحد كدا، أحسن تعور حد.

- مش انت وعدتني يا سعادة البيه إنك تسيب العجوز؟

- بس احنا محتاجينه دلوقتي.

- محتاجينه في إيه، عشان تدبحوه؟

تبادلا نظرات دهشة أكدت لي ظنوني، الساحر والبيه الكبير.

- مين جاب سيرة الدبح يا عم يحيى؟

رأيت الحبال المربوطة حول قدمي أبيك تسقط على الأرض، بينما يساعده الشاب الصغير على الوقوف، سرت أنا وأبوك مبتعدين عنهم،

ا مت وأتعثر، وكان طبيعيا أن أقع، وقعت على وجهي، ولكني بقيت
متشبثا بالطبنجة، صاح اليه الكبير: امسكوهما، فانطلقوا خلفنا، في هذه
اللحظة فكرت أن أعطي الطبنجة لأبيك، ولكني تراجعت، ليس لخوفي
من أنه لن يستطيع استعمالها ولكن ليقيني أن ما يحدث يحدث ليكون لي
لا له، مهما كانت نتائجه فستكون في صالحي أو ضدي.

كانوا قد لحقوا بنا، اقتربوا إلى مدى لا أستطيع أن أطلق الرصاص فيه دون أن أصيب أحدهم، وعلى من سأطلق لو أردت، اكتسبوا الجرأة من قربهم منا وفقدت أنا التخويف، جريت، الغريب أن أباك كانت خطواته أكثر ثباتا مني، وأسرع مني، أحاول أن أصنع بيني وبين الساعين خلفنا مسافة لأطلق رصاصة آمنة أستعيد بها خوفهم ورهبة السلاح الذي أحمله في يدي، ولكن المسافة كانت ثابتة، لهاثهم خلفنا كان ثابتا، لو التفتُّ إليهم فيقتربون أكثر، ولكن لم يكن أنا من التفت، كان أبوك الذي توقف فجأة فحسبت أن الإعياء قد أصابه، صحت به أشجعه، لكن وقفته عطلتهم عني، أعطتني المسافة التي أردتها وعندما التفتُّ رأيت أغرب شيء كنت أتوقعه، كان يلكمهم، يسقطون من لكمته ويقفون في دهشة، لا يكادون يصلون إليه من سرعة ما يعود فيضربهم وكأن بينه وبينهم لوحا من زجاج يصطدمون به، ولكنه ينفذ عبره ويضرب ويوجع، ورغم ذلك تكالبوا عليه وسقطوا فوقه فأسقطوه، قيده الشاب الكبير بكلتا ذراعيه بينما جاء الآخران ناحيتي، صحت بهما أن يتوقفا، لكن الشاب الصغير لم يتوقف، استمر في المشي ناحيتي بحمق وبطء، يا مجنون أنا لست وهما، هذا السلاح الموجود في يدي ليس وهما، حتى الرصاصة التي

خرجت منه في سورة غضبي ونثرت الدم من جذعك فأسقطتك لي...
وهما، ضربتك لأشفيك من أن تميز الأشياء على غير حقيقتها لا لأقتلك
ولكنك سقطت....

دفع أبوك الشاب الكبير، جري ناحيتي وصاح فيَّ: اِجرِ يا يحيى،
فجريت، صوته في أذني يقول اِجرِ وكنت أجري، وعندما التفت لم
أجده خلفي، كان بعيدا منحنيا على الشاب الصغير الراقد على الأرض،
ولكن صوته لا يزال يستحثني ويلهب أعصابي وساقيّ للجري، أجري،
أقفز، ألهث، أجري، الترعة الأسفلت التراب الكوبري، متى كانت آخر
مرة عبرت فيها من هنا، في سيارة البيه الكبير عندما جئت منذ سنوات
لأول مرة، كانت هنا جثة حمار منتفخة ومقلوبة، الآن لم يعد منه حتى
العظام ولا الأثر على الأرض... حتى خطواتي على الأرض عندما أنظر
خلفي ليس منها أثر، كأني أطير، لم أترك هنا سوى دم الشاب الصغير،
لو حملوه إلى المقبرة لفُتحت، فلم يكن سوى ابني الذي لم استولده،
ولكنهم حمقى لن يدركوا..

....

- في العراء قضيت ليلتين متاليتين، صحوت خمس مرات في كل ليلة
على صوت أبيك يقول: اِجرِ، أقوم فأتعثر في الظلام وأجري، في إحدى
هذه المرات نسيت الطبنجة حيث دفنتها لأستخرجها في الصباح، وما
من مرة صحوت فيها إلا ورأيت ضوءا يقترب من مكمني، كان هو
الصوت الحارس لي، لم أنم نوما كاملا إلا وأنا قادم إلى أسيوط في
القطار، جئت إلى ابن أخي هنا واختبأت عنده.

وأين أبي يا عم يحيى؟

أبوك هنا، لقد جاءني رسوله وأعطاني المال الذي وعدني به، ما احتجته بالضبط من مال، اشتريت الكشك، سأتزوج وأعمل وأعيش ما تبقى لي وقد يرزقني الله بولد، وكل هذا بهبة الرجل الصالح أبيك.

تركت أبي خلفك يا عم يحيى؟

لا.. إنه يأتيني كل ليلة في نومي فنتحادث طويلا، هو من قال لي إن ولدي سيأتي ويسأل عني فأخبره بما حصل معنا، هو من قال لي لو سألك ابني عن مكان المزرعة فلا تخبره عنها لأني تركتها بعد أن هربت أنت يا يحيى، وقال لي إنك تعلم أين ستبحث عنه..

هل يكذب؟ يبدو مقتنعا بما يقوله لدرجة أن عينيه التمعتا ببوادر دموع.

- ما شكل الرجل الذي أعطاك المال يا عم يحيى؟

- مثل أي رجل، أتى ودق باب شقة ابن أخي وسأل عني بالاسم، لم يكن قد مرَّ على هروبي إلا ثلاثة أيام، ظن ابن أخي إنه من الشرطة فدخل وحاول أن يسربني، ولكن نحنحة الرجل الواقف على الباب خففت من فزعنا، لو كان من الشرطة لهجم من اللحظة الأولى، لم يصافحني عندما أعطاني الظرف المغلق، أخبرني باسم أبيك، سألته كيف أعطاه أبوك المال فقال إنه نهاه أن يذكر ذلك لي، هذا الرجل قابلته منذ يومين يأكل عند الحاتي في أول الشارع، أشرت له بالسلام مرة بعد مرة فنظر لي وكأنه لم يعرفني...

....

الفصل الحادي عشر

ظهور الدرويش أبو القمصان في أسيوط

وبداية رحلة الصحراء

قال لي زياد: إلى أين ستذهب؟ قلت: لا أعرف، قال: معي رقمك مطمئن عليك من وقت لآخر، نزلت السلالم أمرر أصابعي على الدرابزين الحديد، أمررها على الحائط في بئر السلم، وعلى حوائط البيوت التي أمر بها، تسبح إصبعي في الفراغات بين المباني، أتخيل أصابعي يخرج منها لبلاب أخضر، أو خيوط يتسلق عليها اللبلاب الأخضر، هل سأعود أم سأتمم رحلتي إلى دراو؟

كيف ستتم بحثك يا مصدق وأنت تتعثر طوال الوقت في دراويش أو تائين، ربما كان مدير البنك مصيبًا في نظرته، أنت لا تصلح للبحث عن أبيك، لو كان خليفة مكانك لجر يحيى إلى أقرب قسم شرطة ووجه له تهمة الاختطاف أو القتل، حتى الشيخ خليفة لن تستطيع أن تتهمه بشيء طالما أنك لا تعرف مكان المزرعة أو المقام، يمكنك أن تراقبه أو تحاصره بالأسئلة هذا لو وجدته أصلا...

وكأنه أحد أصحاب الخطوة الذين يحضرون بالنداء، رأيته، لا أحظر ظهره أبدا، كان يسير أمامي، حاولت أن ألحق به دون أن أناديه، خفت أن أناديه فيهرب مني، الشنطة المعلقة على كتفي تحتك بساقي وأنا أجري فتعرقلني، ألقيت بها على الرصيف، الآن تأكدت الشكوك وصارت يقينا، ما الذي جاء به إلى أسيوط، صحت به عندما اقتربت منه:

- شيخ خليفة.

لم يلتفت، صحت مرة أخرى، صرخت:قف، فتوقف... ولكنه لم يكن قد التفت عندما قفزت فصرنا كتلة واحدة على الأرض، امتطيته كما يمتطي غريق جذع شجرة في دوامة من نهر صاخب، وأنا أضربه لم يكن يدافع عن نفسه، يهتف دون أن تغادره ابتسامته يقول: كنت أبحث عنك، ثم يقولها بصوت خافت كأنه لا يريد لأحد أن يسمعنا، اجتمع الناس علينا، يدفعونني عنه، يجذبونه مني، وكنت أؤذيه بتشبثي أكثر مما أؤذيه بلكماتي، يضربونني عندما يشنوا، كل الخدوش والكدمات التي أصابتني كانت من الناس لا منه، هو من دفعهم عني فأنقذني منهم قائلا هذا ابن أخي، هو من نفض التراب عن ملابسي وهو يضحك، واصطحبني جانبًا وسرعان ما صرنا في شارع جانبي:

- أين كنت، بحثت عنك كثيرا؟

انتبهت إلى ما يرتديه، جلباب نظيف وحذاء أبيض من النوع المفتوح، وطاقية بنية، قلت ساخرا مبتسما في مرارة:

- أنت ورثت يا شيخ خليفة؟

- لا.. استلفت، المائة جنيه التي أعطيتها لي.

رسمت بأصبعي في الهواء دائرة وهمية حوله.

ال هذا بمائة جنيه فقط.

لا طبعا، اشتريت من سوق الكانتو بثلاثين جنيها، غسلت ولمعت (قال وهو يشير إلى جلبابه وحذائه).

لماذا تخليت عن ملابسك القديمة؟

لكل مقام مقال، أنا الآن في مهمة، لم أعد ملك نفسي.

أي مهمة يا شيخ خليفة؟

قال في حماس:

المهمة التي كلمتك عنها، مهمة الكنز الذي سأعطيه لك، فاكر ما قلته لك عندما أخذت منك المائة جنية.

- كنز حقيقي؟

- كنز ستأكل منه الشهد.

- هل تريدني أن أقنع أبي أن يطرد لكم كلب المقبرة.

تأملني قليلا مندهشا وكأنه فوجئ ثم قال ببطء:

- أي كلب وأية مقبرة؟

صحت في نفاد صبر:

- أين أبي يا شيخ خليفة؟

- هذا ما أتيت لك من أجله، تعال.

أمسك يدي فجذبتها بعنف:

- أريد أن أعرف، أريد أن أفهم.

نظر إلى عيني طويلا يحاول أن يستشف ما بي ثم قال في ثقة:

- ستفهم ستفهم، ما تريد أن تفهمه، وأكثر مما تريد.

قال لي سنمشي ونحن نتكلم، فإن الكلام يهون من مشقة السير. سرنا وأخذ يحكي:

- كذبت عليك في شأن أبيك، ففي يوم اختفائه التقيت به عند موزع الماء، في المكان واليوم الذي ذهبت فيه لتبحث عنه عند الأرض، قال لي إن مصدق سيأتي للبحث عني هنا، وأن مهمتك يا شيخ خليفة أن تطمئنه عليّ وأن تنتظر في البلد حتى ترى العلامة ثم تسافر إلى أسيوط وتبحث عنه وتقوده إلى مكان الكنز.

قاطعته:

- مرة ثانية الكنز يا شيخ خليفة؟

- ثانية وثالثة.

- اسمع يا شيخ خليفة، أنا لا أصدقك، ربما كنت أصدقك من قبل، كنت مستعدا لأن أصل في تصديقك حتى لو قلت لي إنك تطير في الهواء أو تمشي على الماء، ولكن الآن لم أعد مستعدا لشيء.

قال مبتسما دون أن يعبأ بثورتي عليه:

إذن مهمتي ستكون أكثر صعوبة مما توقعت، فأنا سأطلب منك ما هو أكثر غرابة من أمور كالطيران في الهواء.

إذن لكي أسهل عليك مهمتك يا شيخ خليفة، لكي لا أرهقك بأسئلتي، اخبرني أولا ماذا فعلتم في أبي.

ما قلته لك كان آخر كلام لي مع أبيك، انتظرت الإشارة ثم جئت أبحث عنك.

أية إشارة؟

ستعرف بعد قليل.

ثم قال في جدية:

اسمعني جيدا يا مصدق، أنت مخير في أن تسمع مني، يمكنك أن تسد أذنك أو أن تنصرف الآن، مخير بعد أن تسمعني بين طريقين، أحدهما سيؤلمك بشدة في بدايته والآخر سيستمر معك بالألم حتى نهاية عمرك، أبوك اختار الخيار الثاني ذات مرة ومنذ ذلك الحين تشتت قلبه، أنت تظن أنك مخير طوال الوقت ولكن الحقيقة أنت لست مخيرا، كلنا لسنا مخيرين، كل ما تراه حولك هو نتيجة أننا مسيَّرون، عوامل كثيرة تسير بنا، القوة والحقد والكراهية وحب الدم، كل هذا لأننا مسيَّرون، ارتضينا بذلك، لو أننا اخترنا لاختلف مستقبل العالم

عـن ما نحن فيه، التخيـر أن تكون عكـس ما يمليه عليك الآخرون، ا
تبع قلبك، ماذا يقول لك قلبك يا مصدق؟ ها، أخبرني!

- أولى بك أن تطلب مني أن أُسمعك ما يقوله عقلي أولا .

- العقل ضـيف مرتحل، يترك عرشه لوساوس الشيطان والشكوك، ولكن
على أي حال: احك يا مصدق، احك لي عن وساوسك.

حكيـت له مختصرا مـا حكاه لي عم يحيي أنا وزياد، كان يـسمع لي
مندهشـا، لم يقاطعني بكلمة واحدة، أخذ بيدي فاستجبت له هذه المرة،
ربع ساعة من المشي ووجدنا أنفسنا أمام موقف السيارات، لم اندهش،
جلسنا على إحدى الطاولات الأسمنتية المخصصة للجلوس على
الرصيف، ختمت حكايتي وساد صمت عميق.

ثم قال الشيخ خليفة بصوت حزين:

- إذن أول ما دار بذهنك أن خليفة الذي ساعد في اختطاف أبيك هو أنا.

- كل الشواهد تقول ذلك، اسمك وطريقتك في الكلام مع أبي فيما رواه
عـم يحيى، وجودك في المكان الذي اختُطف منه أبـي كأنك تعطلني
عـن البحث عنه وتوهمني بأنه غادر البيت ولم يختطفه أحد، حتى
ما أراه الآن من أحوالك، حديثك عن الكنز وملابسك النظيفة.

- هكذا قطعت الشواهد كما تسميها كل الطرق عليك بضربة واحدة،
لم تفكر أنه قد يكون خليفة بالصدفة تشابها مع اسمي، أو حتى خليفة
أخاك.

صحت مندهشا:

أبي؟.. وما شأنه بهذا؟

وما شأني أنا؟ هل أبدو لك كشخص يبحث عن الذهب أو يريده.

أشياء كثيرة تتغير يا شيخ خليفة، منذ بدأت في البحث عن أبي وأنا لم أعد كما كنت، الأشياء لم تعد في أماكنها الصحيحة، حتى ما عشت فيه وهمه طوال عمري ولم أنتبه له بدأت أفكر فيه مرة أخرى بطريقة مختلفة.

عشت طوال حياتك على الشاطئ يا مصدق وبمجرد أن بدأت في الإبحار صرت تولول؟ اطمئن، فقط عليك أن تدرك أن الحبال التي كانت تربطك إلى الميناء صارت الآن هي ما يثبت شراعك المعبأ بالريح، ولكن.. لماذا أبحرت يا مصدق، ألم تسأل نفسك، كنت تبحث عن أبيك، تاجر القماش، قائد الجمال من بعد، فماذا تغير؟

خلف قشور الناس أكوان أخرى يا شيخ خليفة.

لماذا لم تبصرهم إلا الآن، كان لديك كل شيء طوال الوقت، البصر والعقل والإيمان بهم.

كانت هناك إشارات، ولكني لم أعرها انتباها، لا أحب الإشارات، الإشارات التي تملأ الكون من حولنا ليست إلا دليلًا على قِدم الأشياء يا شيخ خليفة، كأنها موجودة لتقتنص لحظات ضعفك، لتجعلك مستمرا في الطرق المرادفة لحياتك.

- نعم، أعرف ما تقوله، ولكن المتع التي ستجنيها من الولوغ في ...
الطرق حتى نهايتها ستفوق حتما متعة حياتك كلها.

- ومن يضمن لي أن لحظة استيقاظي ستكون هادئة، ولن تكون م...،
كما لم أتألم أبدا...

- إذن حذار أن تستيقظ إذا أدمنت قراءة الإشارات يا مصدق، إذا س...
في طريق الوهم فليكن وهمك هو حقيقتك..

- أريدك أن تثبت لي يا شيخ خليفة أن لا علاقة لك باختطاف أبي،
ولا تدفع الوساوس بوساوس أخرى.

- أنا جئت هنا لأمنعك من الوقوع في الوساوس لا لأدافع عن نفسي،
ولكن على أية حال، الشك ليس مثل اليقين، الشك حالة مخففة م...
الإيمان يا مصدق، ولكن اليقين مهلك، تمتع بشكك، أنت الآن معي،
حر من القيود التي جعلتك مسيّرا طيلة حياتك، لا تعلم مدى الجه...
الذي بذلته أنا وبذله أبوك لتكون هكذا، ربما بعد ساعة من الآن ستزيد
عليك الضغوط لاتجاه أكره أن تذهب فيه لأنك ستضيع للنهاية ولن
تعود، قل لي ألم يتصل بك أخوك خليفة منذ قليل ليخبرك بشيء؟

- لا.

صاح مندهشا وكأنه يهمس لنفسه: وماذا ينتظر الثعلب؟

- لا تسب خليفة، لتراعِ أنه أخي.

- لا أسبه، فقط أعطيه صفته الحقيقية.

..ماذا تعرف عنه حتى تقول ذلك؟

ماذا تعرف أنت عن خليفة أو عن أبيك أو حتى عن مؤمن، عشت معهم طوال هذا العمر بحسن النية ولم تعرف عنهم إلا الحكايات، ولكن طالما أنك تحب الحكايات فاتركني أتمم لك حكاياتك، وأول ما سأتممه لك تتمة الرحلة الأولى لأخيك خليفة مع أبيك، كانت إلى طنطا، أناخ أبوك الجمال بعيدا عن مولد البدوي، وترك خليفة في حراستها، ولكن خليفة ربط الجمال مخالفا أوامر أبيك وتبعه إلى الخيام التي تضم طرق الصوفية المختلفة، هناك رأى مشهدا عجيبا لم يتوقعه، رأى أباك واقفا وطابور طويل من الرجال يأخذون يده ويقبلونها ثم يمرون واحدا بعد واحد..

صحت في دهشة:

لماذا؟

صاح هو في استنكار فاق دهشتي:

لماذا لماذا؟... ألا تعرف، حتى ما يقال عنه من إشاعات، مقابلته لأحد الأقطاب وأخذه العهد على يده، أبوك كان له تأثير على الحيوانات حتى المفترس منها، كان يجتهد في إخفاء كرامته، ولم يلاحظ الناس منها إلا أنه لم يكن يربط الجمال، ولكن حكاية طنطا حكاية أخرى، في المرة الأولى التي ذهب فيها أبوك إلى طنطا بعد رحلة الصحراء كانت له كرامة، رأى الرجال يُقيمون الأعمدة الخشبية لخيام الطرق الصوفية،

وقـف بجانب أحـد الأعمدة ونظر إليـه طويلا من أعلى لأسـفل وقال بصـوت عـال دون أن يوجـه كلامه إلى أحـد بعينه أن هـذا العمود غير موزون مع الأعمدة الأخرى، وسيتسـبب في وقوع الخيمة بعد خمس ساعات من إقامتها، رئيس النجارين الذي كان فوق السـقالات سمعه فصاح عليه ومشط من المسـامير يلعب في فمه: لولا ضيافة صاحب هذا المكان لكان لي معك كلام آخر، ثم أمر أحد صبيانه بأن يصرفه لخارج الهيكل الخشـبي، ولكن شيئا في ملامح أبيك وثقته جعل فئران الشك تلعب في صـدر النجار بمخالبها بينما عناده وثقته صرفاه عن إعادة وزن الأعمدة، بعد خمس سـاعات بالضـبط من إقامة الخيمة وأثناء الحضرة سـقطت نفس تلك الخيمة على الناس، سادت الفوضى، وطار الكلام لا تعرف له مصدرا عن كرامة الجَمَّال الغريب.

فـي السـنة التالية دخل أبوك فـي الهيكل الخشـبي ووقف عند عمود آخر ثم انصرف دون أن يتكلم كالمرة السـابقة ولكـن النجار رآه وعرفه، قـام النجار بسـرعة بوزن العمـود فوجد فيه انحرافا بسـيطا فنزل بسـرعة وبحث عنه هو وصـبيانه بجنون بين الناس والزحام حتى وجده ثم انكب علـى يده يقبلها، اجتمـع عليه النـاس يفعلون كما يفعل النجـار وصبيانه حتـى رآهم خليفة إحدى الطرق الصـوفية فذهب ليسـتطلع الأمر وسـمع منهم الحكاية فاصطحب أباك إلى شـيخ طريقته وهناك كانت مفاجأة، قام شيخ الطريقة من جلسـته بين مريديه قبل أن يحكي له أحد ما حدث وقبّل يد أبيك.

قلت في اندهاش:

وكيف عرفت كل هذا يا شيخ خليفة؟

رأيت بعضه بعيني يا مصدق وسمعت الباقي بأذني، أبوك كان يكره جدا التحدث في ذلك، كان يختبىء من الناس في مولد البدوي، وفي ذلك اليوم الذي رآه أخوك خليفة، وفي رحلة عودتهما سأل خليفة أباك: لماذا كان الرجال يقبلون يدك يا أبي، فطلب منه أن يكتم ما رآه، ولكن خليفة أصابه فيما بعد هوس شديد، طلب من أبيك أن يعطيه العهد ليصبح خليفته، وكان أبوك يتعامل معه باعتبار أن الوقت والنسيان كفيلان به ولكن كل يوم يمر كان يزداد حاله سوءا.

سألت الشيخ خليفة في حيرة:

- إذن كان أبي يكره خليفة لهذا السبب، إلحاحه عليه بأن يأخذ عليه العهد ويرث الولاية!

- هذا أمر شائع بشدة في الطرق الصوفية، التعامل مع الدين كأنه إرث وليس عقيدة، كان هذا سببا كافيا ليكرهه.

رن هاتفي، وكأن الشيخ خليفة استيقظ من كابوس، صاح:

- لا ترد، لا ترد، هو أخوك خليفة.

أخرجت التليفون، نظرت إلى الرقم الذي اتصل بي، كان هو الرقم المرادف لخليفة، سألته في حيرة:

- كيف عرفت، ولماذا لا أرد؟

قال في حزم:

- لـو أنك تملك عقلـك وتترك العنـان لقلبك رد على خليفـة، غير (1)
لا ترد.

مرة بعد مرة كانت رنة التليفون تنتهي لتعود، سادت خلفية المو... مع النظرات المتبادلة بيني وبين الشيخ خليفة، حيرة وخـوف وتر... تمتزج داخلي ببطء شديد، وضعت إصبعي على زر كتم الصو... وأغمضت عيني، كلما صدح الصوت كتمته ثم لم أعد أفعل، بعد ما قا... الشيخ خليفة صرت مستعدا لتصديق ما حكاه لي عم يحيى، وكان ... كفيلا بأن أشعر بروحي تتمدد بداخلي مثل أوراق خضراء لزهرة لو... على سطح ماء صاف، وما الذي سيخبرني به أخي خليفة، لن أرد..

ولكني سمعت صوت الشيخ خليفة (أو صوت أبي!!) وهو يقول

- رد يا مصدق.

ففتحت عيني مندهشا وضغطت على زر الإجابة.

في البداية سمعت صوت خليفة وهو يتحدث مع آخرين، لم يتنه لفتح الخط، سمعت صراخا بعيدا فانقبضت إحدى أوراق اللوتس الخضراء ثم عادت إلى انبساطها، قلت عدة مرات:

- خليفة، خليفة.

زادت نبرة صوتي حدة كأنني أنادي على شخص قريب مني لا يلتفت إليَّ: خليفة خليفة.

سمعته عندئذ يرد في لوم ولهفة:

«صدق، لماذا لم ترد من المرة الأولى؟

كنت مشغولا، خير يا خليفة.

تعال بسرعة، أبوك رجع خلاص.

صمتُ مندهش، أنفاس خليفة تشتبك بأنفاسي في عراك هادىء، ثم قررت أن أفض اشتباكهما فسألته:

هل أبوك بخير يا خليفة؟

سمعت صياحا في الخلفية، عاد الصراخ، تنهد خليفة، وكأنه يريد أن ينهي الأمر ليتفرغ لما هو أهم.

- أبوك مات يا مصدق، لقيناه في مسجد من مساجد طنطا ميتا، تعالَ بقى يا أخي.

أغلق السماعة دون أن ينتظر سماع شهقتي، قال الشيخ خليفة بسرعة:

- اتبع قلبك يا مصدق، أنا سمعت الخبر وهذه كانت الإشارة التي أخبرني بها أبوك.

ذبلت ذراعي الممسكة بالهاتف فسقطت بين ساقي، لم انظر إلى الشيخ خليفة ولم أرد عليه، قاومت الدموع فزاغت رؤيتي، قبل انفصال قطرة الدمع الأولى رأيت بدقة شديدة طابورا من النمل يسير أسفل قدمي

ثم سقطت دموعي ولم أعد أراه، رن الهاتف مرة أخرى وبدون نه
دفعت يدي به إلى أذني وكأنني أتوقع خبرا يمحو الأول، قلت بصو
مبحوح:

- من؟

- أنا أختك يا مصدق، انت فين؟

- في أسيوط.

- مفيش حد اتصل بيك.

- خير؟

- أبوك يا مصدق، أبوك مات، الغالي مات.

قاطعتها من الاسترسال في ولولة أكيدة وهتفت بها مثل غريق يتعلق
بقشة:

- شفتي أبوكي وهوا ميت، شفتيه.

أجابتني إجابة غير التي قصدتها:

- وشه منور خالص يا مصدق، شباب، رجع عشرين سنة ورا، تصو
إني ضحكت لما شفته، تصور، ضحكت والدموع في عيني، تعال
يا مصدق، تعال بسرعة.

همس الشيخ خليفة لي: اسألها عن مؤمن.

همست في آلية مثل ببغاء:

ابن مؤمن، خليه يكلمني؟

وكأنها وجمت على الطرف الآخر:

مؤمن هربان من البيت بقاله عشر أيام، الأمن جاءوا البيت بالليل وقلبوا شفته، ربنا يستر.

أنهيت الاتصال، نظرت للشيخ خليفة وكأنني أنتظر تفسيره لما يحدث، فابتسم:

لن يتصل بك مؤمن، هذه إشارة......

صرخت أقاطعه:

- إشارات إشارات، أبي مات يا شيخ خليفة ويغسلونه الآن وأنت تطلب مني أن أصدق إشارات.

صرخ في وجهي كما صرخت ولكن لدرجة نبهت المارة إلينا:

- انتبه لقلبك يا مصدق، ماذا يقول لك قلبك عن أبيك؟

- لم يمت يا شيخ خليفة، لم يمت.

- إذن بحثك لم ينته بعد.

زفرت بشدة، ثم أخذت نفسا عميقا وأغمضت عيني، محاولا أن أستحضر زهرة اللوتس بأوراقها على سطح الماء ولكني لم أستطع، كان قلبي مغموسا في ماء عكر، سألته بعد صمت طويل:

- مستحيل أن تكون حكاية عم يحيى عن أبي مجرد خيال، المال ...
ووصفه لأبي، الخاطف أحدكما لأنه كان يعرفه، ولكن أبي قال له، يحيى إن من خطفه ليس ابنه.

- هذا من الإشارات الخادعة، تطابق اسم ذلك الخاطف مع اسمي ... اسم أخيك سبب لحيرتك، وهذا قد يضيع عليك فرصة لن تعوض الكنز يا مصدق، لا تنته..

- ماذا تريد مني أن أفعل يا شيخ خليفة؟

- أن تُتم بحثك عن أبيك وتجده، لا تعد إلى البلد يا مصدق، لا تعد... أنصحك بأكثر من ذلك، فإن الحقائق الكثيرة المتتالية مثل النصيحة في حال التلبس بالذنب تدفع القلب للإنكار والكفر، لا تعد يا مصدق، وكفى، وإن أردت أن تتأكد من أن أبوك لا يزال حيا، خذ، معي رقم تليفون أبيك، أعلم أنه لم يعطه لكم ولكنه أعطاه لي، خذ، اتصل به.

فتش في جيوبه، رغم الحزن الذي تلبسني لم أستطع أن أمنع نفسي من الدهشة، فمن جيوبه أخرج خيطا ملفوفا على هيئة كرة على عود من حطب القطن، خيط ملفوف على ورقة كرتون سميكة، خيط ملفوف على سلك غليظ من نحاس، خيط متداخل في بعضه البعض، ثم ورقة متهرئة عليها أرقام كثيرة، لم يسمح لي برؤيتها، قام بإملائي الرقم، فسجلت واتصلت، وضعت الهاتف على أذني بسرعة في خوف مشبوب بالأمل، لحظات وفُتح الخط، سمعت صوت أخي خليفة:

- نعم يا مصدق، أنا مشغول بالله عليك، الدفنة قربت وكل حاجة ملخبطة.

نظرت لشاشة التليفون غير مصدق، كان هو الرقم المرادف لخليفة الذي أخبرني أنه اشتراه، كيف حصل الشيخ خليفة على رقم هذا الخط إذ لم يكن بالفعل خط أبي، لماذا كذب خليفة عليّ وقال لي إنه اشتراه، املفت بسرعة وكأن ألف شبح يطاردني، مد لي الشيخ خليفة يده في ثقة وانتصار.

هات التليفون.

قلت بعد أن أعطيته إياه:

سأسافر إلى دراو، هل ستأتي معي.

....

حكى لي الشيخ خليفة أنه سمع الخبر على المآذن، بعد صلاة الفجر أذاعوا وفاة أبي، قال لي إنه ذهب إلى أخي خليفة عند بيتنا فرأى الرجال وقوفا منكسين وخليفة أخي يتلقى عزاءً ابتدائيا، عندئذ ارتدى ملابسه التي أعدها وسافر خلفي..

كان الأمر يشبه الجنون، جنازة أبي التي لم أحضرها والواجب الذي يحتم عليّ أن أحضر على الأقل لاستقبال المعزين، سفري في الناحية الأخرى من الأرض والسيارة الميكروباص المرتجة ودندنة الشيخ خليفة الخافتة بأذكار المساء، سمعت ذات مرة حكاية عن ابن تملكه الذهول في جنازة أبيه فغلبه ضحكٌ هستيري في الصوان، أعرف صديقا لي غنى في جنازة أمه، لكني لم أكن مذهولا، كان قلبي يدق بشدة، جالسان في الكنبة

الخلفية في الميكروباص، أخرج الشيخ خليفة الخيط المشتبك من جي، وبدأ يفك اشتباكه بحرص شديد ويلفه على قطعة من الجلد، كان الحار الثالث لنا في المقعد يتابعه في حرص اقترب من الزهق، أخيرا صاح به لدرجة لفتت انتباه الركاب:

- هات يا عم الحاج وأنا ألفه لك.

أعطاه الشيخ خليفة الخيط وهو يبتسم، في ارتجاجات الميكروباص والسائق يقتحم به المطبات بغشم المراكبية على سطح ماء هادىء حاول الرجل أن يفك اشتباك الخيط على قطعة الجلد ولكنه لم يستطع، كلما زادت ابتسامة الشيخ خليفة اتساعا كلما زاد اضطرابه واشتباك الخيط في يده، أخيرا ألقى الخيط في حجر جلباب الشيخ خليفة وهو ينفخ:

- خد يا راجل، خيط دا واللا تُعبان.

ابتسم الشيخ خليفة مرة أخيرة ثم نظر إليّ وكأنه يشهدني على يأسه، فسألته في فضول شديد:

- من أنت؟

- أنا، أنا أبو القمصان.

....

الفصل الثاني عشر

في دراو مدينة الإبل...

وصلنا مع شروق شمس اليوم التالي، قفز الشيخ خليفة من باب الميكروباص ولم ينتظرني، لحقت به وأنا أحجل خلفه، لم أعجب من سرعته الفائقة في المشي بعد ركوب طويل يبس الساقين بقدر ما عجبت من معرفته للشوارع كأنه يعيش في هذا البلد منذ طفولته، مررنا على أحد المحال واشترينا منه راديو ترانزيستور وكابا ومن محل آخر عبّأنا شنطة الكتف الفارغة الخاصة بي بأكياس السكر وعبوات الشاي وفي محل ثالث يفوح برائحة الأصباغ قام الشيخ خليفة بشراء قطعتين كبيرتين من القماش الأبيض الناصع، دفعت ثمن كل ما اشتريناه، وسرت خلفه أحمله حتى توقفنا عند باب أحد البيوت، باب خشبي يوحي بفقر الساكنين خلفه، دق الشيخ خليفة الباب بشدة لا يمكن أن يقوم بها غريب، فتح لنا رجل في سن أخي خليفة أخذه في حضنه بمجرد أن تبين وجهه، قال له الشيخ خليفة بعد أن ربت على ظهره عدة مرات وتبادلا القبلات على الأكتاف مشيرا إليّ:

- ابن أخي، مصدق.

دخلنا، الباب يفضي إلى صالة كبيرة مسحوب على فراغها ستار من القماش الدمور، وفي الجانب الأيسر ممر ضيق جدا سرنا فيه إلى غرفة الضيوف، جلسنا، لم يتبادلا حديثا أكثر من السلام والسؤال عن الأحوال وحمد الله والتربيت بود جميل على السيقان كلما توقف تبادل الكلام بينهما، ثم وُضع الطعام فتحلقنا حول الصينية لنأكل، قام الرجل المضياف بتوزيع اللحم بنفسه دون أن يأكل معنا، جلست متربعا بينما جلس الشيخ خليفة على إحدى ساقيه ونصب الساق الأخرى أمامه وترك كلتا ذراعيه تغزلان أغرب حركة يمكن أن تصدر من رجل مثله لا يأكل اللحم، فكلما وضع صاحب البيت قطعة من اللحم أمامي أخذها ووضعها في فمه وازدردها بسرعة وشراهة غريبة دون أن يمضغها بالكامل تاركا اللحم الموجود أمامه، مرة بعد مرة حتى صاح الرجل في غضب:

- جرى إيه يا شيخ خليفة، اترك الراجل ياكل.

قال في هدوء:

- الراجل دا مش بياكل لحم جمال يا سيد الناس.

- طيب، كنت قلت من الأول، لعل المانع خيرا؟

- متاخدناش في دوكة، قل لي: قافلة الجمال هترجع امتى للسودان؟

- مش النهار ده، ممكن بكره، ليه السؤال، خير؟

- ابن أخي عايز يسافر معاها، تقدر تدبر لنا الأمر.

بعد أن انتهينا من طعامنا قام الرجل بعدة اتصالات وبعد كل اتصال ،ان يوزع نظراته بيننا قائلا ليطمئننا:

ابشر ابشر.

جاءت صينية الشاي، أكواب فارغة ورائحة الشاي المنعشة تتدفق ..ن بوز البراد الخزفي، بعد الشاي قام الرجل بإغلاق الباب علينا لننال ,معصا من الراحة بعد السفر الطويل، نام الشيخ خليفة على الفور، نام ,ونقلب وأصدر شخيرا عاليا ثم تقلب فانقطع الشخير من فمه، مع تقلبه ,بدأت الأشياء تسقط من جيبه تباعا، لفات الخيوط، إبر خياطة وسنانير صيد مرشوقة في قطعة من الجلد، مطواة صغيرة وقلم جاف، حبات نوفياء، شيء ثقيل من معدن ملفوف في قطعة من الخيش كان لسقوطه دوي مكتوم، نظرت وقبل أن يتمكن مني النوم رأيته، لامعا رغم الغرفة المظلمة، تمثال فرعوني من الذهب الخالص!!!

....

استيقظت بعد صلاة العصر، كانا يتحدثان بصوت هامس، استويت جالسا، نظرت إلى الأرض حيث وقعت الأشياء من جيب الشيخ خليفة، لم يكن هناك شيء، على المنضدة الصغيرة في وسط الغرفة رأيتها، لفات الخيط والمطواة وقطعة الجلد ولكن لم يكن هناك تمثال الذهب، بمجرد أن استيقظت أنهى الرجل حديثه بسرعة وخرج، قال الشيخ خليفة وهو يرشق القلم الجاف خلف أذنه:

- القافلة ستبدأ في السير بعد منتصف الليل، يجب أن تكون جاهزا قبلها، قف هنا أمامي.

على مدى ساعة أثبت الشيخ خليفة أنه بجانب دروشته خياط ماهر أيضا، كان يقيس أعضائي بالخيط ثم يأخذ المقاس على قطعة القماش ويعلمها بالقلم الجاف ويقطع بمقص كبير أحضره لنا مضيفنا، ثم وضع في يدي لفات الخيوط وطلب مني أن أختار.

- ولكن كلها لون واحد يا شيخ خليفة.

- ولكن قلبها ليس واحدا، هنا الجلد والحطب والنحاس والورق.

- وهل ينبغي أن يشير لي قلبها إلى دلالة ما.

- لا ولا أي شيء، مجرد شعوذة اعتاد عمك الذي هو أنا أن يقوم بها.

- اختر لي إذن.

مد يده وأخذ لفة الخيط الملفوفة على ورق الكرتون وقبل أن يفضها ويلضم الخيط صحت به:

- انتظر، خذ هذه.

التقطت لفة الخيط حول السلك النحاس ومددت يدي بها إليه فتناولها واجما وكأنه حزن لاختياري.

بعد ساعتين من عمل دؤوب كان قد جهز قميصا أبيض طويلا مُصنعا يدويا ثم شرع في الثاني على مقاسات جسده فسألته:

هل ستأتي معي يا شيخ خليفة؟

لا، هذه رحلتك أنت وحدك، تنتهي مهمتي عند اتفاقي مع خبير القافلة.

- لماذا تصنع لنفسك هذا القميص إذن.

رد مبتسما دون أن يرفع عينيه عن الإبرة وهي تغزل حركتها في نشاط على قطعة القماش:

- لا تسأل عن كل شيء.

مر الوقت سريعا، فكرت أن أستعيد الهاتف من الشيخ خليفة وأرسل إلى زوجتي رسالة سريعة لأطمئنها عليّ في حال إن طال غيابي ولكني تذكرت أنها لم تتصل بي حتى الآن لتعزيني في وفاة أبي، أتى طعام آخر، أكل مضيفنا معنا هذه المرة، جبن وقشدة باردة وخبز خشن وعسل أسود وبيض مسلوق، ثم جاء دورق كبير من اللبن البارد، شربت حتى امتلأت بطني...

ننتظر مرور الوقت، امتلاء بطني أعادني إلى طعم أيام أمي عندما كانت تصطحبني معها في زيارتها السنوية لخالي بمعدة ممتلئة بالعدس الدافيء، أغمضت عينيّ، في السيارة التي كنا نركبها ومع رجة المطبات كنت أشعر بقلقلة العدس في بطني مثل ماء يرتج في قُلة نصف ممتلئة وكنت أنام على هذا الصوت.

هل كنت نائما عندما رأيت أبي، جالسا على باب المقبرة الفرعوني، وبجانبه كلب أسود يتناثر الزبد من فمه وهو يفصح عن أنيابه لي مهددا، ربت أبي على عنقه فهدأ، ثم التفت إليّ وقال في حزن:

- نسيتموني يا مصدق، حتى أنت نسيتني.

بكيت وأنا أقول في ضعف:

- كنت أبحث عنك يا أبي، كنت أبحث عنك ولكني لم أجدك.

قال في إشفاق:

- لو بحثت عني لوجدتني، ولكنك كنت تبحث عن أخويك يا مصدق، لم تبحث عني.

أخرسني الحُلم رغم أن صدري ماج بدفاعات كثيرة، أبي من تكلم:

- أنت طيب يا مصدق، طيب ونقي، لا تبك فأنا أحبك، أنت الوحيد من أولادي الذي حملته على يدي بعد أن خرج من بطن أمه، أنت رحمة الله لي بعد موت الجمل الأصفر، ستجد أخويك يا مصدق، وستكون أنت خليفتي..

كنت أود أن أخبر أبي، لا أريد الخلافة، أريد حبك وحب أخويّ، ولكن الكلام لم يخرج، لماذا يملك الآخرون الحرية في الكلام في أحلامنا نحن، كان أبي لا يزال ينظر لي والشيخ خليفة يهزني:

- أنت نمت، قم، هيا.

ان الليـل قـد توغل عندمـا خرجنا مـن البيـت، أعطانـي مضيفنا عند
اب كميـة كبيرة مـن الجبن هدية مـن زوجته كما أخبرني، رده الشـيخ
امة عند الباب قائلا: ارجع أنت، عارف السـكة، مشـينا، شوارع هادئة
ي ذلك الوقت مـن الليـل، رائحة أوراق تحتـرق، بضـع كلاب متفرقة
ي، النسـيم جـاف وبـارد لدرجـة أن عينـيّ كانتـا تدمعان من السـير
رعة، هل كانت عيناي تدمعان بسـبب برودة الهواء وجفافه أم بسـبب
شعوري بانتهاء الرحلـة، ببلوغهـا مرحلة لن أسـتطيع العـودة بعدها، من
كان يتصـور أننـي عندما خرجت من بيتي أن الأمر سـينتهي بي إلى رحلة
السـودان تاركا إرث حياتي القديمة خلفي، أو ما تبقى منها، خليفة ومؤمن
وزوجتي وابني الصغير.

انتبهـت، كان الشـيخ خليفة يقول كلاما غريبا، ألهـث خلفه وأنا أتبعه ولكنـه لا يلهـث لا من الجـري ولا من الـكلام، ولولا بالونـات الدخان المتفجـرة فـوق رأسـه لشـككت أنـه يتحـدث، كأنه واحـد آخـر أو كأنه يتحدث إلى أحدٍ آخر.

- أنت فرصتـنا الأخيرة يا مصدق، أنا ثم أبوك، وربما عشرات غيرنا سـاروا في هذه الصحراء وعادوا بما عدنا به أو أقل، لو كانوا عادوا بالمطلوب لتغير الحال كثيرا.

- وما هو المطلوب يا شـيخ خليفة؟

تنفس بعمق قبل أن يجيبني:

- نحن لم نولد عبثا يا مصدق، نحن ولدنا للخلافة ولكن الخلا... ليست إرثا ولا شعوذة ولا دروشة، دخلنا مغارة الذهب ولكننا لم ... أيدينا وجيوبنا إلا بما يملأ العينين بالخديعة، وما يملأ البطن بالحر... لا تتعجل الأمر وعش التجربة كاملة.

كان يتحدث بسرعة بالغة دون أن يعطيني فرصة للتساؤل، نغادر ... البيوت، نمشي، تغادرنا الأضواء، الأرض المدقوقة تحت قدمي تتحو... إلى أرض رملية تزيغ فيها قدمي، نستبدل ضوء الكهرباء حولنا بضو... النجوم فوقنا، وعلى ذلك الضوء نلمح أشباحا أسطورية، كأنها جلا... صخر تحرك أعناقها وبينها يسعى رجال ويصيحون، توقف الشيخ خلا... وترك يدي والتفت إليّ، جلس على الرمال وأشار لي أن أجلس.

- الآن بعد أن بلغت هذه المرحلة، من حقك أن تعرف الحكاية كلها، ... حقك أن تسأل أي سؤال وأجيبك عنه.

جلست إلى جواره، على ضوء النجوم، لمحت وجهه، أكثر صدقا وتأثرا مما رأيته قط، قال في صوت بطيء:

- بعد اتهامي بقتل السادات هربت من بلدتنا، ضاقت بي حتى القبور في الهروب، خرجت متخفيا إلى القاهرة في القطار، ومنها إلى الصعيد، أنتقل من قرية إلى أخرى، تفزعني نظرة شك فأرتدي ستار الليل وأهرب، عشت في قرى الصعيد والنوبة شهورا متتالية، ذات ليلة نزلت ضيفا على بعض البدو فأخبروني بحكاية درويش غامض في الصحراء

لا يستطيع أحد أن يلاحقه، بقيت طيلة الليل مشغولا، لم أنم، عندما أشرقت الشمس دخلت في الصحراء باحثا عنه، ليس معي إلا ماء وخبز قليل، لن أخبرك أنني لم أتْهْ، يومان كاملان أسير دون علامة حتى كاد العطش والجوع أن يقتلني، ثم رأيته، كان واقفا في ظل أحد الجبال، عندما سعيت إليه كان يبتعد، مثل قمر تطارده في ليل طويل، يبتعد، توقفت، ألهث، ولكنه لم يغب عن بصري، مثل سراب، ناديته، لوحت له بيدي ليتبه لي، نظر لي، ماذا رأى في عيني ليأتي ناحيتي، لا أعرف، أعطاني من الماء والطعام الذي معه، وعندما حاول أن يذهب تعلقت بثيابه، خذني معك، علمني، نظر لي باستغراب وسألني ماذا تريد أن أعلمك، انتبهت لنفسي عندئذ، لخذلاني وخوفي، أيام الهروب التي تركت على قلبي أثرها، كنت مثل كتكوت سقط في مسقاه، لم أجبه على سؤاله ولكني أخبرته أن جميع السبل انقطعت بي فسمح لي بصحبته إشفاقا منه على حالي، وسأخبرك عن بعض ما شاهدته منه في صحبتي معه، كان يتبع القوافل التي تأتي من السودان، يدفع عنها الذئاب، رأيته يهش الذئاب كما يهش أحدنا دجاجة، يلتقط ما يهرب من الجمال، أو يشرد، يحاول أن يعيدها ولكن الجمال كانت تحبه، أنا أيضا أحببته بعد شهر كامل تبعته مثل خادمه الذليل ولكنه طلب مني ذات يوم أن أفارقه، عندئذ تذكرت أني تعلمت منه أشياء كثيرة جيدة لكن الشيء الوحيد الذي أردت أن أتعلمه لم يكن قد علمه لي، كان يمكنني أن أتشبث برفقته وأصبر ولكني تعجلت وسألته بلهفة، علمني كيف تختبئ، كيف لا يلحقك الناس، نظر لي مشفقا وقال: يا

مسكين لقد اختبأتُ تحت الأرض سنوات كثيرة ولم يكن الأمر ... كما تظن، رجوته ضارعا: علمني، مكثت معه شهرا آخر يعلمني، ثم استيقظت ذات صباح ولم أجده....

- ومن هو يا شيخ خليفة ؟

- لا أعرف لا أعرف، بقيت في دراو أسأل عنه خبراء القوافل العائدة، كثيرون أخبروني أنه من الجن، وبعض الناس قالوا لي إنه قطب من الأقطاب، لقد قرأت كثيرا في هذا الموضوع محاولا العثور على طرف خيط، الإنسان الكامل أو «الحقيقة المحمدية»، يسميه الصوفية «قطب الوقت» أو «صاحب الوقت» أو «صاحب الزمان» أو «الغوث»، مسميات عديدة تشير إلى ذروة الوصول إلى الكمال البشري، ولكني غير مقتنع بكل هذا، كل شيء له قواعد وأسرار، ما قاله لي عن فنون الاختباء والتنقل وما علمه لأبيك عن كيف يجعل الحيوانات نحبه ولا تؤذيه، كلها قواعد، نحن لم نصل إلا إلى الموجات التي تنتج من إلقاء حصاة في بئر عميق، هذا الرجل وراءه حكاية طويلة، وراءه كنز من المعرفة، أنا لم أنتبه لذلك إلا من حكاية أبيك، من النادر أن يلتقي الناس صحبا هذا الدرويش فضلا عن أن يعيشا في نفس البلد، قال لي أبوك إنه بعد أن غادر بالجمال التي أعطاها له ندم وعاد إلى النقطة التي افترق عندها وانتظره أن يعود، انتظر أياما حتى مل ثم أخذ الجمال وذهب، كان هذا جزءا من الاختبار، أن يطلب منك أن تفارقه فإذا فارقته انقطع عنك خيط العلم، ما تعلمناه منه كان بداية لشيء جميل عظيم قد نصل

به إلى صلاح العالم يا مصدق، ولكن الدرويش العجوز إما أنه لم يرَ أن مؤهلاتنا تصلح أو أننا فشلنا في الاختبار، لم يهتم أبوك بما حدث كثيرا ونسي، لم يهتم لأنه أحب الحياة، أحب الجمال والسفر ولهفة العودة، أحبكم وأحب أمك أما أنا فظللت الحسرة تأكلني طيلة الأعوام، عدت للصحراء مرة بعد مرة ولكني لم ألتقه أبدا..

- وما علاقة اختفاء أبي الآن بكل هذا..؟

- أبوك؟، أبوك أخبرني أنه سيعود للصحراء باحثا عن الدرويش ليعتذر له عن ذبح الجمل الأصفر، ما كان ليأبه بذلك لو أنه لم يتغير بلقاء الدرويش، أبوك وليّ فعلا يا مصدق، هو الوحيد الذي لم يتبدل من داخله أو يغتر بما تعلمه وما ظهر على يديه، الوحيد الذي ظل خائفا على ضياع موهبته، الولاية هي الخوف، الولاية ألا تأمن، هل تعرف كيف تشرخ زجاجة دون أن تضرب بها الحائط، تجمع فيها وحولها حالتين متناقضتين من الماء، بارد جدا وساخن، الأولياء الحقيقيون هم من يمشون بين الناس دون أن تشرخهم الولاية والتميز لذا قال الله تعالى: (يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) ..

نظرت إلى وجه الشيخ خليفة، هل يكذب الآن في أمر ذهاب أبي للصحراء باحثا عن الدرويش؟

- كيف أجد أبي يا شيخ خليفة، يهمني أبي بالدرجة الأولى، كيف أجده؟

- ابحث عمن يبحث عنه أبوك تجده يا مصدق، ولكن حذار أن تضيع الفرصة إذا أتتك، الكنز يا مصدق.

الإنكار بداخلي شديد وفي قشرة الكلام شروخ النظرات الخائفة من انكشاف الأمر، لكني أخاف أن أطأ بأسئلتي فتضيع مني الفرصة، البحث عن أحبائنا الذين ضاعوا يشبه الصدقة التي نؤديها عن الأموات ولم يأمروا بها، قلت:

- لا أخفي عليك سرا يا شيخ خليفة، لولا وصية أمي وحبي لأبي ما غامرت بدخول هذه الصحراء، هناك أشياء كثيرة لم تتم في حياتي لابد أن أتمها للنهاية.

- أشياء تريد أن تتمها أم أشياء تخاف أن تتم بدونك؟

- أيا كان، ولكن النتيجة واحدة، أنا خائف من الموت...

- هل تريد أن تعيش طويلا يا مصدق؟ احذر، فقد تكون هذه رغبتك عندما تقابل درويش الصحراء أو القطب أو أيا كان اسمه أو وصفه، الرغبات سوءات العقول يجب أن نخجل منها إذا صادفنا الحق الأمثل.

- الحياة الطويلة ليست بمرور السنوات يا شيخ خليفة بل بالتذكر، وأنا عشت حياة طويلة، ولكني خائف من الانقطاع لا من الموت.

قمنا ننفض عن ملابسنا الرمل، دقائق وكنا عند القافلة، بحث الشيخ خليفة عن الخبير وانتحى به جانبا، تبادلا حديثا قصيرا، ثم أتيا ناحيتي، صافحني الخبير قائلا تعليماته لي في جدية وإشفاق:

نحن نمشي ليلا وجزءا كبيرا من رطوبة النهار ونرتاح عند اشتداد الشمس، حافظ على الماء الذي معك، لو كان معك جبن لا تأكل منه كثيرا إذا كان مملحا، لا تغادر القافلة حتى لو كان لقضاء حاجتك الضرورية إلا برفقة أو استئذان، وحاول أن تصاحب أحدا ليتنبه إلى وجودك إذا تخلفت أو اختفيت.......

مضى يسرد نصائحه حتى ختمها بتمنياته لي بأن أعثر على أبي، أخذ الشيخ خليفة مني شنطة الكتف المليئة بالسكر والشاي وأعطاها للخبير فشكره، صافحني الشيخ خليفة بعد أن ساعدني على ارتداء الثوب الفضفاض الأبيض، عندما احتضنني مودعا تحسست جيبه بطريقة حاولت أن أجعلها عفوية، لم أشعر بملمس التمثال الذهبي الصغير، لم تكن آخر الوساوس ولكنها أوثقها بما أنا مندفع نحوه بقدري المحتم من دخول هذه الصحراء الموحشة، هل كان ما رأيته قبل أن أسقط في النوم وهما أم حقيقة، أم بداية انفصالي عن عالم الحقيقة إلى وهم طويل ممتد، تذكرت عندئذ نصيحة الشيخ خليفة:

- حذار أن تستيقظ إذا أدمنت قراءة الإشارات، إذا سرت في طريق الوهم فليكن وهمك هو حقيقتك..

امتطيت الجمل الذي ساقوني إليه، بعد قليل سمعت الخبير يصيح: توكلنا على الله، فتقلقل الجمل أسفل مني مثل صخرة توشك على السقوط ثم وقف دفعة واحدة، وقوف الجمال وأنت فوقها لأول مرة يشبه تلك الشهقة التي تلسع قلبك من انسحاب الدم عندما تركب

المصعد الكهربائي، ولكن عندما يستوي واقفا ستشعر أن الأمر مختلف هنـا، فالارتفـاع مرحلـة انتقاليـة لتنتقـل إليك حكمـة الجمـل وهدوء وستعلم أن متعـة ركوب الشـيء الحـي لا تضاهيهـا متعة ركـوب أفخم السـيارات، إنهـا راحـة التماهـي مع كائـن حي مثلـك ولكنـه صلب لن يخذلـك إلا بالجـوع أو العطش، حتى الجـوع والعطش، الجمل سفينة الصحراء كما يقولون..

ظل الشـيخ خليفة واقفا حتى بدأنا السـير، عندمـا التفتّ للخلف بعد قليـل ونظـرت لم أره، شـعرت عندئـذ بالعزيمـة تملأ قلبي، سـأجد أبي وأعود به.....

الفصل الثالث عشر

أبي ليس شبحًا...

بدأت القافلة في السير مساء أول يوم من بلوغي سن الخامسة والثلاثين، كنا نسير من قبيل الفجر حتى صعود الشمس في منتصف السماء واشتداد الحر، ثم ننصب خياما مفتوحة وننام تحتها قيلولتنا وعندما نستيقظ نصلي، الرمال في ذلك الوقت رغم انكسار حدة الشمس كانت تقذف من باطنها حرارة النهار في وجوهنا وجباهنا فنفرش لها من أرديتنا الفضفاضة على أماكن سجودنا، نواصل السير بعد العصر بقليل حتى بعد أن تغرب الشمس وتختفي معالم الأشياء فنشعل النار ونتسامر حتى يغلبنا النوم.

كل أفراد القافلة سودانيون، ورغم أن الحوار المتبادل بيني وبينهم ظل كبداياته قليلا للغاية إلا أنه كان يتم باللغة العربية الفصحى وبعضهم كان يتحدث بالعامية المصرية الجنوبية (الصعيدية) ولكن هذا لم يكن ليشكل فارقا كبيرا معي في الفهم رغم ذلك، كلا اللهجتين عندما يشتد

أوراها بينهم تستحيل طلاسما عندي، وكنت أسأل نفسي عندئذ لماذا تختلف لهجات الناس باختلاف الحرارة والبيئة، لماذا تختلف مسميات الأشياء، ألم يُعلم الله آدم أسماء الأشياء والحيوانات وكان هذا سببا للأمر للملائكة ليسجدوا له؟..

قال لي الخبير إن رحلة العودة أسرع في الإيقاع من رحلة الذهاب، أقل مؤونة ومسافة وتأخذ أياما أقل، السبب في ذلك أنه عندما تكون معهم الجمال التي يأتون بها من الأسواق في مجيئهم من السودان يحرصون على الاقتراب من مكامن الماء والعشب، حتى في العودة يصبح العبور من نقاط الحدود والجمارك أسهل بكثير، فرجال الحدود يهتمون بما يدخل لا بما يخرج..

كانوا يرسلون أسرع الجمال مع أنشطهم فيسبق القافلة ويملأ الماء من القرى التي نمر بها ويشتري ما تحتاجه القافلة، ولكن عندما وصلنا للقرية الحدودية «أركين» كان لزاما علينا أن ننتظر حتى نملأ كل ما معنا من قِرب الجلد وتشرب الجمال وتستريح، قالوا لي إن أركين هي أول ما يستقبلهم وآخر من يودعهم، هي إحدى القرى النوبية التي نُقلت وهجر سكانها بعد بناء السد العالي فصارت قراهم وبيوتهم أسفل ماء النيل.

في العادة كنا نأكل طبيخا وخبزا، وعندما يتحفنا طاهي القافلة كان يصنع لنا لحما مشويا ولكن في ذلك اليوم كانوا متحمسين، أُتي لنا بوجبة من سمك البلطي النيلي المشوي بالليمون والشبت والكزبرة الخضراء،

أمرونـي أن هـذه الوجبـة تتكـرر فـي كل مـرة في نفـس المـكان كأنهم مرهصـون على وداع النيل بأكل ثماره.

بعد أن عبرنا إلى الصحراء مرة أخرى قال لي الخبير بابتـــامة جميلة وهو يقترب مني بجمله ليحاذيني:

مرحبا بك في السـودان الشقيق.

بعـد أركين أفصحـت الصحراء عن وجههـا المُتعب العتيـق، وكأنها ملـت من مداعبتنـا والتزين لنا على ثوبها الشاسـع ببضـع نقاط خضراء، امتـدت صحراء لا تجامل على مدى البصر، بضع نباتات شـوكية متناثرة وجثـث جمال نافقة مـن وقـت لآخر وعظام بيضـاء تُظهر مآل تلك الجثـث النافقة بعد حين، قال لي الخبير إن هذه الصحراء هي أكثر مكان يخسرون فيه جمالا بسـبب الحرارة والعطش وغفلة الرجال.

قلت:

- افهم أن تموت الجمال هنا، لكن كيف تهرب منكم في هذه المسـاحات الشـاسعة.

- أتفهَّم دهشـتك جيدا، أمر غريـب فعلا، فنحن عادة ما نطعم الجمال التي تحملنـا ونهتم بهـا أكثر من الجمال التي نسـوقها للبيـع والذبح، وهذا كفيل بإرهاقها، ولكن عندما تأتي ساعة الخلاص لا يمكنك تخيل مدى القوة التي تملؤها حينذاك، تجري وكأنها تطير فوق الأرض وتصبح أي محاولة بجمالنا النشـطة فـي مطاردتها عبثا وتضييعًـا لمجهود القافلة.

قلت مشفقا:

- لابد أن هناك طريقة لمنع هروبها، ربطها بالحبال أو محاصرتها جيدا

- لا لا.. الحبال ستعوق سيرها.

ثم ابتسم في غموض قائلًا:

- مهنتي هذه تتطلب قدرة جيدة على الملاحظة، الصحراء تُنيم حواس الرجال، كما قلت أنت منذ قليل اتساعها لا يخفي شيئا لذا لا يلاحظون إلا الأشياء الكبيرة، ولكن عادة تكون الأشياء الصغيرة هي التي تُشكل فارقًا..

- وماذا لاحظت؟

- لاحظت أن هروب الجمال دائما يكون عند ساعتين قبل غروب الشمس أو شروقها.

قلت وكأني أقاطعه أو أسأله:

- وكأن الجمال تهرب ناحية الضوء الذي يولد أو يموت!..

تفرس في وجهي طويلا قبل أن يجيبني:

- لا، ربما كان شيء في عين الجمل لا ينفك عن غريزته ولم يكتشفه العلم بعد، بالإضافة إلى أن الجمل حيوان حكيم وذكي، ربما ينتهز فرصة تعب الرجال بعد نهاية اليوم، أو غفلتهم عند استيقاظهم بعد نوم طويل، خلال كل النهار لا توجد لحظات يصبح فيها الرجال أضعف

،ـما هـم عليه إلا في ذلك الوقـت الذي تختاره الجمـال للهروب، لذا
.ت أكثف الحراسة في الناحية التي تهرب منها الجمال..

ثم قهقه عاليا وربت بود على ظهر جمله:

بهذه الطريقة منعت أكثر الجمال من الهروب بالفعل.

هنأته في خفوت.

ملاحظة جميلة ولكن الجهة التي تهرب لها الجمال ما سـببها، الجمل حيـوان كما قلـت، يتبع غريزته لأقرب المنافذ المفتوحة، جهة شـروق الشـمس أو غروبها لن تصنـع فارقا.

قال في لهجة مخلخلة:

الشـمس تكون في أعيـن الرجال حينئذ إذا طاردوا الجمل الهارب.

صـحت وأنا أضحك عاليا:

لا يـا صديقـي، هذا كثير علـى جمل، أنت تكلم عـن جمل وليـس عن رجل مخابرات في قصة بوليـسية.

قال حانقا:

أخبرني أنت بتفسيرك.

أبـي مربٌ للجمال، كان يخبرني أن الجمـال عزيزة النفس جدا لدرجة تفـوق الإنســان، وخجولة لدرجة أن خجلها يصـل بهـا إلى أنها تتوقف عن معاشـرة أنثاها إذا اكتشفت أن هناك من يراقبها، هل تعرف ما الذي

أظنه الآن، لـم يذبـح أبـي جملا ولـم يـأكل منه، قـال لـي ذات...
الجمـل هو الحيوان الوحيد الذي يمنحنا ظهره فإذا شـاخ أكلناه...
مـن قلة المروءة فينا، الجمال تهرب منك لأنك تجيعها وتطعم...
واعتقـد أنهـا تهرب إلى الجهة التي تأتي منها الشـمس أو تغرب...
قافلة أخرى من الجمال الحرة التي تأكل وتشـرب سـواسية دون...
هذه القافلة يقودها رجل ذكي يعرف كيف يـسـير في اتجاه الضوء...
لا تميّزوا ملامحه أو تتبعوه.

بعينين يلتمع بياضهما بوضوح على صفحة بشـرة سـوداء خصبة...
يتأملني واجمًا، غريبة تلك المشـاعر التي تظهر على صـفحات وجوه...
يختلفـون عنـا في اللـون، إنها تبـدو تافهة جـدا أحيانا أو عميقـة جدا في
أحاييـن أخرى وكأن الشـعور بالآخر فرع على الفهـم والتفهم، كان خبير
القافلة يشعر بالشك وخيبة الأمل.

قال مغيرا الموضـوع تماما:

- هل تبحث عن أبيك فعلا؟

- ولماذا أكذب عليك؟

قال في ابتـسامة فاترة:

- فـي الحقيقة اعتدنا على ذلك، يأتي رجـل ويخبرنا بقصة غريبة ليدخل معنا في الصحراء، وفي الصحراء نكتشـف أن أسبابه مختلفة تماما عن كل ما أخبرنا به، كلهم يبحثون عن أشياء، مغامرة. كنوز. معادن، وكأنهم

.. الحـون أعينا مختلفة عنا، نحن نمر في هذه الصحراء دوما ولم نر قط ... يبحثون عنه، لم نجد سوى الشظف والجوع والعطش والرمال التي ... تسرب إلى طعامنا الجاف فلا تعلم هل تطحن فيه بأسنانك أم يطحن هو في أسنانك.

ثم أردف مبتسما وهو يقول:

لكن الحق يقال، هذه هي المرة الأولى التي يأتي أحد معنا الصحراء بهذه الحجة الغريبة، بحث عن أب تائه، الزمان يتغير.

ليس تائها.

وهل ترى أن بحثك عن رجل في هذه الصحراء شيء ذو جدوى، تركت كل هذا العمار والبيوت وجئت تبحث هنا، أنت حتى لم تصل لحمق ذلك الأعرابي الذي كان يبحث عن شيء فقده، يبحث ويبحث حتى تجمع حوله المارة يبحثون معه، فلما سألوه أين سقطت ضالتك بالضبط فقال: هناك هناك عند تلك البقعة المظلمة، صاحوا مندهشين جميعا: ولماذا تبحث هنا أيها الأعرابي الأحمق، قال أنتم الحمقى فالبحث هنا في الضوء أجدر بالعثور على الضالة من تلك البقعة المظلمة هناك.

ضحكت بصوت عال، قهقه فرحا بأن نكته وقعت موقعا حسنا مني، ألانت ضحكاتنا يبوسة الهواء وحرارته.

قلت بصدق محاولا أن أزيل شكوكه:

- أقسم لك أنني أبحث عن أبي بالفعل، ربما كان أبي يبحث عن شبح ولكن أبي ليس شبحًا، إنه لحم ودم مثلي ومثلك، لحم أعرف رائحته كما أعرف رائحة جلدي.

هز كتفيه وكأنه يحاول أن يزيل أثر إشفاقه عليّ:

- سيان، على أية حال لم أكن أتوقع شيئا أقل غرابة طالما أنك على صلة بالشيخ خليفة.

- وما شأن الشيخ خليفة بالأمر؟

صاح متعجبًا:

- شأنه!! هل تصدقني إن قلت لك إن الشيخ خليفة دخل إلى هذه الصحراء عشر مرات مع القوافل غير المرات التي دخل فيها وحده، الله أعلم بما يفعله رجل في مثل سنه في صحراء كهذه، حتى عندما يكون مع القوافل لا يستطيع إخفاء سلوكه الغريب، أحيانا كان يخبرهم أن يتركوه ويواصلوا سيرهم، وعندما يذهبون إلى دراو يجدونه هناك، هل تتصور ذلك، الرجال الذين يركبون الجمال ومعهم الصحبة والدليل والمؤونة ورغم ذلك كان هذا العجوز يسبقهم إلى هدفهم بسهولة.

قلت محاولًا أن أضغط على حروف كلماتي:

- ولكني لست الشيخ خليفة.

• هـذا ما جعلنـي أطمئن لك فـي البداية ولكـن الآن، لا أكـذب عليك، بدأت أشـك في نواياك، الشـيخ خليفة كان يتكلم مثلك، يؤمن بوجود الأشباح ويبحث عن أحدها في هذه الصحراء.

• وأنت ألا تؤمن بوجود الأشباح؟

• في هذه الصحراء!! حتى الأشـباح ستموت من الحرارة والعطش.

قال الخير محاولا أن يخفف عني:

- على العموم الشيخ خليفة أفادنا في شيء، فلولاه لما صدقت أن رجلا كبيـرا في الســن مثل أبيك يمكن أن يدخل هـذه الصحراء ويصمد فيها حتى تعثر عليه... ولكن دعنا من الشـيخ خليفة وأخبرني عن أبيك، هل تحبـه لتلـك الدرجة، نحن جميعا نحب آباءنا لأنهم سـبب وجودنا في تلـك الحيـاة بالطبع، ولكنهم عندما يكبرون يشـبهون نوبة البرد في عز الصيف..

ضحكت لتشبيهه فسألني:

- هل لك إخوة؟

- اثنان غيري.

- لماذا خرجت أنت إذن؟

لم تكن لديَّ شهية للتحدث في هذا الموضوع المكرر:

- لأنني الأخير.

- ماذا؟

- أنا أصغرهم سنا...

قال وهو ينهي الحوار:

- إحمد الله أن القوافل لا تزال مستمرة في جلب الجمال خلال الصحراء. يقولون إنهم أنشأوا طريقا من دنقلة إلى أشكيت، وهذا الطريق سـ[illegible] كثيرا في حركة القوافل..

....

في هذه الصحراء بدأت الحمى، صداع مؤلم يهيجه أقل تغير للضوء، فكنت أغلق عينيّ مطمئنا لحركة الجمل الذي يحملني خلف رفاقه، ثم بدأت حركة الجمل نفسه واهتزازه تؤلمني وتؤلم عظامي، تكتمت على آلامي وكنت أنحني كأنني أقلل من مساحة الوجع وأتماسك بقدر ما أستطيع لكيلا أسقط، فما الذي يمكن أن يفعله رجال قافلة مثلهم بمريض في الصحراء...

في الليلة الأولى حلمت بزوجتي، كانت تسألني وهي تتحسس جبيني بيدها: هل أنت مريض؟ فأجيبها: لا، قالت لي أخبرني، أنا لست غريبة عنك مثل هؤلاء الرجال حولك، قلت نعم ولكنك بعيدة عني، حملت يدي إليها وجعلتني أتحسس صدرها وبطنها وقالت لي ها أنا ذا قريبة منك فقل لي هل أنت مريض، قلت لها لا، أصبحت غاضبة حينئذ وتركتني.

في اليوم التالي بدأت أجد صعوبة بالغة في الثبات على الجمل، وكنا على مشارف أبنية ما في وقت العصر، كانت تبدو مثل قلاع من العصور الغابرة، وددت ان أسألهم عنها، ولكني شعرت بأنني أدور وانقلب وأن تلك الأبنية صارت لا تنبت من الأرض وإنما تبزغ من السماء، استمررت وقلت في نفسي لو أنني موجود في وضع مقلوب على الجمل سيتبهون، ثم نظرت إلى الشاب الذي كان بجانبي طويلا فقال:

مالك يا زول، لونك مخطوف ووجهك يصبّ عرقًا.

أخبرته أنني بخير وقلت لنفسي إنه طالما أن اللون المخطوف هو فقط ما يلفت نظره فيّ إذن لا شيء آخر، سرنا لساعة حتى بدأ الضوء يخفت وينسحب، وعندما بدأ هواء الصحراء الليلي يجفف العرق مني بدأت أرتعد ولم أستطع أن أقاوم انقلاب رؤيتي للأشياء فاستسلمت أخيرا بعد ساعات طويلة من المقاومة، شعرت بأنني أسقط ولكن قبضتي ماتت على الحبال، صارت الرؤية جانبية وسمعت الرجال يصيحون ويأتون ناحيتي، انقلبت بالكامل وفي لحظة سقوطي من فوق الجمل ورأسي إلى أسفل متجهة إلى الأرض اعتدلت رؤيتي وشعرت براحة عميقة تغزوني، ربما كان هذا هو السبب لفقداني الوعي، ليس اصطدام رأسي بالأرض عندما سقطت، وإنما الاستسلام والراحة..

....

نصبوا لي خيمة ووضعوني تحتها، كانوا يتحدثون بصخب وبسرعة، الخبير ينفي شيئا بشدة، بينما أفراد قافلته يردون عليه، وضعوا في فمي

كبـــولات زرقـاء وجدت لها نكهـة الخوخ بعد قليل مـن صـعود عا
تحللها في مريئي، تذكرت أني لم آكل شـيئا منذ الصباح، ولكني لم أ
القوة ولا الجرأة على إخبارهم، اقترب مني الخبير بعد ساعة من النها
المحتدم ونظر في وجهي في حيرة شديدة ثم قال:

- كيـف وصـل حالك لهذا السـوء، كيـف أمكنـك أن تحتمل، لمـاذا
تخبرنا منذ بداية الأمر؟

ابتـسـمت، لمح تحرك شـفتيّ فأحنى رأسـه ليـسـمعني، ثم عاد برا
وتأملني كثيرا:

- لو استمر بك الحال هكذا فستموت، لا الجو هنا ولا الأدوية التي مع
سـتـساعد.

صمت قليلا ثم قال:

- اتفقـت أنا والرجال علـى أن يبقى أحدنا معك حتـى يذهب البقية إلى
أقرب قرية ويرسـلوا سـيارة بالنجدة، لو تحسـنـت حالتك قبل أن تأتي
النجـدة فـسـتنتظر القافلـة القادمـة لتعود معهـا إلى مصـر وإلـى بلدنا
وزوجتـك، صـدقني، أنت بذلـت قصارى جهدك، لابد أن أباك سـيفخر
بـك لـو كان حيًا ولـو كان ميتـا فلابد أنـه يـسـمعنا الآن، الملائكة التي
تطوف في الأرض سـتبلغه رسـالتي إليه، أبوك رجل صالح وإلا ما كان
رُبّى رجلا مثلك.

ثم صمت طويلا أو انقطع عني صوته في غيبوبة مرضي، ثم سمعته يقول:

والآن.. خمن من سيكون معك من الآن فصاعدا؟

ولكني لم أعرف لأني غبت عن الوعي مرة أخرى.

....

كانت أول يقظتي على صوته، برواية ورش وبصوت جميل كان هناك من يقرأ القرآن إلى جواري، يقرأ من صدره، لا يقرأ بهذا الأسلوب إلا حافظ، صوته يروح ويجيء وكأنه يتجول حول الخيمة أو تلاعب الرياح وجهه.

(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

ناديت: يا زول، فسمعت صوته يرد في همة وتحفز: نعم، أتى وانحنى عليّ مبتسما، أخبرني أنني نائم منذ يومين، وأن الرجال غادروا قبل هذين اليومين، قال: أنا متأكد من أن هناك قافلة في الطريق، وستأتي اليوم، ستمر بنا الآن أو بعد قليل ويجب أن أكون جاهزا، يجب أن تغتسل أولا من عرقك، قُم.

انتقل حماس الشاب من لهجته إلى جسدي، مد يده وجذبني فانجذبت معه، استويت واقفا مستشعرا بقايا نشاط مرتعد، خلف أحد

الجمليـن تعريـت وصبـيت على نفسـي المـاء، ارتديت ملابسـي و عا
تحت الخيمـة المنصوبـة، كان الشـاب قد أخـذ الجمل الآخر وسار
قليلا ليـستطلع، بحثت عن الطعام وأكلت بشراهة لم أعتدها، عندما
الشاب كان الفرح يغمر وجهه، قال لي أبشر فإن القافلة على مقربة، يجب
أن نكون متأهبين..

قمنا بفك أعمدة الخيمة وطيّ قماشها، حملنا الخركين على الجمال
بعد أن انتهينا انتظرنا ساعة تقريبا حتى ظهرت أول بشائر القافلة
على مبعدة، صاح الشاب فنهضت بنا الجمال ولحقنا بها، اقترب الشاب
من جمل الخير وتحادثا لدقائق، ثم عاد إليّ وقال: أشـوف وجهك على
خير يا مصري، الجمل سيأخذه ولد عمي وسـيكون أمانة معه، لا تقلق
بلغ تحياتي لأبيك عندما تجده.

التحـم جملـي فـي لُحمة القافلـة التي لـم تتوقف لحديثنـا، كنت في
المؤخرة عندما نظرت خلفي لأرى الشـاب وقد صار سريعا نقطة صغيرة
ينبعث منها إلى السماء الصافية عامود من غبار..

....

الفصل الرابع عشر

من دفن الدرويش في رمال الصحراء ؟

اليـوم الرابع بعد التحاقي بالقافلة العائـدة إلى الصعيد، يومان مرا في هدوء السـحاب المار في السـماء فوقنا، ويومان لم تنقطع فيهما الغرائب، بدأ الأمر بصوت غريب وكأن الســماء تشـقق فوقنا، ثم تلاه صوت كإطلاق الرصـاص جاء من الشـرق، ذعرت الجمال وكادت أن تنفرط في الصحراء لـولا صـيحـات الرعاة، قال الخبير إن هذا صوت سـقوط بعض الصـخور التي تنهار من خشـية الله، ولكني سـمعت بعض الرعاة يتهامسـون فيما بينهـم بعـد أن عدنا إلى سـيرنا أن هذا الصوت صـوت إطلاق نار حقيقي وربما بين مهربي السـلاح والمخدرات.

عـادةً، كانـت القافلة لا تتوقف للراحة والنـوم إلا بعد منتصف الليل، ولكن في ذلك اليوم أمر الخبير بأن تتوقف القافلة بمجرد غروب الشـمـس، نام الرعاة على الفور، أما أنا وذلك الدرويش الغريب فلم نـنم، ولكننا مع ذلك لم نتحدث كثيرا..

وكأنني نمت، كل حواس الإنسان تنام معه إلا السمع، سمعت ر... الجمال الثائرة القلقة، ثم شعرت بأنفاسها الجافة والزبد القليل المت... من أفواهها قريبا من رأسي فجفلت، إنها طريقة جيدة للوقاية من البرد ا... تنام في الصحراء في ثلاثة أرباع دائرة من الجمال الباركة حولك، ولك... طريقة جيدة أيضا لالتقاط عدوى الخوف والتوجس منها، كان الظلا... لا يزال تاما ولكني تنصّتّ لحركة خير القافلة الجديدة بين أكوام المتا... والناس النائمين وسمعته يصيح:

- لا تقلقوا... لا تقلقوا، فمعنا الرجل المبارك...

في عادة الأمر كان الخير يرسل المؤذن بصوته الجهوري ليصيح ... النائمين ألا يقلقوا لقلق الجمال التي ربما تكون قد شمت رائحة حيوا... يقترب أو غرباء في الغالب قد يكونون لصوصًا، يرسل من يستطلع الأ... ويأمر المؤذن بالنداء، ولكنه يمر بنفسه الآن، لم يفعل ذلك من قبل!..

عندما مر بنا لم يصح الخير بما ظل يصيح به بين الصفوف: الرجل المبارك معنا، فالرجل المبارك منذ سمع من أفراد القافلة عني، عن الا... الذي يبحث عن أبيه، لم يعد يبيت إلا بجواري، لا يمل من سؤالي ع... حكاية أبي الضائع، كانت رحلة العودة قد طالت ولكن لازمني شعو... منذ مقدم الليل أن النهار القادم سيكون مميزًا، كل يوم تقريبا منذ لازمني ذلك الدرويش كان يأتيني ذلك الشعور بشكل أخف، لعلها إحدى بركا... التي أُنكرها وأُنكر تهافت السودانيين على تناقلها وحكايتها بعد ما رأ... من عبادته وصمته ونُبل عينيه.

لكـن هـذه الليلة كانت مختلفـة بالفعل، حتى الجمـال كانت تعجل الضوء، أما أنا فمنذ رافقني هذا الدرويش صار تعجل الضـوء عادة أخرى ملازمة لـي، أنتظر الضـوء لأرى وجهه وأتأكـد أن ما دار بينـي وبين هذا الرجل المتصوف من حوارات تم في الحقيقة..

حكـى لـي أحد رجـال القافلـة أنه لم يكن مـع القافلة أول ما سـارت من الســودان:

وجدنـاه في طريقنا قبل ثلاثة أيام من التحاقـك بنا، وجدناه في أغرب وضع يمكن أن تجد عليه إنســانا.. جـاء ذلك تزامنا مع بدء نفاد الطعام منـا، قام الخبير بجمـع المال من أفراد القافلة ليذبح فصيلا من الجمال التـي ستُباع، توقفنا ونحرنـا ثم تفرقنا شـرقا وغربا لنجمع الأعشـاب الجافة والحطب لإشعال النار التي سنطهو بها.....

انتبهنـا على صوت أحد الرعاة وهو ينادي ويلوّح بذراعه، كنت بعيدا جدا وعندما وصلـت كان رجال القافلة يذهبون ويعودون من منطقة كثبان رمليـة كجماعة من النمل وجدوا قطعة ملقاة من الحلوى، عندما وصلت إلى ما تجمعوا حوله ســمعتهم يهمســون: الدرويش.. الدرويش، دفعت النـاس لأراه، رأيـت رأسـا بازغـة فوق الرمـال، لم أعـرف أن تحت هذه الـرأس جســدا إلا عندما تحركـت الشـفاه، كان هذا الرجـل مركز الدائرة فـي حفـرة مدفونـا فيها إلـى عنقه، عندمـا أفقنا من دهشـتنا بدأنـا بالحفر حولـه بأيدينا، جذبناه وأخرجناه، بدا جلده في ضـوء الشـمـس أبيض مثل جلـد صـرصـار انشـق لتوه عن غلافه، متراخي الأعضـاء مثل أوراق نبات

المستحية، أتوا له بالماء ليشرب وكأنه نسي مكان فمه أو كأنه لم يشـ
منذ عام، نصف الماء سقط على صدره وذقنه الطويلة والنصف الآ
سقط في فمه بضجة يفكك يبوسة جوف محترق بالعطش..

....

تُرى... ما حكايته؟، أيكون ضحية لصوص أو مهربين؟، أم ضحـ
رغبة صوفية في دفن نفسه بالحياة عقابا لها على ذنوب يراها كالجبا
ونراها نحن كالحصى؟ في كل حواراتنا كان يناديني بيوسف رغم أني
أخبره باسمي في كل مرة يفعل فيها ذلك..

- أنا مصدق، أو صديق، الخيارات كما ترى كثيرة، ولكن لا تنادني باسم خطأ.

- أناديك باسم خطأ لأني أحب أن أسمع اسمك منك..

سألته في نوع من سخرية:

- ولماذا يوسف بالذات من بين كل الأسماء؟ رغم وجود الآبار والأخوة الباحثين في حكايتي فلست بيوسف.... فالبحث دائر عن الأب وليس الابن.

وكأني أؤذن للصلاة في بلاد الكفر، أو أنه لا يسمعني..... لكنه بعد صمت طويل أخبرني:

- أنا أخاطب أي شخص أحبه بهذا الاسم، يوسف، وأنت قريب الشبه جدا من أحد ما أحببته كما لم أحب أحدا في هذه الدنيا.

قان اسمه يوسف؟

لا، ولكنه مات في بئر كما خطط أخوة سيدنا يوسف أن يفعلوا به لولا أن أنقذه السيارة.

مجاز في مجاز.

المجاز لا يجعل عينيك تدمعان كلما رأيت بئرا أو شممت رائحة الماء.

ارتعد قلبي فسألته:

لهذه الدرجة كنت تحبه؟

- نعم، أنا أسمي أي شخص أحبه بهذا الاسم لكي ينجو إذا نزل البئر.

قلت لأغير الموضوع:

- وأين كان هذا البئر؟

- في مكان بعيد جدا عن هنا، كانوا يسمونه بئر الملائكة.

صمت غريب يهبط على الدرويش هو نهاية طبيعية لحوار مثل هذا الحوار، لن تجد سهولة في التأقلم مع درويش لا يأكل كثيرا، لا يفتح فمه إلا ليتكلم، ولا يتكلم إلا عندما يأتي الليل وفي غير وجود رفقة، إيقاع القافلة البطيء كان يجبر الجميع على مد أواصر الود والحكي فيما بيننا وكان لمجيء الدرويش مفعول مهدئ وملطف لي في حرارة الصحراء.

....

في تلك الليلة سمعت صوت الدرويش وهو يقول لي في الظلام عندما لاحظ قلقي:

- نحن قريبون من الماء، الإبل تشم رائحة الماء عندما يصفو الجو فتثيرها.

الجمال بالفعل لم تشرب سوى مرة واحدة فقط منذ أكثر من خمسة أيام، الجمال تصبر على العطش طويلا ولكنها نهمة جدا عندما تشرب، تميز رائحة الماء من على بعد أميال، ربما كنا على مشارف مدينة أركين المدينة النيلية، ولكن ذلك الليل يبدو وكأنه لا آخر له، أقسم أنني شممت رائحة الفجر منذ قليل كما شمت الجمال رائحة الماء، أضاءت شاشة ساعتي بزر صغير، كانت الثانية بعد منتصف الليل، ظللت ضاغطًا على الزر وقمت بتوجيه الساعة لأرى وجوه السودانيين الثلاثة فسمعت متذمرًا نائما منهم يقول: ششششش فأطفأت الضوء، أي ضوء في تلك الصحراء يبدو مريبا، ربما هو عينا ذئب متربص، في قريتي كان الناس يهربون من الذئاب في الماء، الذئاب تخاف أن تلج الماء، ولكن أي ماء سنجده في تلك الصحراء إذا ما هاجمتنا الذئاب ؟

حتى تلك البنادق العتيقة التي أكلتها الرمال وأيدي الرجال الخشنة تبدو وكأنهم عثروا عليها في الصحراء من مخلفات حرب قديمة، ربما انفجرت في يد مطلقها، لا تصلح إلا للضرب بالكعوب الخشبية.

سمعت الدرويش يقول مرة أخرى:

- لا تقلق.

- لست قلقا.

لقد أفسد مؤمن وخليفة عليَّ روحي، لولاهما لوجدت في ذلك الدرويش صديقا مثاليا، الدراويش الذين يعبدون الله بالحب، ومن عبد الله بالحب فقط تزندق كما قال لي مؤمن ذات مرة، ولكن ماذا عمن عبد الله بالعلم دون حب أو بالخوف دون حب، الحب يشبه ملح الطعام، يصلح كل شيء ويفسد كل شيء، لم أر درويشا في حياتي من قبل عدا الشيخ خليفة، درويش نمطي يتكلم بالألغاز، يجمع قوالب الطوب الأحمر من الشوارع ولا يركب المواصلات وينام في المقابر ويصلي وحده إلى قبلة منفردة، ولكن هذا الرجل طرازٌ مختلف تماما، الشيخ خليفة لم يدفن نفسه في الرمال إلى العنق، وكان يتكلم كثيرا ويجيب على الأسئلة دون أن يسأل، أما هذا فكل بداية حوار دار بيننا سؤال منه:

- ما حكايتك؟

سألني الدرويش فأجبته في شبه سخرية:

- أنا؟

- نعم.. أنت.

- أنا لم أدفن نفسي في الرمال.

- هذه حكايتي أنا، لا تحكيها حتى بشكل جيد، ومن أدراك أني دفنت نفسي في الرمال.

- ربما دفنك المهربون... أو كنت تختبئ من ذنب.

عندما قلت ذئب، سمعت نفس المتذمر النائم يقول:

- شششششش، الأشياء الخبيثة تأتي إذا ذكرتها.

أضاءت شاشة ساعتي لأرى وجه المتحدث، ولكني أقسم، إما شيئا هذه المرة، لم أر وجوهًا، رأيت جدارنا من الطين تعترض ر تحيط بنا من الجهات الأربع فارتعبت، درت بشاشة ساعتي شمالا و فأمسك الدرويش بيدي وسمعته يقول:

- لا تقلق النائمين، النائمون نصف أموات ولكن لهم حقوق الأمو كاملة لا ينقص منها شيء.

تنهدت قائلا:

- هذا الليل طويل أيها الدرويش.

- الليل يطول إذا ابتعدت السماء عن الأرض، انظر للسماء فوقك، هل ترى نجومًا؟

انتبهت ونظرت:

- لا.... لا أرى نجوما، كم هذا غريب.

- هذا لأن السماء فوقنا بعيدة.

- وهل تملك السماء أن تقترب منا أو تبتعد عنا؟

- لا.. السماء مخلوقة مثلنا ولكنها مأمورة، رب السماء هو من يفعل لينأى بها عن وساخات البشر.

ساد صمت تفكر بيننا بعد إجابته، تحسست الأرض تحتي، كان ملمس الرمال كالطين الرطب، حركت يدي في الظلام حولي فعثرت على جزء من وجه الدرويش، لحيته وتجاعيد وجهه، حرك فمه وقال:

احك لي حكايتك كاملة وسأخبرك عما تبحث عنه.

من أنت؟ هل أنت الدرويش الذي يبحث عنه الشيخ خليفة؟

أنا رجل مسكين، أعيش في هذه الصحراء منذ أن كان عمري مثل عمرك الآن..

إن حكيتُ لك حكايتي هل ستخبرني بسرك؟

طبعا، لا هدف لي من اصطحاب القافلة إلا أنت.

....

على مدى ساعة حكيت للدرويش كل شيء، حكيت عن أبي وأمي والشيخ خليفة وعن أخويّ مؤمن وخليفة، حكيت له عن زوجتي التي هجرتني، عن اختفاء أبي وعن عم يحيى وحكاية المقام والكنز المدفون تحته، عن لقائي بالشيخ خليفة وذهابنا إلى دراو، وعن رحلة الصحراء والحمّى التي أصابتني خلالها...

لم يفتح الدرويش فمه بكلمة طيلة حديثي، أشرق القمر وصعد إلى الثلث الأول للسماء فأضاء وجهه، بدا لي وجهه مريحا بشكل مدهش، وكأني لم أنتبه لذلك إلا الآن، يشبه وصف مؤمن لي لشيخ الطريقة الذي قابله في يوم الحضرة، شيخ عجوز جدا، شعر حاجبيْ عينيه كثيف مثل

مظلتين فوق جبهة مشرقة تربض تحتهما عينان كتوأمين، كأنهما تستظلان هناك من إشراق جبهته، كل عين منهما لها شخصية مستقلة، ولكنهما متشابهتان، جالستان هناك تمارسان رياضة ذهنية ما: تأمل وجوه الناس، كل شعره أبيض مائل إلى اصفرار كاصفرار قش الأرز، شعر لحيته وشعر رأسه، باختصار له وجه كحقل أرز مشمس وقت الحصاد.

في عينيه مزيج إشفاق من عناء ما قاسيته في رحلة بحثي عن أبي، وقف ونفض مقعدته من الرمال وقال:

- تعال معي.

دون مقاومة مني تركته يأخذ يدي، مشينا طويلا ولكني لم أشعر بتعب كأنني أمشي في حلم يدخر التعب لوقت الاستيقاظ منه، كنت متيقنا بأنه سيقودني إلى أبي وكان هذا كافيا لي..

قال لي اجلس فجلست على الرمال، قال إنه ابتعد بي عن القافلة لكيلا يسمع حديثنا أحد:

- حكايتي تشبه حكاية أبيك والشيخ خليفة، فيما مضى من حياتي كنت أعمل في هذه الصحراء في معسكر من معسكرات التنقيب عن الفوسفات، في يوم لا أنساه أبدا سافرت مع السائق الذي يذهب دوريا لإحضار الماء والطعام من المدينة القريبة، في الطريق تعطلت بنا السيارة، كانت المسافة بعيدة جدا عن العودة إلى المعسكر وأكثر بعدا عن المدينة، اتفق رأينا على البقاء بجوار السيارة، نحتمي من وهج الشمس بالاختباء أسفل هيكلها وننتظر حتى يأتوا في أثرنا باحثين عنا،

في اليـوم التالـي بدأ المـاء والطعـام ينفدان منـا فأصابنا يأس شـديد، بعـد ظهيـرة اليوم الثالـث اتفقت مع السـائق أن أذهـب أنا وأحمل معي مـا تبقى من مـاء وأحاول اختصـار المسـافة بالعودة إلى المعسـكر عن طريق البوصلة في خط مسـتقيم، الطريق من الجبال التي كنا نستكشف فيها والمكان الذي تعطلت فيه سيارتنا كان خاليا من أي علامات، ولا حتـى شـجرة واحدة أستطيع الاطمئنان منهـا على صحة اتجاه السـير الـذي بدأته، مضيت أتخبط في صحراء مثل ورقة كراسـة صفراء ليـس عليهـا خط واحـد، حاملا معي مصير روحين، أنا والسـائق المسـكين الذي مزق قلبي في لحظات يأسنا بحكاياته عن بناته وزوجته، لعل هذا هو سـبب حرصي الشـديد، ملأني العزم على إنقاذه، وضعت لنفسـي علامـات لكيـلا أدور فـي دوائر ودعـوت اللـه ألا تهب الريح فتسـفو الرمال فوقها وتغيبها، أيضـا سـتكون سـبيلي فيما بعد للعثور على مكان السـائق وسيارته..

في تلك الصفحة الصفراء ظهر لي خيال أسـود لإنسـان يسـير في رفقة جمـال، ولمـا كنا بعيديـن عن طرق القوافل لم أشـك لحظة أنه سـراب، ولكن مهما علمت عن السـراب وزيفه وضلاله فستبع لماعة الأمل التي سـيبثها في أطرافك، كلما لاح لي اتبعته بل ظننـت أحيانا أن ذلك الإنسـان يشير لي لأتبعه، وعندما بلغ بي الإرهاق مبلغه سقطت على الأرض وقبل أن أغيـب عن الوعي سـمعت صوت كلاب المعسـكر وهـي تقترب مني بنباحها...

- وصلت للمعسكر؟

- طبعا، أرشدني هذا الشبح الغريب، وعندما أفقت أخبرت عاملين معا من العبابدة عن العلامات فاتبعوها سيرا على أقدامهم وذهبوا للسائق وأحضروه، نجونا وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتوه فيها أحد في هذه المنطقة من الصحراء وينجو.

- ومن هو هذا الشبح؟

- هذا ما آليت على نفسي أن أكتشفه، طيلة سنة كاملة أراوح في إجازاتي بين بيتي وبين اصطحاب السائق للمدينة، أطلب منه أن يسقطني قريبا من الجزء الذي تهنا فيه من قبل ويستمر هو في طريقه ليلتقطني عند عودته من نفس المكان، أضع علامات وأدور في دوائر باحثا عن ذلك الدرويش حتى عثرت عليه بعد سنة كاملة، قريبا جدا من نفس المكان الذي رأيته فيه أول مرة، تبعته حتى رآني، ناديته ورجوته أن ينتظرني معي.

- ومن عرفت من هو؟

- ... إنه الدرويش، رجل مبارك اعتزل حياة الناس، وأحب الصحراء، ... ـة، كان هذا آخر عهدي بالمعسكر فقد تبعته منذ التقيته، نسيت أولادي وزوجتي وأنست بصحبته حتى مات ودفنته قريبا من هنا، عند مدافن الصحابة الذين أتوا مع عبد الله بن أبي السرح، هكذا أوصاني..

مضى يحكي لي عن عبدالله بن أبي السرح، كيف ارتد عن الإسلام بعد أن كان كاتبا للوحي ورغم ذلك عندما ذهب للنبي يطلب الصفح عنه لم يأمر بقتله، قال عباد بن بشر بعد أن عفا عنه ألا أومأت إليّ يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إليّ فأضرب عُنقه، فقال الرسول ﷺ: «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين».

- لولا هذه السجية الطيبة من النبي ما وصل الدين إلى هذه الأرض.

صحت أقاطعه:

- إذن مات الدرويش الذي أتى أبي للبحث عنه؟

- لا.. لم يمت بعد، وإن كان ينتظر الموت.

- ألم تقل إنك قمت بدفنه بعد أن مات قريبا من هنا.

- افهمني يا مصدق، الرجل الذي التقاه أبوك والشيخ خليفة ليس ذلك الدرويش الذي التقيته أنا.

- من هو إذن؟

- إنه أنا يا مصدق، أنا الدرويش الذي أعطى أباك الجمال والجمل الأصفر.

....

قلت في ذهول:

- أنت مؤمن؟

ابتسم قائلا:

- لا... اسمي يوسف، لم أخبر أحدا بهذا الاسم منذ سنوات طويلة

- ولكن أنت أخبرت أبي أن اسمك هو مؤمن، وأن لك صديقا اسمه مصدق، لذا سماني أنا وأخي بهذين الاسمين تيمنا بكما.

- فعلا، ولم أكن أكذب، فالأسماء مثلها مثل العقيدة، ليست إرثا ملزما، أنا أحببت اسمي، يوسف، ولكني أحببت ذلك الدرويش أكثر مما أحببت اسمي.

- إذن كان الدرويش الذي علمك هو ذلك الصديق الذي أخبرت أبي عنه.

- بالضبط، الشيخ مصدق.

صحت في دهشة:

- على اسم من تسميت أنت إذن، ألم تقل لأبي إن اسمك مؤمن؟

- سأحكي لك كيف تم الأمر، منذ ستمائة عام وقريبا من هذا المكان أتى من إحدى دول المغرب العربي رجل صالح وأقام هنا، كان اسمه مؤمن، واجتمع حول خيمته كثير من الصالحين من القبائل التي عاشت هنا، صحبوه وتعلموا منه وعبدوا الله معه وصار له منهم تلاميذ ومريدون. ألزموا أنفسهم بخدمة التائهين والجرحى ورجال القوافل والنازحين من الحروب التي دارت غرب البحر الأحمر،وبعض الذين كانوا في حاجة إلى علاج أنفسهم بعزلة الصحراء، حتى تسامع الناس عنهم

وصاروا مأوى، وأخذ العهد على من تلاه من أجيال أن يفعلوا كما يفعل، بعض الناس قالوا إن هذا الشيخ الأول هو ذاته الإمام الشاذلي، ولكني أعلم يقينا أنه لم يكن الإمام الشاذلي، فالإمام الشاذلي لم يقم هنا وإن مر في رحلات الحج إلى مكة من هنا، علاوة على أن شيخي الشيخ مصدق سماني على اسم هذا الدرويش الأول، مؤمن وليس الشاذلي..

وكيف جاء اسم مصدق إذن؟

ضحك قائلا:

لك الحق أن تعرف الحكاية لأنه اسمك، كان لذلك الدرويش الأول فيما مضى من حياته صديق، أحبه كما لم يحب أحدا في حياته، وكثيرا ما كان يحكي لتلميذه المقرب عن ذلك الصديق وعن افتقاده له فطلب منه تلميذه أن يناديه باسم صديقه القديم هذا، كان اسمه مصدق، وعندما مات الدرويش ظل هذا المريد وفيا محبا للمكان الذي عاشا فيه كصديقين، ولم يرض أن يناديه أحد باسم غير اسم مصدق، وتوارث مشايخ الطريقة هذين الاسمين وفاء وحبًا للشيخين الأولين..

طريقة غريبة لاختيار الاسماء.

حتى الأسماء المتشابهة تحمل حكايات مختلفة يا مصدق، حتى الاسم الواحد يحمل تأويلات شتى، هل تعلم لماذا سمى الناس درب الأربعين بهذا الاسم؟

قلت في حذر:

- يقولـون لأنـه طريق يصـل بين مصـر والسـودان وتسـتغرق القافلة ٤٠ أربعين يوما.

- لا.. لم يسمَّ لهذا السـبب، سأحاول أن أبسّط لك الأمر، عندما يولد الأطفال الصغار كيف يُسمونهم؟

- يخترعون لهم أسماء.

سألني العجوز عندئذ وهو يبتسم:

- من الهواء؟

- لا..أسماء أقارب لهم يحيون ذكراهم، أو أسماء مشهورة.

- بالفعل.. وعندما يأتي غريب من خارج العائلة فيسأل الطفل: ما اسمك أيها الصغير، فيجيبه الطفل باسمه الذي سُمي بـه، هل يمكن للغريب أن يخمن لماذا سُمي الطفل بهذا الاسم ما لم يكن حاضرا ولادته وتسميته.

- لا.. طبعا.

- كذلك كل أسماء العالم لها أصل قديم وإن حمّلها الجهلاء بصفات ليخدعوك، هذا الطريق سُمي بالأربعين منسوبا إلى من عاشوا فيه منذ زمن بعيد، عمّروه وحملوا معهم الزاد والماء للتائهين فيه، أربعون رجلا تلاميذ هذا الدرويش وصاحبه الشاب الذي صار خليفته من بعده وتسمى باسم صديقه.

مؤمن.

نعم، مؤمن وتلميذه مصدق وتلاميذهما عبر ستة قرون وأنا منهم، كانوا لا يحملون صفة كما الجنين في بطن أمه حتى سماهم الناس وسموا الطريق بعدد الجيل الأول من التلاميذ والمريدين، درب الأربعين مريدا، أربعين طريقة ولكنهم درب واحد...

وما حكاية مؤمن ومصدق الأوَّلين، كيف التقيا في بداية الأمر وكيف افترقا؟

كانا رفيقيْ خيمة واحدة في حرب غريبة، جمعهما حب الدين والعقيدة وافترقا لنفس السبب.

كلام الدرويش الغامض جعل الأسئلة بداخلي أكثر من أن تدعني أمتلك ترف أن أسأله عن الحرب أو عن وجه غرابتها، فالحروب في منطقتنا لا يوجد أغرب منها، تشتعل وتنطفئ دون سبب ولا نتيجة نهائية مثل حرائق الجان ولكن تبقى آثارها فقط على الوجوه والأماكن والتاريخ.

- ولكنك عندما التقيت بأبي والشيخ خليفة علمتهما أشياء مذهلة...

- كُلٌّ ميسر لما خُلق له يا مصدق، أنا لم أفعل إلا أن أبصرت أباك جيدا وجعلته يسير في طريق موهبته بنصائحي، في هذه الصحراء وخارجها رجال مثلي وأغزر مني علما، دائما ما كانت أمي تقول لي هذا: في الزوايا خبايا يا مؤمن.

- فعلا، لقد عشت مع أبي طيلة عمري واكتشفت أنني لم أكن أعرف عنه شيئا.

ساد صمت متأمل بيننا ثم قلت:

- ولكن أخبرني، لماذا دفنت نفسك في الرمال، وأين تلاميذك ومريدك، وهل جاء أبي والتقاك..

قاطعني وكانت الشمس قد أوشكت على الشروق:

- هذه أسئلة كثيرة يا مصدق، هيا نعود أولا إلى القافلة لئلا نفقدها.

....

عندما وصلنا كانت القافلة قد تأهبت للمسير، وكان السودانيون قد تفقدونا أنا والدرويش فلم يجدونا فبدأوا يبحثون عنا حتى سرى القلق في صفوف القافلة، استقبلنا وجه الخبير الغاضب ولكن غضبه سرعان ما لان بمجرد أن ابتسم الدرويش في وجهه...

سارت القافلة، وصرنا نتحدث أنا والدرويش كلما تيسرت لنا الخلوة.

- لو صح الوصف فالطريقة التي أنا شيخها الآن ليس لنا مكان نجتمع فيه، وإن لم يلتقِ اثنان منا في هذه الصحراء مصادفة نادرة فنحن نلتقي في عذاب سنويا، نجدد العهد ونتبادل حكاية سير مشايخنا الأوائل..

- وماذا تفعلون في الصحراء؟

نحـن في حالة عزلة وحمية من علاقات الناس، نرشـد التائهين ونتعلم الحكمة من الرمل والعشـب القليل..

وتدفنون أنفسـكم في الرمال..

- نحن نتكلف الدفن لاستدعاء ذكرى الموت إلى العقول اللاهية..

- ولكن أبي لم يكن يدفن نفسه.

- أبـوك لم يطلـب الرفقة، لم يأخذ العهد على نفسـه ولـم يطلب مني أن أعلمه، أبوك لم يكن تلميذا لي.

- ولكنـه أحبك، لولا هذا ما تكلف السـفر ليطلب غفرانك له على موت الجمل الأصفر.....

- وأنا سامحته..

سـألته عندئذ بلهفة:

- إذن قابلت أبي؟..

أقسـم أنني رأيت جواب سـؤالي على فمه الذي تحرك للحظة ثم عاد فسـكن ثم عاد مرة أخرى وتحرك ليقول:

- هذه رحلتك أنت يا مصدق، اكتشف بنفسـك وعش تجربتك كاملة..

كـدت أن أصيـح فـي وجهـه، لـم أتكلـف مشـقة المجيء إلـى هذه الصحراء إلا لأسـألك عن أبي، ولكن وجهه البـاسـم الذي يشـبه حقل قمح

ناضج العيدان تغزوه الشمس، شعرات لحيته التي تشبه شوك سنبلا،
الغلة وتغري باللمس جعل الكلمات تولد عند فمي هامسة:

- لم تره إذن؟

- اسألني يا مصدق عن غير أبيك، اسألني فعما قريب سنفترق، نحن
قريبان من قرية الصحابة التي دفنت عندها شيخي وسأمكث هنا
لأيام وبعد ذلك سأذهب لزيارة الشاذلي وهناك قريبا من البحر سأنتظر
الموت فقد أصبح قريبا مني...

- لا أريد أن أسألك عن شيء غير أبي، لم أدخل هذه الصحراء إلا من
أجله، إن لم تكن قد رأيته فسأعود إلى زوجتي وولدي وأخوتي.

وكأني أسمعه وهو يقول في حزن:

- بارك الله لك فيهم.

وكان هذا آخر ما دار بيننا من حديث.

....

الفصل الخامس عشر

داخل الحفرة...

في مكان لا ملامح له من الصحراء فارقنا الدرويش، استحث جمله حتى حاذى الجمل الذي يركبه خبير القافلة، أخبره برغبته ودعا له وشكره، استمرت القافلة في السير بينما انخنا جمالنا أنا والدرويش والخبير الذي اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقبل كتفي الدرويش ورأسه وانحنى ليقبل يده فلم يمكنه الدرويش منها، وعندما جاء دوري لتحيته صافحته كما يتصافح النذّان مستدعيا إياه أخي مؤمن يوم الحضرة في المسجد وإن تنازعني الشوق للتجربة عندما تذكرت وصف أبي لأنفاسه: لها ثقل الصمغ ورائحة عطرية مثل صفحات كتاب قديم مليء بالحكمة.

قال:

- يعلم الله وحده يا مصدق كم أحببتك، ولو كان يصح للشيخ في طريقتي أن يطلب صحبة تلميذه لطلبت منك أن تصاحبني..

وربط الخبير مقود جمل الدرويش في أعلى بطان جمله، وظل الدرويش واقفا حتى ركبنا جمالنا وأصبح خلف ظهورنا، ومن شدة غضبي منه لم أنظر خلفي.

....

- رجل طيب مبارك.

قال الخبير وهو يستحث جمله فلم أجبه، صعدت في رأسي نافورة ساخنة من الدم وصعدت معها عشرات الصور المتخيلة، سير أبي بالجمال عندما فارق الدرويش وندمه الذي لم يحكه لي، ندم الشيخ خليفة ونصائحه التي بدأت الآن تدق رأسي دقا سريعا متصلا، وكانت خواطري تلك كفيلة بأن تحني رقبتي لأنظر خلفي، الدرويش الذي صار نقطة سوداء بعيدة، وفي لحظة غريبة انفتح قلبي وتسرب إليه الوهن (أو العزيمة) فقررت:

- سأنزل هنا.

التفت إليَّ الخبير مندهشا وكأنه لم يسمعني، كررت طلبي فصاح:

- أين يا مصري؟

- هنا، أريد أن أسأل الدرويش عن شيء.

- هذه صحراء، لن تستطيع العودة وحدك، ستموت.

ا بد أن أسأله عن أبي، كل هذه المدة ولم يخطر ببالي أن أسأله، فهو يسافر كثيرا في هذه الأنحاء وربما يكون قد التقى به.

حسنا حسنا.

أناخ جمله وانزلق بسرعة قائلا وهو ينيخ جملي بدوره:

ستلحق بالدرويش فأنت أسرع منه في الخطى، إذا تهت فاجعل الشمس ساعة الشروق خلف ظهرك وامش، لن تمشي كثيرا، ستجد قرية صغيرة.

شكرته وعانقني، والتمعت في صفحة عينيه نظرات حزينة:

أنا مطمئن لأن هذا الدرويش لن يضيعك أبدا، الحق به، هيا.

....

ذات مرة قال لي أخي مؤمن إن الحكايات بريد الكذب إلى القلب كما أن الأغاني بريد النفاق، لسبب لا أعلمه تذكرت جملته تلك وأنا أسعى خلف الدرويش، ربما هو من الوهن الذي يأتي بعد العزيمة أو التذكرة التي تأتي بعد الحماقة، أو ربما كان تفاعلا بيولوجيا بين عقلي وأعضائي التي أخذت في الصراخ بالشكوى وأنا لا أستطيع اللحاق بخطى الدرويش وإن ظل أمامي نقطة ثابتة في الأفق، تكبر وتخفت مثل خيط عنكبوت واه معلق في قرص الشمس ينفخه اليأس فيبتعد ويجذبه الأمل فيقترب.

أحاول أن أتنفس من أنفي كما نصحني أبي ذات يوم، أتنفس فتصارع أنفاس زفيري وشهيقي في أولوية الدخول والخروج فأتنفس من أنفي

وأزفر من فمي المفتوح، ناديت، هل ناديت؟ من الحماقة أن تنادي في صحراء صرف لا ترد الجبال صيحتك فيها، وإنما هي موجة صخب في داخلك لا يجعدها شاطئ فتذوي سريعا، من الحماقة أن تنادي وأ. تجري فتشبط قدميك الرمال لتحيل هرولتك إلى سعي خافت النبض في جبروتها وتتهدج خيوط أنفاسك فتعرقل قدميك وتسقط وتتسرب الرمال إلى حذائك وفمك وعرق ظهرك ووجهك.

اليأس هو أن تفقد ما يدفعك في ظهرك، ولكن يظل أمامك ما يشد خلفه بالقصور الذاتي لفزعك من أن تفقد معه آخر خيط للأمل، والر هي ما جعلتني ساعيا خلف الدرويش، بعد اليأس وعندما أوشك الشمس على المغيب انطلق كل الفزع في داخلي مثل سرب من يا سوداء أمام عيني، صحت صارخا وأنا أنادي، تذكرت أبي وأمي وزوج ومؤمن وخليفة فبكيت، وكانت دموعي ساخنة جافة لدرجة أني لم أشع بها على خدي ولكنها شوشت رؤيتي بكفاءة أخزتني، ففي اللحظة التي فقدت فيها رؤيتي تماما بسبب الظلام والدموع سقطت، وكانت الأرض بعيدة، بعيدة بشكل لم أتمكن من تفسيره في البداية، ولكن ثقب الحفر كان محكما على جسدي بشكل لم يعوق انزلاقي فيه بيسر، وكانت ذراعاي لأعلى مع السقوط بطريقة تجعل إيقاف انزلاقي فيها ممكنا إذ تشبثت، ولكني لم أتشبث، لم أتشبث.

....

الفصل السادس عشر

سر صاحب الوقت...

لم أكن أحلم، سقطت في الحفرة فأغمي عليَّ فورا، سمعت شخصا يتأوه وأنا في إغمائي، كان أنا، متى يبدأ الحلم ومتى تنتهي الحقيقة، لم يعد الألم مقياسا لليقظة..

تحسست بيدي جدران الحفرة، وكان قاعها يسمح بالجلوس في وضع مريح رغم أن الفتحة التي سقطت منها كانت ضيقة، مثل مريء يؤدي إلى اتساع معدة، أسندت ظهري ونمت مرة أخرى وكان باطن الأرض دافئا، لم يوقظني إلا الضوء يتحسس حواف حفرتي، وقفت متجاهلا آلام عظامي وأخذت أصيح، ولكنها صحراء، حتى لو كنت فوق الأرض وصحت فلن ينجدني أحد، أيقنت بالهلاك فعدت للجلوس مرة أخرى.

أسفل قدميَّ الممددتين أمامي لمحت جزءا بارزا عن الأرض مثل تبة رملية صغيرة، ضممت ساقيّ إلى صدري وأخذت أنبش فيها بأصابعي،

كانت هشة، حفرت وحفرت حتى غاصت أصابعي في جلد بارد فجذبته، كان زق ماء كبير وأسفل منه كيس به دقيق حائل اللون، مستمرا في الحفر حتى عثرت أصابعي في اسطوانة من جلود ملفوفة في أكياس متالية لحفظها من التلف، أخرجتها وواصلت الحفر حتى يبست الرمال تحت أظافري فعلمت أنه لا ثمة شيء بعدها فتوقفت عن الحفر، نفضت الرمال عن الكيس وفتحته وكبشت من الدقيق وسففت منه وشربت عليه من الزق فتحول في فمي إلى عجينة صعبة البلع، ثم فتحت كيس الجلود بحرص، كانت الجلود الجديدة ملفوفة على جلود قديمة بعضها يكاد يتفتت في يدي من الرقة والتآكل، مكتوب عليها بحبر غريب بُري لونه، ولكنها تتفاوت في الزمن، المكتوب في الرقوق الجديدة نسخة طبق الأصل من الرقوق القديمة مع تعديلات لم ألحظها في البداية، ولكنها مكتوبة بخط مختلف، الجديد منها كان مقروءا ولكن مع الإمساك به بحرص شديد، كان عليَّ أن أقف وأرفع يدي بذلك الرق لكي احصل على الضوء اللازم لأقرأ ما به، خط منمنم جدا كأنه رسم وليس كتابة.

على هامش الصفحة الأولى وجدت مكتوبا بخط كبير:

(هذا ما كتبته بعد أن استيقظت للمرة السابعة، القافلة التي أخرجتني من الأرض أخبروني أن العام هو 1380 من هجرة النبي العدنان، الملاحظ أن فترات نومي تقل كل مرة عن سابقتها، وربما ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي سأستيقظ فيها إذا نمت مرة أخرى، قمت بحساب عمري الذي مرّ دون نوم فوجدت أنني بلغت مائة سنة، مائة عام فوق الأرض

.. الذ من سبعمائة تحتها، لله الأمر من قبل ومن بعد، ما وصلت إليه من ..دوار تضيق به هذه الجلود، لذا جعلتها لتسجيل ما مر بي ولم أفهمه).

في الرقعة الأولى بدأت أقرأ....

الرقعة الأولى

اسمي مؤمن، لا أتذكر اسم أبي فأنا لم أسجله بأوراقي في المرة الأولى التي بدأت فيها الكتابة ومن ثم نسيته، الحمد لله الذي هداني إلى تسجيل حكايتي على هذه الجلود لأحفظها ولم أستطع حفظ اسمي كاملا، هو الذي بعثني سبع مرات لأجدد كل مرة ما كتبته بعد أن يبلى.

ليس لي مكان ميلاد لأنني ولدت مرات كثيرة ولم أمت من قبل والسبب في ذلك أن حياتي هي محض موت طويل..

ولكنني سأتحدث هنا عما أتذكره من حياتي الأولى، ولدت في إحدى قرى الصحراء بالمغرب العربي، مطر قليل ورياح كثيرة، وشمس لا ترحم، صحراء مثل رحم عاهرة، لا تعترف بأبناء، خطواتك تمحوها وآثارك تلفظها، تسفو عليك رمالها وكأنه تعجُّل لدفنك، لذا كل ابناء الصحراء يبحثون عن الخلود ولكن الخلود ليس حيث يبحثون، ليس أن تنقش اسمك على صخرة راسخة فوق جبل أو تدق وتدا لا تخلعه الرياح، الخلود حيث يهبط الناس بعد الموت، في أصل الأرض، هناك تحت تلك الرمال ولكني سأخبركم عن هذا في أوان حكايته، أما الآن فسأحدثكم عن الضوء وحكايته معي..

منذ تجاوزت سن بلوغي في بيت أمي بدأ الضوء يأتيني في الحلم، فيرقظني على الحقيقة، أفتح عينيّ وعندما لا أجد الضوء حولي أعود مرة أخرى لإغلاقهما ومن ثم إلى النوم، أعلم أن تفسير ذلك الضوء الذي يأتيني في أحلامي ليس كما أخبرني البعض: علامة ولاية، صحيح أنني ولدت ولادتي الأولى في عصر مترهل يبحث فيه الناس كثيرا عن علامات الأولياء في أنفسهم، ولكن أعلم أن الشخص الأخير الذي يمكن أن يُقدس اسمه هو أنا..

سبب آخر يجعلني متأكدا أن ما يأتيني في الحلم ليس علامة ولاية، وهو أن هذا الضوء كان يخبرني باسمه في كل مرة:

- أنا آسفو.

على الرغم من أن آسفو تعني بلغتنا البربرية مصباح المسجد فأنا أعلم أن الضوء الذي يأتيني في أحلامي شيطان، أو أرسله الشيطان، ببساطة لأنني بسبب هذا الضوء الذي يوقظني عدة مرات ليلية لم أكن أصلي الفجر، كانت أول كلمات أسمعها من أمي عندما أستيقظ في الصباح توبيخها:

- لا يليق بشيخ الكُتاب ألا يصلي الفجر هكذا.

بعض الناس الذين عرفتهم في حياتي الأولى كانوا يفلسفون عدم استيقاظهم لصلاة الفجر بعيدا عن كونه ذنبا، يقولون بأن استيقاظ الفجر شقاء في غير موضعه أو عذاب - الله سبحانه وتعالى - في غنى عنه،

ار أنها صلاة الأغنياء الذين لا ينامون متأخرين مرهقين بسبب العمل طيلة اليوم...إن العصر الذي يبرر فيه الفقراء ذنوبهم لهو عصر مشؤوم..

كنت فقيرا، بلدتي الصحراوية كان أغنى من فيها يملك بضع قصعات وقوت يومين على الأكثر، أما الفقراء مثلي فلا يملكون إلا قوت يوم بيوم.

فقراء لدرجة أنه عندما كانت السماء تمطر كنت أخرج أنا ورفاقي الفقراء مثلي خارج بنيان البيوت فنبش في الرمال عمّا يكون المطر قد كشفه لنا من جذور النباتات فنسلقها ونأكلها، في إحدى هذه المرات وجدت أثناء نبشي في الرمال ضفدعة حية، نصف حية،كأنها كانت نائمة، مرتخية الأعضاء رغم تقليبها، منذ ذلك اليوم صار هذا لغز حياتي الأوحد، لم أقابل أحدا يستطيع أن يجيبني عن ذلك إلا وسألته، شيخ الكُتاب الذي ظل بيته منارتي التي أقصدها كل صباح لسنوات كثيرة من عمري الأول، أحد رفاق القافلة التي صحبتها في رحلتي إلى مراكش فنصحني بالعودة إلى قريتي الصغيرة لأن الوقت وقت فتنة كما قال، رفيق خيمتي في معسكر الموحدين، حتى بن تومرت قائد الموحدين رغم هيبتي منه، ربما سألت أيضا الونشريشي الذي أنطقه الله في ليلة بحكمة العالم وكان من قبل أخرسَ، رجوت أن تسعفه الحكمة التي هبطت على قلبه فيجيبني، كان سؤال حياتي:

- ما الذي كانت الضفدعة بنت الماء تفعله في رمال الصحراء؟

....

لم يأتِ أحد لينبش عنا أنا ورفاقي كما نبشت أنا عن تلك الضفا.. ظللنا مدفونين كالموتى ولكنا لا ننتظر سؤال الملكين، أي آية قرآن أ. حديث أو حتى أثر أتت بي وبرفاقي إلى الحفرة؟

لم أفعل في حياتي غير أنه عندما جاء الأمر أجبت، اقرأ. فقرأت، كـ . صغيرا على فهم معنى القراءة، ولكني لم أكن صغيرا في نظر أمي لتقتطع جزءا من قوت يومنا الذي تكسبه من عمل البيوت، جزء لا يستهان . فتدفعه إلى شيخ الكُتاب ليعلمني القراءة والكتابة وينقش القرآن على لوح صدري قبل أن أتعلم نقشه على لوحي الخشبي بالطبشور، كا. أول ما سمعت من أوامر الشيخ الصارمة الزاعقة: اقرأ، ولم تكن القرا. تعني أن أنحني على اللوح الفارغ وأقرأ ما لم أكن قد تعلمت بعد كتاب. على أديمه الأسود وإنما كانت تعني أن أردد ما يقوله الشيخ، زاعقا مثله، مغمضا عينيَّ بخشوع كما يغمضهما، مهتزا كما يفعل يمينا ويسارا، مستشعرا دفء الحروف والكلمات.

لطالما حيرتني الحروف منذ أن تعلمتها، ما السر الكامن فيها؟ كيف تكون مقدسة فيما حفظتُهُ وملعونةً فيما يسجله الناس من لغو الدنيا، كيف يكون بعضها حارقا للشيطان لا يغسلها ماء الزمن المنهم. نمسحها بأكمام قمصاننا النظيفة من فوق اللوح تبجيلا بينما نبصق على البعض الآخر ونلطخه بالبول والخراء وهي ذات الحروف تملك نفس الانحناءات والزوايا..

قرأت، كما أمرني شيخ الكتاب، فانفتح لي من روح الكلمات عالمان عن يمين وشمال، عن يميني البيوت اللؤلؤية المجوفة التي لا تعب فيها

ولا نصب تجري بينها أنهار العسل واللبن والخمر الذي لا يُذهب بالعقول وتسكنها الجواري العذراوات اللواتي يعدن عذراوات بعد فضهن في كل مرة، وعن شمالي طعام الشوك والحنظل والماء الحار والنيران التي تلقي شرارات هائلة كل شرارة منها بقدر القصر العظيم، قرأت كما أمرني الشيخ ولم أكن أحتاج لأمره أيضا لأعلم إلى أي العالمين يجب أن أنتمي وأسير إليه في طريق دنياي، ولكنها لم تكن سوى دنيا واحدة يجب أن أحوز فيها كل شيء وهذا من مرض الطموحين.

عشت معظم سنواتي مترددا فيما أريده، لا أعلم من فلسفة الحياة غير ما أضعه في فمي اختيارا وما أضعه في الكنيف إجبارا، مثل دود الطين تأكل طينا وتُخرج طينا، فقط أضيف إليه من نتانة جوفي القلق، أثقب مساري في الحياة دورانا حول نفس الأشياء التي اختارتها لي أم أرملة، لا أذكر من طفولتي غير الزحف الدؤوب لدوائر الشمس المشوهة تصول وتجول في حوش شيخ الكُتاب الذي عهدت أمي بي إليه ليعلمني ثم تَمسُّك الشيخ بي، لم يدعني أذهب لأتعلم صنعة يد كسائر أقراني الذين بلغوا مبلغي، سماني بالقارىء الصغير لقدرتي الفائقة على الحفظ، وبعد أن كانت أمي تدفع له من عين طعامنا ليعلمني صار هو يدفع لها نقدا لأُعلم الفتيان الأصغر مني في غيابه وقيلولته وأحوال مرضه وتكاسله بسبب السن، مرارا وتكرارا كان الشيخ يخبرني: لو أن لي مثل وعي صدرك في الحفظ لشددت رحالي إلى العلماء فأصير مثلهم،أطرق برأسي لأداري اهتزاز فمي بالفخر في شبه ابتسامة وأخبره:

- ولكني أحب العيش هنا.

فيطعنني بين ضلوعي بأصابعه مداعبا في مكر ويقول:

- يمكنك أن تصير عالما بقدر (هنا).

وكنت أكذب على شيخ الكُتاب،لم أحب العيش يوما في بلدتي الصغيرة، ولم يكن يربطني بأرضها لا شوق ولا أم ولا ذات ضفيرتين، الحقيقة أنني كنت أخاف البحر الواسع بروح سمكة ضئيلة عاشت في القنوات الفرعية طيلة عمرها، خائفا من مشاق الرحلة، ما ينتظرني بعدها، خشيتي من أن أخرج من دفء فقاعة وهمي اللذيذ على برودة واقعي الرمادي كقارىء ومحفظ للصبيان في الكتاتيب.

ولكنني كنت أعلم أنه ما من بُد، كل هذا المديح ونداؤهم عليّ (يا الشيخ، يا أمغا، يا سيدنا) يجعل مسام روحي تتسع للمزيد وأعلم أنه سيأتي اليوم الذي لن ترضيني فيه لقيماتهم الصغيرة، وأني سأرحل يوما في سبيل معرفة سر الحروف.

أفكر وأفكر ولا أحادث أحدا عن ذلك، ولكن ما أكثر ما كانت ملامح وجهي واصفرار معالمها سبب روع أمي في كل صباح، تسقيني السكر المذاب علاجا وتتفحص فراشي وتشم دواخل ملابسي بحثا عن آثار مراهقة ولا تكف عن التلصص في ساعات صمتنا عن هواجسي من خلال ثقوب وجهي العديدة، تتنهد وتخبرني أن الذباب يأتي على رائحة بولتها وأن هذا نذير موت كما كانت رائحة فم أبي الكريهة واسوداد شفتيه نذيرا بموته، وأنها تريد أن تفرح بذريتي عوضا لها عن موت أبي، ويوم

أمرتها بكلام الشيخ عن رحلتي لطلب العلم لم تزد على نفثة سخرية من أنفها وكلماتها التي ثبطتني:

فليرحل هو إن كان يريد.

لم أخبر الشيخ بكلام أمي ورفضها بمجرد أن أخبرتني به، فلم يزل منذ تكلمنا في هذا الموضوع أول مرة يحدثني عن علماء المشرق والمغرب وسِيَرهم، علماء بغداد والحجاز والإسكندرية، علماءُ قرطبة في الأندلس وتونس والديار المصرية، حدثني عن القاضي حمدين بن محمد بن حمدين وأبي عبد الله المازري وأبي بكر الطرطوشي والغزالي وإليكا الهراسي وأبي بكر الشاسي، ولم يزل مستطردا بخلواتنا في حديثه عن سمت العلماء والقضاة وتوقير الناس لهم والتفافهم حولهم في الطرقات والمساجد وحرص الملوك وذوي الجاه على قربهم منهم حتى صارحته مختنقا بدموع خفية برفض أمي وسببه، فكأنما ديك نقر رأسه، غرق في صمت كالبلبل حتى غشي الصبيان الحوش وتناهى إلينا ضجيجهم فقمت إليهم دون استئذان.

....

الرقعة الثانية

لا أتذكر، هل أتت أولا قطرة الدم التي عثرت عليها أمي في ثوبي التحتاني ذات صباح أم كان عرض الشيخ، لا أتذكر لكثرة ما رأيت من

الـدم والصفقات التي تأتي بعد الدم أو قبله فيسمونها هدنة أو يسـ…
حربا مقدسة.

كنـا قد توقفنا أنا وشـيخ الكُتاب عن الكلام معا عـن رحلتي المأم… لطلـب العلم فظننت أن اليأس قد تسـلل إلى قلبـه، حتى فاتحني هو ذا… يـوم بصفقتـه التي غيـرت حياتي للأبـد، كانت ابنـة أخته الثيب قد أتـ… للعيش معه منذ شهور بعد أن مات زوجها، ولم تزل منذ مجيئها تحدجني بنظرات باسمة ويشتد احمرار وجهها كلما مرت بحوش الكتاب.

قال الشيخ إثر إحدى هذه المرورات وهو يبتسم:

- أريد أن أخطبك إلى ابنة أختي.

- ولكني لا أستطيع تحمل مؤونة الزواج يا مولانا.

- ومـن طلبهـا منك، أنا من سـيدفع لك المال، أختي لهـا ميراث عندي، وقـد تنازلت لـي عنه قبل موتها مقابـل أن أتكفل بابنتهـا هذه، ثم مات زوجها قبل أن أعطيه له، عندما تدخل في عصـمتك سـيكون المال لك، فنكـون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد، تسـافر وتطلب العلم بذلك المال وتجد لأمك من يؤنسـها في غيبتك..

حين أخبرت أمي في المسـاء بعرض الشيخ ونحن نتأهب للنوم فكأنها كرهت ذلك، لم تجبني وسحبت الغطاء على رأسها واستدارت، وظللت أسمع تنهداتها القلقة لوقت طويل حتى سقطت في النوم.

فـي تلـك الليلة جاءني الضـوء وفح في أذني، أنا آسـفو، فصرخت فيه في الحلم أن يبتعد واقشـعر جسـدي، لـم أعلم أن صرخاتـي تفلتت إلى مسامعي حتى أيقظتني أمي ووجهها يمج القلق..

قم صلِّ الفجر يا مؤمن.

كان الوقـت بعيدا علـى آذان الفجر، قمت وتوضـأت وانتظرت الأذان حتى رُفـع، إحدى المرات القلائل التي صـليت فيهـا الفجر رغم الضـوء، عندما عدت إلى فراشي سـألتني أمي:

- هل رأيت الضـوء مرة أخرى؟

هززت رأسي أن نعم فسـألت:

- لماذا كنت تصرخ طالما أنه كان الضـوء؟

- كان يهاجمني يا أماه، كان يكرهني.

قلبـت شـفتيها مسـتاءة، كان لأمي تفسـيرها عن ذلك الضـوء المبهر في الحلـم لا يقل عن تفسـير العوام، بل زادت على ذلـك بأن قالـت لي ذات مـرة إن اثنين فـي التاريخ فقط هم من رأيا ذلك الضـوء الذي رأيته: النبي محمد ﷺ والإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب، سألتها عندما قالت ذلك:

- وما تفسـير العلماء لذلك يا أماه.

- كيف تكون شيخ كتاب ولا تعلم عن ذلك، هذا الضوء هو الضـوء الذي أرسـله الله للنبي ليهدي به الناس.

اقشعر جسدي رغم وجه السخرية الذي تلقيت به تفسير أمي:

- ولم يجد الله سبحانه وتعالى غيري ليرسل له يا أماه.

تنهدت وهي تقول:

- في الزوايا خبايا يا مؤمن، قادر على أن يصلحك في ليلة.

ولكن ما حدث أن الله عز وجل أصلح أمي في تلك الليلة وليس أنا، بعد صلاة الظهر بينما كنت واقفا في ساحة الكُتاب أُعلم الصبيان والشيخ نائم قيلولته فوجئت بأمي تمر بي مسرعة مطرقة الرأس ثم سمعتها تصفق بيدها على زوجة الشيخ حتى خرجت إليها واصطحبتها للداخل ومكثت معها طويلا وعندما خرجت مرت مسرعة دون أن تنظر ناحيتي، ثم علمت فيما بعد من الشيخ أنها خلت بالعروس المنتظر لساعة طويلة تتحادثان، ثم أبلغتهم بموافقتها على الزيجة...

تزوجت في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة من الهجرة، ضممت الأرملة الشابة إلى الأرملة العجوز في بيت واحد ورفضت أمي أن أسافر إلا بعد أن يمتلىء رحم زوجتي مني، هكذا تفكر الأرامل عندما ييأسن من عودة أبنائهن.

سافرت بعد سنة واحدة من زواجي إلى وجهتي، إلى مراكش.

....

متذكرًا وجهتي بين صخب الذكريات القريبة المتلاحقة، كنت متوجها إلى الأندلس ثم إلى الإسكندرية،كان ينبغي أن أكون مبحرا على إحدى

الـسـفن من ميناء مرية أو ماشـيا على رمل الشـاطىء الذي مشـى عليه من قـبل طارق بن زياد وجيل الفاتحين الأوائل وجميع آبائي الذين يـسـميهم العرب باسم البربر، كان هذا هو الختام الطبيعي لحياتي الأولى فما الذي جاء بي إلى الحفرة.

رحلت إلى مراكش سـنة أربع عشـرة وخمسمائة 514 من هجرة النبي العدنـان، وفي رحلتي إليها كانـت القبائل والقوافل العائـدة التي نمر بها تتحـدث عن أمر بن تومرت الفقيه الزاهد الذي أوقع أخت السـلطان من فـوق بغلتها في الـسـوق عندمـا وجدها سـافرة، وأن الفُحش في شـوارع مراكـش بلغ مبلغا لا يطاق بعد أن كانـت منارة المرابطين وقادة الأندلس الذين يـستنجدون بهم في حروبهم ضـد النصـارى، علمت أن العوام من الناس يمشـون بوجوه مغطاة بينما نـساؤهم سـافرات وأنهـم في بناياتهم يبنـون المراحيـض في اتجـاه القبلة، حتى المسـاجد لم تـسـلم من ذلك، الناس يبولون ويتغوطون في اتجاه الكعبة التي يُصلون إليها!!.

القافلة التي كنت مـسافرا معها كانت قافلة تجار، كان هذا أمرا معهودا: أن يسافر طالب علم مع التجار، خاصة إذا كانت وجهته مراكش، دار بيني وبين أحد رفاق الـسفر التجار حوار نسيته طويلا ثم عدت فتذكرته بعد أن صار الندم على أنني لم آخذ النصيحة مأخذ الجد ترفا.

سـألني باسما:

- ألا يستطيع العلم أن ينتظر حتى تهدأ الأحوال والبلاد؟

قلت في حيرة:

- وما بها؟

- لا شيء، ولكن هل ستمكث في مراكش كثيرا على أية حال؟

- مقدار ما يزكيني أحد علماء مراكش لكيلا يردني علماء الأندلس عن طلب العلم لديهم.

صاح في دهشة:

- وما العيب إن ذهبت إليهم مباشرة؟

- أخاف أن يردوني.

- لن يردوك.

قلت محاولا أن أداري اهتزاز صوتي:

- لست خائفا، كل شيء بقدر.

- والهرب من القدر هو أيضا من القدر.

سَكتُّ لا أستطيع إجابته حتى قطع هو الصمت:

- على أية حال، لا تمكث هناك كثيرا، إن كنت ذاهبا إلى الأندلس فلا تمكث بمراكش إلا مقدار راحة المسافر.

- حاضر، لن أظل هناك الكثير، بغيتي كما قلت لك أن أقابل أحدا من قضاة مراكش فيزكيني بخطاب عند علماء الأندلس.

بمكنني أن أعطيك خطاب تزكية إلى أحد علماء الإسكندرية إن أردت.

اندهشت، كيف يتأتى لتاجر أن يكتب رسائل تزكية إلى العلماء ولكني أجبته باقتضاب:

- سآخذه، سوف أحتاجه بالتأكيد.

....

كان آخر ما دار بيني وبين ذلك التاجر من حوار عندما سألته عن الضفدعة التي وجدتها في الصحراء، قال لي:

- هكذا تفعل الضفادع عندما يقل الماء في الصحراء، إنها تمكث تحت الأرض وقتا أطول من وقت بياتها الشتوي، تنتظر الماء حتى يدق سطح الأرض فتشق طريقها في الرمال وتخرج، تعيش حياة بمقدار ما يمكث الماء حتى تبخره الشمس..

- ما هذه الحياة الغريبة، لماذا لا ترحل إلى أماكن يتوافر بها ماء.

- ستموت، إن حياتها قصيرة، ولو سارت في الليل وطلع عليها النهار ستقتلها حرارة الشمس إن لم تنهشها الصقور أو تبتلعها الثعابين، إن باطن الأرض خير لها، هكذا تعيش حياة أطول.

- وهل هذه حياة؟

- أفضل من لا حياة، ولكن أخبرني، ماذا فعلتم بتلك الضفدعة التي وجدتموها؟

ولم يكن لديّ روح للضحك عندما قلت:

- شويناها وأكلناها.

ولكنه ضحك.

لم أزل - طيلة إقامتي بمراكش - محتفظا برسالة التزكية التي أعطانيها ذلك التاجر، انتقلت معي في متاعي بخيمتي الصغيرة في معسكر بن تومرت، لم أزل أذكر نظرات ذلك التاجر وهو يودعني عندما وصلنا إلى مراكش فافترقنا تائهين في شوارع المدينة الكبيرة، لم ألتفت خلفي عندما مشيت فغيبني زحام الناس، حتى الشكر الذي أعطيته له كان غمغمة باهتة.

لو كنت أعلم ما سيحدث لي بعد أن فارقته لشكرته على الأقل بكلمات واضحة، فهو الأوحد ممن قابلتهم في رحلتي الذي أعطاني شيئا بدون مقابل، ولكن عطاءه القليل لم يكن كافيا، تحولت رسالة التزكية التي أعطانيها إلى نقطة عائمة في نهاية جملة طويلة لا أستطيع أن أبدأها، لا كلمة قبلها ولا بعدها، جملة لم أستطع أن أنطق أي كلمة من بدايتها رغم تأتأتي مرات عديدة على أبواب كل قضاة مراكش الذين درت عليهم فردوني بينما رفض الآخرون أن يمتحنوني لقلة أوقات فراغهم، أعطوا لي مواعيد أخرى كنت أعلم أكثر مما يعلمون أنهم لا يقصدونها على الحقيقة، أثناء ذلك كنت أتلمس أخبار المراكب التي تأتي من الأندلس ومتى ستعود وكم يكون كراء الفرد فيها حتى لا يخذلني المال الذي معي، آكل وجبة واحدة في اليوم وأنام في المساجد لأوفر أجرة

السكن، كان الضوء الذي يأتيني في أحلامي قد توقف بسبب التعب من السير على قدمي طيلة النهار أدور على دور القضاة والعلماء، ومع ذلك لم أكن أصلي الفجر أيضا، أغرق في النوم عندما يفرغ المسجد من مصلّي العشاء، فلا أفيق إلا على غمغمة المصلين في الفجر وهم يمرون بجواري حيث أنام خلف آخر اسطوانة من اسطوانات المسجد.

- مسافر متعب، دعوه يسترح.

وكانوا يتركونني، حتى أولئك الذين يظلون من بعد صلاة الفجر وحتى الشروق لا يقلقونني، بعد الشروق كان المسجد يخلو من الناس، أصلي ثم أخرج إلى الأسواق فأشتري طعاما وأمضغه ببطء شديد لأشبع، خير طريقة لتشبع أن تدوّر الطعام في فمك حتى تعافه فتبتلعه مضطرا.

في ذلك النهار بالسوق أخذت أسأل نفسي وألومها، ما الذي يبقيني هنا، يمكنني أن أدخر هذا الذل فأسكبه على أبواب علماء الأندلس، مرَّ بي عندئذ شاب على وجهه ذرو دقيق أبيض فخمنت أنه بائع الخبز الذي باعني خبزا منذ قليل، توقف وتأملني قليلا ثم أتى وصافحني ثم سألني عن سبب مجيئي إلى مراكش فعبس أول ما قلت له إنني جئت لطلب العلم.

- ها هو بن تومرت كان طالب علم مثلك حتى فعل ما فعل وأوقع الخصام والعداوة بين أفراد البيت الواحد، إن ناس مراكش الآن حتى العلماء منهم يتوجسون من الغرباء ولكن سأخبرك عن عالم قد يرضى بأن يعطيك خطاب تزكية بدون حتى أن يختبرك.

وفي ذلك المسجد الذي أرشدني إليه الخباز الشاب وأخبرني أن ذلك الشيخ العالم يصلي بالناس إماما فيه، قابلت قدري الخاص ولكن لم يكن الشيخ العالم، كان من المفترض أن يصلي صلاة العشاء ولكنه لم يأت، سألت عنه المصلين بعد انصرافنا من الصلاة فأخبروني أنه مريض، لبثت حائرا للحظة أخجل من أن أسأل الناس عن بيته وأنا غريب لا أعرف ما سيصفونه لي، ثم قررت أن أنتظر حتى الغد، عندما خلا المسجد رأيت شخصا جالسا يختلس إليّ النظر من وقت لآخر، خمنت من نظراته أنه غريب مثلي، وسرعان ما عرفت صدق حدسي فعندما بدأت في تسوية مكان نومتي شرع هو الآخر في ذلك.

كنت أربط حول وسطي صرة المال القليل الذي أعطاه لي شيخ الكتاب، أما خرج ملابسي فكنت أضعه تحت رأسي، بعد قليل أطفأ خادم المسجد المصابيح وانصرف فساد الظلام إلا من ضوء خافت لقمر موشك على الغروب، غرقت في النوم على الفور ولم أشعر إلا بأحد ما يركلني في قدمي ركلة خفيفة، فزعت وقمت نصف قومة ونظرت في الظلام الذي كان أكثر ثقلا مما كان عندما نمت، لم أر أحدا، سمعت صوتا:

- أعتذر، كنت أتوضأ ولم أرك وأنا أسير.

سألته وأنا لا أزال في سكرة غفوتي:

- هل أذن الفجر؟

قال في لهجة لم أتبين هل هي لهجة سخرية أم شفقة:

- وأنت ألا تصلي إلا الفجر؟

ابتلعت ريقي، كان في لهجته نوع من صرامة بائسة، لو أن منكرا ونكيرا يتكلمان معي الآن فلن تختلف لهجتهما كثيرًا، قلت:

- صلاة العشاء والفجر في جماعة كقيام الليل كله.

- نعم، ولكنه ليس قياما.

قلت وكأني أعتذر:

- أنا أُسبح إذا استيقظت ليلا قبل أن أعود للنوم، فأنا نؤوم كصفوان بن المعطل رضي الله عنه.

- لو كنت مثله، رضي الله عن الصحابة أجمعين، ما استيقظت من تعثري بك في الظلام، المهم، ما اسمك؟

- مؤمن.

- أخوك في الله مصدق.

سكت قليلا حتى ظننت أنه يتهيأ للدخول في الصلاة ولكنه قال فجأة:

- جعل الله لك نصيبا من اسمك يا مؤمن، أنت لست من مراكش بالتأكيد، من أين أتيت؟

أخبرته باسم قريتي الصحراوية البعيدة:

- أنت أتيت من مسافة طويلة، لابد أن عندك سببا وجيها لكل هذا العناء.

- جئت أطلب العلم الشرعي.

وكأنني سمعته يتنهد:

- وهل أصبحت مراكش مكانا يُطلب فيه العلم؟

- ليس بالضبط، جئت أطلب خطاب تزكية من أحد علمائها.

سمعته يقول في غضب:

- ما الذي سيفيده العلم في المساجد والكتاتيب، والشوارع من حولنا غاصة بالذنوب المؤلمة للعيون قبل القلوب.

قلت في حماس نصفه مستمد من مهنتي كمحفظ في الكتاتيب:

- ذلك هو الرباط، حبل الله المتين، الطائفة التي تنفر في كل زمن لطلب العلم.

قال محبطا:

- وماذا عن الطائفة المنصورة التي بشَّر بها النبي على رأس كل زمان؟

- على ما أذكر أن النبي بشر بإمام مجدد أما الطائفة المنصورة فمستمرة.

- وهذا الإمام المجدد إن ظهر، أليس أولى بنا أن نتبعه؟

تلعثمت وأنا أقول:

- بلى ولكن..

شعرت بصوته يقترب مني وكأنه حبا على ركبتيه ناحيتي مقتربا ورأيت عينيه تلمعان وهو يهمس:

- أنا من هذه البلد يا مؤمن،من مراكش، ورأيت بعيني ما فعله إمام هذا الزمان بن تومرت، لقد أسقط أخت السلطان من فوق بغلتها بين الناس وناظر العلماء فحاججهم وسخر منهم، لو أنك رأيته في صلاة الجمعة وهو يدفع حشود الوزراء حول السلطان وهم يرتدون النقاب قائلا له في أعلى صوت: الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف، لقد نهر السلطان علي بن يوسف ووعظه فلم يستجب رغم أنه علم صدق الكلام وبكى منه، لا أكذب عليك وقد أرسلك الله لي إشارة في تلك الليلة، قبل شهر طردني أبي من البيت عندما علم أنني أتكلم عن الإمام بن تومرت كلاما حسنا بين الناس ومنذ ذلك الحين وأنا أبيت في المساجد.

- ولماذا طردك؟

- خاف أن يصل الكلام إلى الفقيه مالك بن وهب فيسقط في نظره، وأبي من التجار الذين يتبعونه ويأخذون بفتاواه، الناس هنا لا يشترون إلا من التجار الذين يزكيهم العلماء.

- وماذا ينقم الفقيه مالك بن وهب على بن تومرت؟

- إنه فقيه السلطان، وهل تتوقع من فقية السلطان أي خير، إنهم أكثر تعصبا وخوفا على الكرسي ممن يجلسون عليه، هل تصدق أنه يقول عن بن تومرت إنه من طلاب الدنيا وليس من طلاب الآخرة لدرجة

أنـه حاول أن يقنع السـلطان بقتله، ولكن السـلطان خاف على صورته أمام العوام أن يقتل رجلا لا يملك سد جوعه وهو السلطان، فلم يفعل لابن تومرت غير أن سجنه ثم أخرجه من السجن ونفاه..

قلت في فضول:

- وأين ذهب بن تومرت بعد أن نُفي؟

- لقد ذهب إلى مقبرة ابن حيدروس، بنى خيمة هناك بجانب الموتى واعتزل الناس ولكنهم لا يزالون في أثره جادين، أتباعه يزدادون كل يوم ولابد أن يأتي اليوم الذي سيصطدم فيه بالسلطان.

- إذا حاربه السلطان فلن يلومه أحد.

- صدقني، دولة المرابطين مهلهلة الآن ولن تدوم طويلا، إن لم يُسقطها الإمام بن تومرت بدعوته فستسقط وحدها..

- كيف؟ وجيوشها في الأندلس تحارب النصارى، وتحالفاتها مع قادة الأندلس المسلمين هناك بعرض البحر الكبير لم تكدره دلاء الوقيعة من ملوك أوروبا، أتظن أنهم سيتركون دولة المرابطين تسقط بسهولة وهم يحاربون معهم النصارى؟

- كل هذه الأباطيل لن تثبت أمام دعوة بن تومرت.

كان واثقًا، ظل يحاول أن يقنعني حتى أذن الفجر وبدأ المصلون يتوافدون على المسجد يتساقط منهم ماء الوضوء، ضيعت عليه قيام

الليل ولكنه كان فرحًا أن وجد من يتحدث معه عن بن تومرت، قال لي في النهاية وهو يصافحني بود:

- سنظل معا، إما أن تقنعني أو أقنعك، تأتي معي إلى معسكر بن تومرت، أو أذهب معك إلى الأندلس.

....

في الصباح لم أسأل عن بيت ذلك العالم، لازمني مصدق حتى السوق، كان أول طعام من اللحم يدخل جوفي منذ مات أبي هو الطعام الذي اشتراه لي، أسرني بتودده وإصراره على الإنفاق في صحبتنا، وفي الليل أسرني بقيامه يصلي وبكائه وهو يخاطب الله في سجوده أن يرد المسلمين إلى دينهم ردا جميلا، في أيام قليلة أحببته أكثر مما أحببت أمي وزوجتي وطفلي الذي لم أره بعد، ولعل هذا الحب كان سببا لذهابي معه إلى معسكر بن تومرت وليس لأنه أخبرني أن بن تومرت يستطيع أن يعطيني خطاب التزكية الذي أريد، ثم أستأنف رحلتي من مقبرة ابن حيدروس إن أردت.

عندما وصلنا إلى خيام مقبرة ابن حيدروس تركني مصدق وذهب ليستأذن لنا في الدخول على الإمام ودرت أنا حول الخيام المليئة بالرجال لأستطلع الأمر، كان عوام الناس الذين حضروا للصلاة معهم أو للتفرج عليهم منبهرين، يقولون إن الصلاة والقرآن لا ينقطعان عن المعسكر منذ كان بن تومرت فردا وحيدا حتى صار أُمة، إنهم أهل الله في الأرض، رأيت في عيون العوام من الإكبار لابن تومرت ما تمنيت أن أرى

أقـل من نصفه فقط موجها لي بعد رحلتي لطلب العلم، معظم من قابلو من سـاكني تلك الخيام أخبرني أنه جاء يطلب العلم على يد بن تومر القليل جدا قال لي إنه جاء ليعبد الله معه.

ما زلزلني بشـدة إحدى الحكايات التي يتناقلها عوام الناس هناك عن بن تومرت، يقولون إنه كان في صباه كثير العبادة والمكوث في المسـ لدرجـة أن اهالـي قبيلته كانوا يسـمونه آسـفو، مصباح المسـجد في لغة البربريـة، هل يكون آسـفو هو الضـوء الذي ظل يأتيني فـي الحلم أعوام طويلة وها هو على مقربة مني لا يفصله عني إلا قماش خيمة...

عندئذ سـألت نفسـي لمـاذا لا ألـزم بن تومـرت وأتعلم منـه كهزلا الطلبـة، وما سـيكون مصيـري إذا سـافرت لطلب العلـم أعواما طويلة ثم عـدت لأجد الحال غير الحال ولا أجد حينـذاك إلا أن أتوارى في قريتي الصحراويـة مُعلما للصبيان في الكتاتيب، حتى لو بقي الحال على ما هو عليـه فمـن مِن علماء مراكش سـيصطفيني إلـى جانبه وهـذا حالهم، لقد ناظرهم بن تومرت وفضحهم.

ولكن عدت إلى نفسـي فراجعتها، ها هو بن تومرت يهجو السـلطان ويريـد أن يعزله ولكن رغم ذلك أحبه النـاس وجعلوا خيمته كعبتهم، إذا كانت السـياسة سبيلا لوصولي إلى قلوب الناس والجلوس منهم مجلس المُعلم فلماذا أختبئ وأخاف، تذكرت عندئذ قول التاجر لي عن الضفادع أنهـا تعيـش حياة بمقدار ما يمكـث الماء حتى تبخره الشـمس أفضل من لا حياة، هل قُدر لي أن أعيش مثل تلك الضفادع طيلة حياتي مختبئا..

لا أنكر أنني تلوثت بمكر الفرار من وجع الحياة حتى الثمالة المرة لكني رغم ذلك كنت أملك روحا تدمن الصعود والجلوس في الصدارة، ليس طمعا في الصدارة ولكن هربا من مصير محتم يموت فيه قرنائي من المرض ومن الهموم ومن طواحين الحروب الدائرة على قمح العوام تطحن عظامهم، لابد أن أصل للقمة، على الأقل هناك سأمتلك سببا مميزا للموت، فالشيخوخة في زمننا هي صنعة النساء والمختبئين تحت طبقات الأرض..

ولكن كيف أصل؟، لست (آسفو) كابن تومرت، ولست نقيا من الأنقياء مثل مصدق، ولن أكون فقيها ينصت له الناس إذا لم أسافر للأندلس، ولن يقبل بي بن تومرت فضلا عن أن يميزني عن هؤلاء المئات الذين يملأون الخيام حوله، فلست فارس حرب وطعن بوهن ساعدي الذي لم يحن غير حمل العصا لصبيان الكتاتيب.

قبل أن يأتي مصدق ليستدعيني للقاء بن تومرت كنت قد قررت البقاء إن رأيت من أمر بن تومرت ما سيجعلني مميزا عنده، هذا القرار الذي توثق بعد أن رأيت الإمام في خيمته للمرة الأولى، كان رجلا في عينيه سُكر، لا تشبع من النظر إليهما، وعلى جبينه استياء بالغ مما يحدث في مراكش وفاس وبقية مدن المغرب العربي من انتشار للرذيلة، ولكنه بدا مهتما بمصدق اهتماما بالغا كما توقعت، لا أنكر أن هذا ضايقني وشتت تفكيري فأخذت أتأمل الجالسين، على يمينه يجلس رجل قوي البنية حاد النظرات وعلى يساره رجل مذهول يسيل بعض من رواله على صدره،

قلت في نفسي متألما لو كان من المستحيل أن يقربني إليه بحكم الجالس على يمينه، فبحكم الجالس على يساره قد يجعلني صفيا عنده إذا مشيت على شعر رأسي بدلا من قدميّ وادعيت الجنون!! غرقت في خواطري الكئيبة حتى شعرت بمصدق وهو ينبهني بضربات من مرفقه في جنبي:

- ماذا؟

قال مصدق هامسا بسرعة:

- الإمام يسألك، ماذا كنت تعمل قبل الآن؟

قلت على الفور دون تفكير:

- محفظا للصبيان في الكتاتيب.

لماذا لم يسأل بن تومرت رفيقي نفس السؤال في أول حديثهما؟ خمنت أنه متردد في ضمي إلى معسكره بسبب ضعف بنيتي، أردفت في بطء:

- كنت مسافرا إلى الأندلس لأطلب العلم هناك، لو أمكن أن تعطيني خطاب تزكية.

- ماذا تحفظ؟

- الكتاب، والصحيحين، وبعض المتون في الفقه والعقيدة والحديث والتجويد طبعًا.

همس الإمام للرجل على يمينه فقام واصطحب مصدق إلى الخارج، وبقيت أنا والمذهول الجالس على يساره لا يتكلم كلمة واحدة طيلة

امتحان الإمام لي، كان علم بن تومرت مذهلا، أكثر بكثير مما توقعته عن علماء الأندلس، قال في النهاية:

- لا بـأس بحفظـك يا مؤمن، سـيكون لك شـأن، يمكنني أن أكتب لك خطابـا للتزكيـة إلـى من تريد مـن علمـاء الأندلس ويمكنـك أن تصل لذروة سـنام الإسـلام معنا هنا، الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكر، والجهاد في سـبيل ذلك.

أطرقت برأسي مفكرا فسمعته يعاجلني بقوله:

- وإلى الحين الذي ستقرر فيه يمكنك أن تظـل معنا هنا تُعلم الناس بما فتح الله عليك وأعلمك مما رزقني المولى.

وكأن جملته كانت إيذانا بنهاية حوارنا الطويل..

....

الرقعة الثالثة

في خيمة واحدة أنا ومصدق كنا نبيت معا، أخذ مصـدق يترقى في نظر ذلك الذي كان جالســا على يمين الإمام فصـار من صفوة رجاله، علمت مـن مصـدق أن اســمه (عبدالمؤمن بن علي) وأنـه المقرب لابن تومرت، وســمعت مـن طلبـة الخيـام القدامى حكايـة عجيبة عـن لقائهمـا، كانوا يقولون إنهما التقيا في ملالة وأن اسم عبد المؤمن كان موجودا في كتاب الجفر الذي يخبئه الإمام عنده بحروف مفرطة (ع ب د م و م ن) وأن أمر بن تومرت لا يتم إلا بمسـاعدة هذا الرجل.

ولكن مهما صار مصدق مقربا من عبد المؤمن فلن تكون منزلة عند بن تومرت كمنزلتي، فبعد أن عرف الإمام أنني سأظل في المعسكر اصطفاني لأصب له وضوءه في الصلوات وآنس بالحديث معه وأدور على الخيام أُعلم تلاميذه وأبلغهم بالورد اليومي من القرآن والحديث، ليس هناك أدق من الخلوات لتصل إلى قلوب الأشخاص... وتقترب من أسرارهم.

ولكن ظل المجنون الذي رأيته على يسار بن تومرت غصة حلقي، يمكث مع الإمام وقتا طويلا جدا ويدخل عليه دون استئذان فيطعمه بيده ويربت على ظهره، علمت أن اسمه الونشريشي، لشد ما أثار هذا المجنون انتباهي، إن بن تومرت لا يهتم بشيء عبثا..

تعلمت على يد بن تومرت ما تمنيت أن أتعلمه من علماء الأندلس وكنت أحد تلاميذه النجباء الذين يدخرهم لإقناع الناس لدرجة أنني انتقلت معه إلى بلاد السوس بعد أن ذاع أمره وخطره على دولة المرابطين فخاف على تلاميذه من بطش السيف، هناك تحولت خيمته فوق قبور بن حيدروس إلى مسجد واسع كبير يُعلم فيه الناس ويُعدّهم ويُطلق أفظع الألفاظ على المرابطين وسلطانهم ووزرائهم ويسبهم بألفاظ كثيرة (الحشم والزراجنة) ولكن في آخر تلك السنوات بدأ يتكلم عن المهدي المنتظر كثيرا ويبشر بظهوره وأننا في آخر الزمان بالفعل..

(هذا الجزء من رقعة الجلد غير واضح ولكن تكررت فيه لفظة المهدي كثيرا).

ذات يوم لن أنساه أبدا على جبل إيجليز أعلن بن تومرت أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلما وجورًا وطلب من أتباعه أن يأخذ منهم البيعة على ذلك فلم يترددوا..

(سقوط آخر في الكلام، الخط كأنه كُتب بسرعة).

يبدو الأمر جميلا في ظاهره، طيلة هذه السنوات كنت سعيدا بما يحدث لي ولمصدق، ولكن عندما رأيت إقبال الرجال وحماسهم في بيعة الإمام للمهدية شعرت بالخوف الشديد، كان الهواء الصحراوي الذي طالما ارتبط عندي برائحة الحروف والرقاع الجلدية يحمل رائحة جديدة لم أعهدها، رائحة الدم...

بعد ليلة جبل إيجليز بدأ السلطان المرابطي في إرسال جيوشه لمحاربة دعوة بن تومرت، وكان النصر دائما حليف بن تومرت ورجاله لطبيعة الجبال والمكان.

كان هناك كثير من المعترضين على تلك الحروب التي تسيل فيها دماء المسلمين وإن لم يكونوا جبناء في الجهر برأيهم مثلي، لم يكن من ضمنهم مصدق الذي صارت الحوارات بيني وبينه تحتدم سريعا ولكنها لا تصل أبدا إلى نهاية مسدودة، حتى ذلك اليوم الذي اتخذ فيه مصدق قراره بترك الخيمة، كنت أتهيأ للنوم وتثاءبت حتى صدر صوت من حلقي، نظر لي بدهشة، فابتسمت خجلا من تثاؤبي فرماني بنظرة وقال كأنه يشكو:

- تتثاءب كثيرا!!

- أكظم منه بقدر ما أستطيع.

ثم كان بيننا صمت طويل، قطعه هو فجأة كأنه قرر أن يصارحني:

- تتكلم أيضا كثيرا؟

- عن ماذا؟

- عن الحروب بيننا وبين المرابطين، عن جدواها وصحتها.

قلت له:

- ولكني لا أستطيع أن أكظم تساؤلاتي حتى لو طلبت مني أن أستغفر الله بعدها فاستجبت لك حفاظا على صداقتنا، فإن كانت هذه حرب دين كما تقول ولم تكن هذه حربا سجالا بين قبيلتي لمتونه و مصموده وقعنا بين رحاها، فصف لي حرب المُلك إذن، ألا ترى أننا نشغل المرابطين عن حربهم المقدسة ضد جيوش النصارى، أليس من نحاربهم هؤلاء هم من صدوا عنا غائلة أعتى جيوشهم وأرسلوا البعوث في الشمال واليمين وأحواز طليطلة، ألم نتبع بن تومرت في البداية على التغيير بالقلب واللسان والانتظار حتى يُمكن الله لنا أو نموت داعين؟

تجادلنا الساعات الطوال بالقرآن والسنة، حاول أن ينهي حوارا احتدم بكلمات ضعيفة وضعها الإمام بن تومرت إلى أمير اللمتونيين في رسالته إليه:

- هم الفئة الباغية.

ثم استدرك بقوة:

- ولماذا تظل إذن هنا، لماذا لا تعود إلى أهلك أو تواصل رحلتك؟

فلم أُحر جوابا، ساد بيننا صمت ليس كالأول، يسترق خلاله نظرات ليرى وقع كلماته عَليّ:

- انصحك نصيحة أخ يخاف عليك، لكن كلماتك وتساؤلاتك مثل تثاؤبك، اكظم منها بقدر ما تستطيع.

قلت في هدوء:

- فإن لم أستطع.

قال مستعرا بالغضب:

- فلتضع يدك على فمك هكذا، لئلا يرى الناس سوأة فمك.

ولم أفهم لمَ استعرت نبرة صوته بالغضب فقلت مصطنعا الهدوء مسترسلا في مساءلته:

- كنت أحسب أن ذلك جُعل من أجل منع دخول الشياطين في الجوف، لا من أجل رؤية الناس.

- وذا أيضا، رؤية الناس معتبرة، كي لا يفتنوا بك.

- فذاك هدي النبي في التثاؤب، فهدي من تقول عنه في السؤال والكلام؟

فما كان منه إلا أن نفض حِجر قميصه الأبيض بغضب وهو ينتفض واقفا:

- هدي بن تومرت يا صويحب، هدي تلك الحرب الطاحنة التي يقتل فيها المسلمون إخوانهم المسلمين، أما ترى؟ أما تسمع؟

ولـم يوجع قلبي من خشـن كلامـه إلا قوله يا صويحب، ألهذا الحد تضاءلت في عينه؟............

....

هنا رقعة قديمة مدسوسـة بين الرقاع الجديدة مكتوب فوقها (رسـالة إلى مصدق).

يا رفيق خيمتي ما أنا إلا مقرئ قال له بن تومرت مرة مع ابتسـامة وأنا أصب وضوءه سـيكون لك شـأن، فملأ قلبه بالأماني، هـل كان يقصد ما قاله لـي على الحقيقة أم أنه كُشـف له فرأى غيبًا أم تأسـى بالرسـول في الدعـاء لمـن يصب عليه وضوءه، أم أنه كان يقولهـا لكل من خلا به، يُعد منهـم جنودا في حربه الخفيـة، حربه ضد عقول العـوام الزائغة ،العوام ! أتذكر ،أنت أول من اخترع هذا اللفظ، أعدت اكتشـافه، ولكن ما معناه؟.

أخبرنـي مـن أخبرني أنك ذهبت رأسـا إلـى خيمة الإمام واسـتأذنت عليه، ماذا أخبرته في خلوتكما، هل قلت:

- لقد كثر اللغط بين الناس يا إمام، العوام، أتباع كل ناعق.

ولكن لغطي أنا كان أشـدهم، ما أكثر خوفي من أن تكون قد وشـيت بـي عنـد بـن تومرت، ولكنـك لم تفعـل؟ أو فعلـت، إن كنت قـد فعلت فسيصير هذا مخاصـمتي لك عند الله يوم القيامة، وسأهنأ بغرف حسـناتك التـي أعلـم طعمها جيـدا، طعم الشـتاءات القارصة التـي صـففت قدمك للـه فيها وأيـام الصيف الحارة التي صُـمتها، سـأهنأ وسـيهنأ غيري، ممن

حملت جزءا من إثم قتلهم، كم مرة قلت لي استمسك بغرسك، ما أروع انتزاعكم لآثار الأولين الطاهرين.

بعد هذا اليوم، لم يعد سلامك عليَّ حين نتلاقى، سلام رضا بل سلام سنة، سنة وليس رضا!! كما أخبرت أحد رفاقنا المشتركين، ألم أقل لك ؟ ما أشد انتزاعكم للكلمات القوية وكأنها سيف بارد النصل، سيف حاد كالصراط المضروب بين ظهراني جهنم، ولكني لم أتوجس منك شرا إلا عندما غيرت خيمتك، كم كنت أستأنس بصلاتك وقراءتك للقرآن، فلمَ حرمتني منها؟ وهل كان باعثك على ذلك أنك حسدتني على مكانتي عند بن تومرت؟ ما كنت إلا صَابًّا لوضوئه ، وهل قلب كقلبك يمكن أن يتنجس بأدران الحسد ، قلب يحرص على الموت كحرصنا على الحياة، قلب يبكي حامله الساعات الطوال بعد كل معركة أنّ الله لم يختره، لكم أحببتك؟ فهل بادلتني الحب؟...

....

الرقعة الرابعة

كثيرا ما كان يفوتني حضور صلاة الفجر مع بن تومرت، ورغم شدته مع الآخرين في أمور العبادات لم يكن يؤنبني إلا بكلمات لطيفة عندما أذهب إليه قبل صلاة الظهر لأصب وضوءه قائلا:

- ألم تمر عليك ملائكة الليل قبل صعودها لتوقظك فتصلي الفجر معنا؟

فأجيبه خجلا وأنا أكاد لا أنظر في وجهه:

- يمرون، ولكن نومي ثقيل.

فيقول:

- أنت كاذب ظريف يا مؤمن، ليس نومك أثقل من قرى لوط التي حُملت على ريشة من جناح أحد هؤلاء الملائكة...

ولكن ذات ليلة غريبة لم أنم، أرقتني خواطر عجيبة، أمي وزوجتي وشيخ الكتاب، لم يكن ملاكا ذلك الذي ظل يهمس في أذني في تلك الليلة فظللت مستيقظا، بل كان شيطانا، ظل بي حتى حملني حملا محموما إلى خارج الخيام وكأنني أتريض ورأيت مصدق، هو ورجلين معه يحثّان السير ناحية البئر البعيدة، سرت خلفهم، لمحتهم يصعدون جدار البئر ويدلون حبلا سميكا فيه ويهمون بالهبوط واحدا تلو الآخر، عندما رآني مصدق قادما عليهم صاح بي هامسا:

- مؤمن!! الحمد لله أنك أتيت، كنت أسأل نفسي لتوي من الذي سيسحب الحبل بعد نزولنا البئر.

قلت في شك:

- ولماذا تنزلون إلى البئر يا مصدق في هذه الساعة من الليل.

رد في عجلة:

- ستعرف بعد قليل، قل لي: ألم يحن ميعاد صب الوضوء للمهدي.

وكأني بها لهجة سخرية:

- لا يزال هناك وقت كثير حتى صلاة الصبح.

قال وكأنه يلومني:

- لم تعد تنام مثل أول يوم تقابلنا فيه.

- أشياء كثيرة تغيرت يا مصدق، حتى أنت تغيرت، قل لي، لماذا تنزلون في البئر؟

- ستعلم بعد قليل، اقبض على الحبل.

صعد على الجدار بعد زميله، كان الأخير، لاحظت عندئذ شيئا غريبا فسألته:

- لماذا تحمل أنت دون غيرك الخنجر؟

- إنه لقتل الثعابين والعقارب التي قد تكون كامنة في البئر.

- ولم لا يحمل رفيقاك سلاحا كما تحمل؟

لم أر أسرع منه إجابة، لم يتلجلج عندما قال:

- لكي لا يجرح بعضنا بعضا عند التدافع في قتل العقارب والثعابين...

لم أمكث طويلا عند البئر بعد نزول مصدق فيه، أخذت الحبل وأخفيته كما أمرني، عدت سريعا إلى الخيام وإلى خيمة بن تومرت ومن فرط تعجلي وقلقي ورغبتي في سؤاله عما رأيت من أمر مصدق حملت ماء الوضوء ودخلت عليه دون استئذان، لم ينتبه لي الحارسان

عنـد الباب، لـم يكن بن تومرت معتادا على دخولي عليه بماء وضوئه في صـلاة الصبح ولكن الحارسـين لم يتبها لي بحكـم الألفة، حامل الكور والطســت، شـاء الله أن دخلت في تلك اللحظة التي كان فيها بن تومرت يقول للونشريشي:

- حان وقت خروجك على الناس يا عبد الله.

فيرد عليه لدهشتي الونشريشي المجنون بأحسن لسان:

- نعم يا أستاذ الأستاذين .

أليـس أصـما؟ أليس أخرسّ؟ لكم وددت لو كنت قد صبت الرصاص المصهور في أذني ذلك اليوم قبل أن أسمع حديثهما، ما أشد سذاجتي أنا ومصدق، حاولت أن أعود قبل أن يلمحاني.

- ادخل يا مؤمن.

صـاح فيَّ بن تومرت وقـد رآني، وانصرف عندئذ عبـد الله المجنون بسـرعة، قال لي بن تومـرت وأنا أصب عليه المـاء بينما يتفحص وجهي المطرق:

- اليوم أيقظتك الملائكة؟

- لا.. بل كنت متيقظا طوال الليل.

- آه، هذا هو السـر إذن، لابد أن مصدق رفيق خيمتك هو من أيقظك.

- لقد ترك خيمتنا منذ شهور طويلة.

- لماذا؟

- لكيلا يقلقني وهو يقيم الليل.

- لله دره، إنه أفضل منك بكثير يا مؤمن، تكفيه عبادته وإخلاصه.

قلت في قلق عندئذ:

- ولكني رأيته الليلة.

- صحيح؟ أين رأيته؟

- عند البئر هو ورفيقاه.

- البئر، ماذا رأيت هناك؟

حكيت له ما رأيت باختصار فسألني مندهشا: هل نزل مصدق مع الرجال؟ أجبته: نعم.

- وماذا قال لك مصدق يا مؤمن قبل أن ينزل؟

- قال لي: ستعلم كل شيء بعد قليل.

- إذن، ليكن الأمر كما قال، قم بنا نصلي الصبح..

....

وعلى قلة ما حضرتها كانت أغرب صلاة صبح صليتها، بعد الصلاة قام بن تومرت وصاح في عبد الله الونشريشي من خلف الصفوف:

- تقدم يا عبد الله، قل للناس ما حدث لك.

نظرت، رأيت عبد الله الونشريشي وهو يشق الصفوف بخطوات متزنة وملابس نظيفة وكأنه خُلق خلقا جديدا، وقف وحمد الله وصلى على النبي وقال للناس إن في هذه الليلة أتاه ملكان وشقا صدره وحشياه حكمة وعلما ومن أراد أن يختبره فليختبره، تدافع القوم بأصواتهم يسألونه في ذهول، ذلك يسأله عن آية وتفسيرها وهذا يسأله عن متن حديث وسنده ومدى صحته وفي أي الكتب رُوي، وهو يجيبهم بأفصح لسان حتى عم السكون المسجد، ولما يزل على وجوه الناس بقايا لعقة من ذهول وتكذيب..

قال عبد الله الونشريشي إن كنتم تكذبونني فيما قلت فالملائكة التي شقت صدري تختبيء في بئر قريب، فتصايح الناس: أرنا الملائكة، أرنا.

- سأجعلكم تسمعونها، ولكنكم لن تروها وإلا غُشيت أبصاركم من شدة النور.

- رضينا بذلك.

خرج الناس يثيرون الرمال خلف عبد الله الونشريشي، سار بهم إلى البئر التي يختبيء فيها مصدق ورفيقاه، دلى عبد الله الونشريشي رأسه في حلق البئر وصاح فأجابه رفيقا مصدق، سألهم أسئلة لم أعِها لأني كنت منشغلا بمصير مصدق بعد انصراف الناس، بعد انتهاء الأمر صاح بن تومرت في الجمع الهائل عند البئر وهو يكبّر:

- الله أكبر، لقد صعدت الملائكة إلى السماء وأنا أراهم الآن، حرام عليكم ماء هذا البئر، اردموه الآن قبل أن تنصرفوا.

اندفع الناس بحمية لتنفيذ أمر المهدي واندفعت أنا ممسكا بحلق البئر أنظر بداخله وكأنني سأصيح في مصدق أن يصعد قبل أن يدفنه الناس حيا، ولكني رأيت لمعة خنجره في الظُلمة وهو يتحرك شمالا ويمينًا قبل أن يدفعني الناس للخلف في تدافعهم لينالوا الأجر في ردم بئر الملائكة..

....

ورقة أخرى قديمة، رسالة أخرى إلى مصدق بالتأكيد لم تصل.

تُرى ماذا قال لك بن تومرت يا مصدق لكي تتحمل الردم حيا في البئر؟ هل أخذك تحت إبطه كما أخذني في يوم البحيرة وذقت من عسل عينيه المُسكر فصرت مستعدا لفعل المعجزات، أو ربما قال لك سيُظهر الله معجزته الليلة في عبدالله الونشريشي ولكن الناس لن تصدق إلا بأن تحدثهم الملائكة بذلك.

هل كنت تعلم يا رفيق خيمتي ما سيفعله بكم بن تومرت بعد نزولكم إلى البئر؟ وإن لم تكن تعلم فما حملُك لخنجرك؟ هل وعدك بن تومرت بالنجاة بعد أن تقتل رفيقك فخانك؟ أم أنك قتلتهما وانتظرت بصبر القتل دفنا؟ علمت أنك كاذب من لهجتك في الكلام عندما سألتك عن الخنجر فقلت لي لكي لا يجرح بعضنا بعضا عند التدافع، ما أشد ذكائك وما أسرع ردودك، ولكن ما أغبى تلك الفكرة في مجموعها، أرأيت ملائكة من قبل يتحدثون من بئر، أتتحدث الملائكة من أعماق الآبار أم من أجواز الفضاء، ولكن المغفلين صدقوها...

أنـا أيضـا كـدت أصـدق حرصك علـى رفاقك لـو لا أن رأيـت لـمـ
خنجرك في ظلام البئر وسمعت صيحات التألم، لم يكن المسكينان آخر
من قتلتهما في الدنيا بعد أن غادرتها مدفونا حيًا، كانوا سبعين ألفًا يا رفيقي
قتلتهم بفعلتك بعد أن محص عبدالله الونشريشي القبائل فاستخرج منهم
سبعين ألفا ممن كثر لغطهم وتشكيكهم للناس فصار لزاما أن يُقتلوا، لِـمَ
مـا أثارت دهشتي محاولات بن تومرت لإبراز معجزة الونشريشي في
هـذا الوقت بالذات قبل الذهاب إلى حصار مراكش، جمع بن تومرت
القبائل وأخبرهم أن عبد الله الونشريشي سيمحّص رجالهم رجلا بعد
رجل، ومن اختاره للموت سيكون خائنا مستحقا له، كنت أعرف كثيرا
منهم بحكم أنني كنت ممن يشككون في مهدية بن تومرت دون أن ينفوا
عنه إمامته وأحقيته بسلطنة البلاد، قتلهم إخوانهم وآباؤهم وأفراد قبائلهم
ذبحا، وكيف يُرحَم أصحاب الشمال من أصحاب اليمين إن كان قتلهم
شهادة دخولهم إلى الجنة.... وإلى مراكش.

....

الرقعة الخامسة

حروب ودم وتصفية للمعارضين، تهتز يداي أربع مرات في اليوم
وهي تُصب الماء على يد المهدي، ما الذي يغسل بن تومرت يديه منه في
كل صلاة وأنا أصب عليهما ماء الوضوء، لم أعد أبصر فيهما إلا الدم،
لدرجة أنني صرت أسأل نفسي كثيرا: متى سيكون دمي على هذه اليد التي
لا تفتأ تكبّر للصلاة والجهاد، ولكن دم مصدق كان أكثرها دكنة وسوادا.

بعد مقتل السبعين ألف وإراقة الكثير جدا من الدم ذهبنا لحصار مراكش، بقيت تلك الخطوة الأخيرة لتمدد دولة بن تومرت المهدي..

هناك، في مراكش، حول أسوارها دارت معارك ينتصرون فيها علينا ثم ننتصر، فإذا كانت الغلبة لنا قلنا ها قد انتصر الحق، ولكن في الغد نسمع نفس الجملة من خلف الأسوار بعد عودتهم برؤوس قتلانا على رماحهم، نسمع صوت بكاء الثكالى من خلف الأسوار فيبكي له الجنود وقد ظنوا لوهلة أنه بكاء نسائهم وقد حملته ريح الصحراء كل هذه المسافة.

وكان بن تومرت خلف كل معركة ننهزم فيها يرسل رجلا يطوف بين الخيام ويصيح في الناس أن النصر قد تأخر بذنوبكم فلا تحاربوا أنفسكم بالمعاصي.

حتى كان يوم البحيرة، يوم المقتلة العظمى...

في ذلك اليوم انكسرنا كما لم ننكسر من قبل، هرب الجنود عندما تأكدوا من هزيمة ساحقة آتية وثبت طلبة العلم في ساحة المعركة، رأيت الجنود ورعاع مراكش يصعدون على أكتافهم ويستيحون أعناقهم بمُداهم التلمة، ما تركوا شحذها لكسل بل لهواننا عليهم، فباءوا بالإثمين معا، إثم قتل المسلم وإثم عدم إحسان القِتلة، ولكن هل كنا مسلمين وقت قتالنا لهم؟ وهل كان الإسلامُ مع المرابطين أم كان الإسلام كما قال لي مصدق ذات مرة قبل أن يصبح قتيل البئر المقدسة:

- كالسحابة التي تظلنا جميعا، غطاها غبار المعركة ثم ظهرت بعد زوال، فعدنا مسلمين كما كنا..

كم كان مصدق مسكينا مثلي، مسكينا وحائرا ولكنه جعل لدائرة حيرته حدودا لا يتجاوزها، خامات بنيانها أقوى من خامات بنيان سد يأجوج ومأجوج، فإذا أخبرته بقول النبي (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فكلاهما في النار) فيجيبني بقول الله (وإن طائفتان من المسلمين اقتتلا فأصلحوا بينهما)، ولكن من يُصلح يا رفيق خيمتي الغافل؟ أي طائفة أخرى تضع نفسها بين شقي الرحى فتصير دقيق هذه الحرب العجيبة، ولن يلبث -حتى لو تم الصلح - أن يعود حجرا الرحى من جديد، وكأن حربهم ليست على أيهم برأس بل كانت على أيهم يعلو ويدور ويتآكل أولا، أكاد أسمعه في قبره العجيب بالبئر يقول كيف اكتسبت تلك الحكمة، أجيبه من موتتي مرات ومرات، الفقراء يموتون كل يوم يا مصدق، لا تعلم ذلك عني؟..

لم يكن يعلم عني سوى أني مقرئ ضعيف البنية، ولكن بن تومرت عرف قيمتي وهذا ما جعلني ملازما له رغم تكذيبي له وكراهيتي، لكنه كان يدخرني لأمر لا أعلمه، كنت مخدوعا مثلك يا مصدق، ولكن مخدوعا مفتوح العينين..

....

تفكك حصار مراكش إلى بقايا جنود هاربين، وقُتل الونشريشي مع من قتل في معركة البستان، في ليلة الهروب أرسلني بن تومرت وحدي

لأدفنه بعيدا عن أرض المعركة مخاطرا بي أن تدهمني شراذم المرابطين فيقتلونني، في ضوء القمر دفنته كما يجب أن تُدفن معجزة كاذبة، عميقا، أنا من دفن الونشريشي بعد خمسين يوما من ظهور معجزته، أليس من المفارقات العجيبة أن تكون المعجزة يا مصدق التي دُفنتَ حيا من أجل إثباتها أن أكون أنا من دفنها ميتة..

عدت سريعا لألحق بالإمام وبعبد المؤمن بن علي قبل أن يبدأ هروبهما بمن تبقى من جنود قبيلة المصامدة، وصلت المعسكر مع أول النهار فرأيت فلول الجيش المنهزم مجتمعة حول بن تومرت كما يجتمع الطير العطش حول نبع ماء في الصحراء، سمعته يصيح فيهم أنه لن ينجو بنفسه ويهرب دون جسد الونشريشي الطاهر.

انطلق الرجال لتنفيذ رغبة المهدي، رآني بن تومرت ولكنه لم يكلمني ولم ينظر لي، هل نسي أنه أرسلني ليلة أمس لدفنه، كان أمرا متوقعا أن لا يعثر الجنود الذين أرسلهم عبد المؤمن بن علي على جسد الونشريشي بين القتلى، بل إن أحدهم قال إنه أثناء البحث بين الجثث سمع صهيل فرس فرفع رأسه ورأى الونشريشي يركب حصانا ويدلف به بين السحب، كبّر بن تومرت وكبّر المحيطون به لتكبيره، ولم ينقطع تكبيره طيلة هروبنا إلى فاس بمن تبقى!!...

....

ما أشد وطأة الحروب الطويلة.. تختفي وجوه وتظهر وجوه فلا تعود تسأل عن الأحياء خشية أن يكونوا موتى ولا تعود تستوثق من وجوه

الأحياء خشية أن يكونوا أشباح قتلى معذبين تطوف في المعسكر ، ا
الونشريشي وتولى عبدالمؤمن بن علي، ولكن على من؟ ضعاف الم
ضعاف القلوب، حتى في أرض فاس التي لم ننهزم فيها قط صار
الهزيمة فيها من المسلمات..

لزم بن تومرت خيمته، يصلي ويفكر، أنا أيضا لم ينقطع عجيج
الأسئلة التي يبثها الشيطان في أذني، كيف سيسعيد بن تومرت قلو
الناس من حوله، وماذا ستكون معجزته القادمة، هل سيجعلنا نر
جبريل عليه السلام يجوب الصحراء والزرع ينبت تحت حوافر فرسه
أم سيحيي لنا الموتى في قبورهم؟ ظلت تخميناتي تدور في فلك الحير
حتى أرسل بن تومرت في طلبي ذات غروب، خرجنا من ظهر خيمته
وسرنا، أخذني تحت إبطه وتحادثنا طويلا، ذقت من عسل عينيه، ليتا
عيني كاذب ولكني أعلم أنه كاذب، عاد لي قلبي يوم أن قال لي سيكون
لك شأن، يوم أن اتسع قلبي بالأماني، شعرت لابتسامته حبورا ولرضاه
بردا وسلاما على قلبي، أتكون تلك حجتي أمام الله، ضعف القلب،
وهل ستكون أوثق من حجة مصدق..

قال في أسى:

– لقد وهن العوام وضعفت قلوبهم يا مؤمن، يحتاجون إلى معجزة
جديدة.

هتف قلبي عندئذ: ما أضعف قلوب العوام وما أقل ثباتها بمعجزة
واحدة.

ولكنـي لـم أرد، فقط نظرت إلـى الرمال حيث بدأ بن تومرت يرسـم بعصا في يده دوائر متجاورة.

لقـد ادخرتك لهذه اللحظـة، غدا بعد أن تنتهي المعركة سـتذهب أنت وبعـض ممن تتخيرهم مـن رفاقكَ إلى هناك، وليكونـوا ضـئيلي البنية، تحفرون حفرا بعددكم وسـتجعلهم ينزلـون إلى الحُفر وتغطيها وتترك لهـم ثقوبا ليتنفسـوا منها، بعد أن يأتي الليل سـأذهب أنـا والقوم الذين يشككون في مهديتي إلى هناك وسأنادي القتلى الذين دفناهم وأسألهم عن وعد الله لهم بالجنة فيجيبونني بأنهم قد وجدوا ما وعدتُهم حقا.

أي شيطان يا بن تومرت أوحى لك بهذه الفكرة، ولكن لعلها الفرصة التـي انتظرتهـا طويـلا لأفضحك على رؤوس الأشـهاد إن اسـتطعتُ أن أغالب ضعف قلبي.

قلت راجيا:

- لي طلب صغير.

- وما هو؟

- أريد أن أنزل هناك في الحُفر مع رفاقي.

ظـل ينظـر لـي فـي تعجـب وكأنـه يحـاول أن يتبيـن نيتي مـن عينيّ، وكأنه يود أن يقول: ألسـت كاذبا مثلي يا مؤمن، أنا لا أدفن سـوى النبلاء والمخلصين، أما أنت فـأجعلك بجانبي أمسح بك خراء العالم.

سألني:

- ومن سيسدُّ الحُفر؟

- ليرسل القائد عبد المؤمن بن علي معنا من يحل محلي في سد الحُفر..

سكت قليلا، بدأ يسد الدوائر التي رسمها بعلامات × ثم تنهد عاليا وقال:

- لقد كان هذا هو خيار مصدق أيضا، ألحَّ عليَّ أن ينزل البئر ولكني رفضت، أعلم أنه ما كان له أن يعصيني، ربما نزل مع الرجلين لأنه خشي من عصيانهما في تلك اللحظة الحرجة.

- ولكنك أمرت الناس أن يهيلوا التراب عليه.

- كان يعلم أيضا بموضوع الدفن، لقد اختار كما تختار أنت الآن..

اقشعرَّ جسدي، كيف سيأمر بن تومرت أتباعه بقتلنا في الحُفر ونحن موتى ولكن نفذ السهم، قلت مرتعدا:

- لقد مللتُ من الدم يا إمام، أخاف من الذنب.

لعله لم يتنبه إلى مقولتي يا إمام، لم أقل يا مهدي.

لبث يفكر وأخيرا قال مشفقا وكأنه قرر أمرا:

- لك ما تريد يا مؤمن، لك ذلك.

....

حتى الآن لا أستطيع أن أفهم حقيقة ما كنت أنتوي فعله في ذلك اليوم، بعد كل هذه السنوات، بعد الحكمة التي اكتسبتها من طول الصمت والتفكر وملاحظة الأشياء وهي تنمو وتذوي وتموت، تبدو لي الآن كل الدوافع تافهة، دافعي الأول الذي أنفيه بشدة لا لشيء إلا لأنني لا أطيق أن يكون هناك عاقل في العالم يذهب إلى الموت لأجل مجد إنسان، وكافة دوافعي الأخرى حتى لو كانت فضح بن تومرت..

دائما يكون موت الفقير انتصارا له، عندما يكون في السفح، بين العوام في الزوايا والأزقة المجهولة جار الروائح النتنة زاعقا بأعلى صوته فلا يبلغ محيط بيتين حوله، عندما يُلقى السهم من أعلى فلا يصيبه إلا اعتباطا مهما اجتهد للفرار منه رغم كثرة الناجين حوله وكثرة الهالكين أيضا فتساوى حينذاك أسباب الأمل مع بواعث الإحباط، يكون الموت حينذاك ترفا، رغم أنه يكون هزيمة في سباق القطيع الهائل، وحتى بصورته الفردية، عندما يصعد الفقير إلى القمة، كل القمم التي يصعدها الفقراء مدببة، جُعلت كذلك لأن انتصار الفقراء لا يتسع لهم جميعا، وكل خصومه فقراء مثله، وكلما طالت مدة بقائه كلما صار غرضا لسهام الضغينة وحده وأكثر عُرضة للدسائس وللموت فيكون الموت حينذاك انتصارا أيضًا قبل أن يسقط وتدق عنقه..

ولكن رغبتي في الموت لم تكن لتجيز لي قتل الآخرين معي، وكنت أسأل نفسي مرة بعد مرة ما الذي فعلته بنفسي وبرفاقي، كانت معركتنا

الأخيـرة التي لم نخضها ورغم ذا ذهبنا إلى جـوار رفاقنا القتلى في عمق نفـس الأرض التي دارت عليها، أهذا هـو الزمن الأعجب الذي يقتل فيه المسـلم أخاه المسـلم وتطهر الدماء أجساد رجال وتنجس أجساد رجال آخرين، أهـذا هو الزمـن الذي يُمسي فيه الرجـل مؤمنا ويصبـح كافرا، ويحفر قبره بيده ليس حسدا لمن سبقوه بالموت بل مظنة النجاة من حيث يبصر الجميع أن لا ثمة نجاة، لم يكن جيل من ذهب يقتل أسفله المائة فلا ينجو منهم إلا واحد يظن جميعهم أنه سيكون الناجيَ الأوحد الفائز بالغنيمة، ولكننا نهلك عدة مرات بالمجاز قبل أن يأتينا الهلاك المضحك الذي لطالما سخرنا منه في جلساتنا فيهلكنا في الحقيقة.

ذهبنـا إلى أرض المعركة بعـد أن انصرف الأحياء بجرحاهم وبعد أن غيبوا قتلاهم تحت أطباق الأرض ولم تزل تباب حفرهم طرية لم تندمل بعد ولم تبعثرها الريح، الرمال تحت أقدامنا كانت متماسكة كأن السماء قد أمطرت هنا قبل قليل، ولكنه لم يكن مطرا، كانت الرمال معجونة بالدماء، حفرنا حُفرا رأسية متباعدة، كل حفرة تسع رجلا واحدا واقفا بداخلها، جعلنا فوقها من جذوع الشجر القصيرة للغاية على فوهاتها الضيقة التي تسع بالكاد لمرور رجل ضئيل. كلنا كنا ضئيلين!، حفر كجحور الضب تسع للدخول ولا تسع للعودة إلا أن ينبش أحد ما عليك، طريق في اتجاه واحد مغلق على العدم الصلب من الناحية الأخرى.

الرجال الذين أرسلهم عبدالمؤمن بن علي معنا كانوا أجلافا، أرسلهم ليساعدونا في الحفر وليموهوا على فتحات الحفر بعد نزولنا فيها، مهمة

مشتركة إذن ولكنهم بدوا صامتين كأنهم لا يعرفوننا، لا لغة بينهم سوى لغة العيون وكأنهم ولدوا صُماً وبُكماً، وإن كان لا ينقصهم الحماس لدرجة أنني رأيت أحدهم يحفر بسلاحه الرفش وليس به إلا بقايا يد خشبية متهالكة، بعكس الرجال الذين أتوا معي - رجال الحُفر - كانوا متهالكين متباطئين، كل اثنين يحفران معاً، أما أنا فحفرت حفرتي بنفسي وجعلتها متسعة من أسفل، كنت آخر النازلين إلى حفرتي، سبقني قارئ ضئيل الحجم كان بجواري في الحفرة، رأيت كتفيه يرتعدان وهو متشبث بحواف حفرته دون أن يلج فيها بكامل جسده فتذكرته في المعسكر، كان لكتفيه نفس الارتعاد وهو يقرأ القرآن، لاحظه أحد رجال مؤمن بن علي فجاء ناحيته وأمره بخشونة:

- انزل.

- لا أستطيع.

- بسرعة، لا تعطلنا، المهدي سيأتي وسيغضب، انزل.

- لا أستطيع.

- لماذا أتيت معنا إذن، كان يمكنك أن ترفض المجيء، كان يمكنك أن ترفض أن تحفر، لا تستطيع تخيل نقمة الأسفو عليك، سيأمرنا بقتلك...

كاد الرجل أن يبكي وهو يقول:

- لا أستطيع، الحفرة ضيقة.

عندئذ انتبهت، لم يكن رافضا، تأمله محدثه قليلا ودار حول حفرته وقال متسخطا:

- لماذا حفرت حفرتك غير مستوية، قد تختنق من قلة الهواء إذا سقط فيها شيء وسد المنطقة الضيقة.

حاول القارئ أن يخرج وهو يهتف:

- لنوسعها، سأوسعها أنا.

- لا وقت لتوسيعها الآن، المهدي آت ومعه الناس..

أخذ يضغط على رأسه وكتفيه في حنق، مرة بعد مرة بينما يصيح الرجل وهو يتشبث بالرمال في حلق الحفرة: أخرجني أخرجني، ولكن الأرض أسفل منه خانت تماسكها وسقطت به، في ذعر سقوطه كان يصرخ، حتى بعد أن نزلت في قاع حفرتي كنت أسمعه يصرخ، نظرت لأعلى، رأيت السماء قريبة جدًا، شعرت بنوع من راحة لرؤيتها ولكن الراحة تبددت تمامًا عندما بدأت فتحة الحفرة تُسد تدريجيًا، بتلال التراب والصخور فوقنا بفعل المعاول المسرعة التي كان صوت نعال أصحابها آخر ما سمعناه بعد صيحاتهم وهم يحثون بعضهم البعض.

- تأكدوا من الثقوب التي سيتنفسون منها، لا نريدهم أن يموتوا قبل مجيء المهدي.

بعد انصرافهم انقبضت نفسي انقباضا شديدا وتكاثفت ظُلمة مختلفة حول عينيّ غير ظُلمة حفرتي، أهذا هو الموت عندما يستيقظ له الموتى

بعـد انصـراف دافنيهم؟ الظُّلمـة التامة ورائحة التراب والشـوق الجنوني للأصوات التي تبقينا على وعينا بالحياة.

أخـذت أفكـر في أمر بن تومـرت، لم يكن بن تومـرت كاذبا في بداية أمـره، لـم يكن جاهـلا في نهايته، لم يكـن طاغية، كان صادقـا به نوع من هوس خفيف وحُب لا حد له لعالم مضطرب فماذا حدث؟

سـمعت صـوت الأقـدام وأزيـز النيـران وطقطقتهـا فوق المشـاعل وقطعت تسلسـل أفكاري صيحةُ بن تومرت:

- يا معشر الشهداء هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟

وقبـل أن أفتح فمـي لأكذبه اندفع عجيج الأصوات مـن الحُفر يجيبه قائلين:

- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

جف حلقي لحكمة لا يعلمها إلا الله، وحتى لو نطقت هل سأكذبهم أم أكذبـه، كيـف يُكـذِّب هـؤلاء الذيـن لا يـرون الآن في عيونهم سـوى التـراب الأسـود المعجون بدمـاء القتلـى زملائهم ولـم يمـر على موتهم بعد ربع نهار ولا يسـمعون في آذانهم إلا خطوات الأحياء المتبقين منهم فوقهم حاملي المشـاعل مع بن تومـرت متأهبين للانصـراف بعدما عاينوا المعجزة متأهبين لمعارك أخرى...

وما مصيرهم إلا كمصير إخوتهم المتصرفين، وهل بعد ذلك من ألم؟ أن تموت وفي عنقك إثم خداع أموات قادمين، ذنب لا تكسر تعويذته.

....

ولكم وددتُ أن تعرف يا رفيق خيمتي ما حدث بعد أن تركونا وانصرفوا، سمعنا قرع نعالهم فوقنا وانسحب الضوء من الثقب الذي تركوه لنا لنتنفس منه، صار الهواء الآتي من ذلك الثقب ثقيلا أكثر من ذي قبل وكأن الظلام امتزج به، كانت موتتي الأولى، مرت لحظات مثل الموت في سكونه وشلله فكنت أتحسس جسدي كل لحظة لأتأكد من استمرار حركته الملازمة للحياة، هذه الميزة التي كنت أعلم أكثر من غيري أنها لا تتوفر لرفاقي المدفونين بجانبي حيث حرصت على توسيع حفرتي خفية، ولم أندم على شيء فعلته قط ندمي على ذلك، أني لم أمنحهم تلك اللحظات من زوال اللبس عليهم كلما نخسهم الشيطان بوساوسه، فطفقت بعد قليل أنادي عليهم واحدا واحدا فيجيبني منهم البعض ولا يجيبني إلا الصمت عن الباقين فعلمت أن الإغماء قد غلبهم، وجعلت هذا ديدني كلما مرت ساعة من الزمن لأطمئن على مستيقظيهم وأوقظ نائمهم إن خفت نومته، كانت تلك نيتي، وكم من حسن النية مجازى بالسوء العاجل، فما لبث إلا قليلا حتى صمتت الأصوات التي تجيبني صوتا بعد صوت، عندئذ انتبهت وكأن ندائي قد أصم أذنيَّ عن سماع صوت خطوات تتحرك فوقنا، فلما توقفت عن الصراخ سمعتها

فوقي، وإذا بصوت أعرفه جيدا أو ربما خُيل لي، صوت الذي وجد بن تومرت اسمه مكتوبا في كتاب الجفر مُقَرطا، وما علمت حينها، أهو الشيطان من شبه لي صوته أم أنه على الحقيقة وقد أرسله بن تومرت في تلك المهمة السرية.

تحدث هذا الصوت معي ولم يوجز في الحديث، فما من مُتَكَلِ ليوجز في الكلام وسماء الليل فوقه بعيدة والوقت طويل، أخبرني أنه ما كان ليعرف مكاني لولا صوتي وأنه سد على رفاقي ثقوب الهواء إليهم فماتوا خنقا، وأن بن تومرت طلب منه أن يخرجني بعد اختناق أصحابي لأنه يحتاجني.

ولم أعلم حينئذ بعد ان نغَّص عليَّ بقتل أصحابي هل سأفرح بخروجي أم سأحزن، ولكنه عاد على الفور فأخبرني أنه ناقش بن تومرت في ذلك، فوكل الأمر إليه، ففاص قلبي حينذاك وأيقنت بهلاكي، وكأن يقيني بالموت دفع بالشجاعة إلى عروقي فصحت به أنني لا أخاف من الموت في سبيل الحق والدين، ولا أجد خلفه إلا الجنة، فما راعني منه إلا ضحكة دوت فوقي كنذير موت عاجل وصوته يجيبني:

- أي حق ذاك الذي تتحدث عنه؟ وقد سمعت الكذب بأذنك ورأيته بعينك وما بعد ذلك من يقين سوى ما ستلاقيه بعد قليل.

فصحت:

- ما حقيقة قولك؟

فأجابني:

- الونشريشي الذي علمت كَذبةُ في الليلة الحاسمة وطاقت نفسك أن تسكت على خداع المسلمين به فيقتلون أبناءهم وذويهم.

- ولكن مصدق هو من...

قاطعني صارخا:

- لا تنجس اسمه بلسانك، مصدق كان حسن النية وليس مثلك.

- لو أطال الله في عمري سأفضح بن تومرت.

- كان يجب أن تفعل قبل الدم.

- ما أردت إلا الخير.

- وكم من مريد للخير لا يبلغه يا صاحب الحفرة ولكن.....

فسقط قلبي من قولته (ولكن) فصحت دون وعي متشبثا (هاه) فما راعني منه إلا قهقهة عالية جعلتني أنتفض حنقا في حفرتي.

هل أخبرك يا رفيق خيمتي كم عدد المرات التي مت فيها وهذا العابث فوقي يلعب بي، أصبحت متيقنا أنه الشيطان وقد تلبس الصوت الذي أعرفه، مالِ (عبد المؤمن بن علي) ومقرئ ضعيف مثلي، لو أراد عبد المؤمن أن يقتلني ما ماطل كل هذه المماطلة، لو كان هو ما سدَّ ثقوب التنفس لنا بل لهبط برمحه عميقا فيها بكل ثقله فثقب أعناقنا واحدا تلو الآخر، كم مرة هاجمتني الخواطر السوداء عن حقيقة ما يفعله

هذا الشيطان فوقي، أنتظر من وقت لآخر أن يفعل ما لا يخطر على بال، حتى طال الوقت فهتفت به:

- يا عبد الله إن كنت مؤمنا فأحسن القتلة، وإن كنت كافرا فلا تماطل في قتلي فإنما أنت كلب عندي و لا أطيق نجس خطوك فوقي.

فما كان منه إلا أن ضحك ولم يُحر جوابا عليَّ، غير أنه نطق بعد كثير من الزمن وكنت قد بدأت في الاستسلام لإغفاءة تتخطفني فيها خواطر سوداء:

- اعلم يا صاحب الحفرة أني لست من تظن وما اختلط عليك الصوت إلا بلهجة قبلتنا فأنا من بجايه، وأنه لا شأن لك بديني فأنت أبعد من أن تسألني عنه، وأن رفاقك الذين ماتوا خنقا أفضل حظا منك، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين، ولتعلم أني منصرف الآن ولن أعود، وما فعلت بحفرتك غير أن عميتها عن الخلق وتركت فوقها الثقب الذي يدخل منه الهواء، وجعلت حوله ما يؤمنه من سفو التراب ودوس الناس وعبث الدواب الضالة لتظل حيا تتذوق غصص ما فعلته قدر تماسكك حتى تموت جوعا وعطشا، هذا حكمي عليك والسلام.

وما وعيت إلا وصوته يبتعد وهو يقول بينه وبين نفسه:

- ليجازيني الله على ما فعلت فأنت خصيمي يوم القيامة.

....

الرقعة السابعة

بعد أن انصرف ذلك الشيطان حاولت الخروج ولكن كانت كل محاولة تزيد الأمر سوءا، أخذت جوانب الحفرة تهيل وتضغط على جسدي فتدفنني حيًا بالفعل، توقفت، لوقت طويل ظللت أفكر أنني لو سحبت جسدي لأعلى فوق ما ردمني من رمال ثم نبشت في جدران حفرتي حتى يصل الردم إلى ما فوق إليتي ثم أكرر الفعل مرة بعد مرة حتى أصل إلى فتحة الحفرة سأخرج، ولكنه كان مجرد تفكير، لماذا أخرج، ألم أدخل هنا بإرادتي، أليس ما يحدث لي الآن هو ما طلبته غفرانا لذنوبي في اتباع بن تومرت، أي قيمة أعطيها لحياتي بخروجي وكشفي لكل ما فعله بن تومرت من أباطيل، هل سيصدقني الناس، يجب أن أهدأ واستسلم للموت كما كان مقدرا لي مع رفاقي..

مر يوم أو يومان، ربما أكثر، لا أدري، قضيت معظم الوقت نائما، لا أستيقظ إلا بمقدار ما أفتح جفني عينيّ ثم أطبقهما، لا أحاول أن أزيل التباس الأشياء من حولي بحواسي، ففي الحفرة يختلط عليك كل شيء، الجهات. الأصوات. الإحساس بالأعضاء، حتى الوقت! تتداخل الأوقات كظلال مجموعة من البشر الأسرى في نطاق محكم، كأصواتهم عندما يصيحون في وقت واحد معا بأحوال شتى، كمثلهم عندما يُدفنون أحياء بإرادتهم في أرض ضيقة ظانين أنه بمجرد امتلاكهم حلما واحدا للخروج سيخرجون، فلا يحدث أكثر من أن يغتالهم الظلام والهواجس دون رحمة كُلًا على حدة..

ولكن الضوء لم يتركني، الضوء هو ما أنقذني من الموت، رغم أنه لم يتحدث، لم يقل لي: أنا آسف، كان ضوءا طيبا دافئا وكأنه يريد أن يحملني في رحمه، ما فعله الضوء معي تحت الأرض جعلني مستعدا لأن أصدق خرافات أمي عنه عندما يأتي في الحلم، هذا الضوء كان يشبهها.

هل يحلم الجنين في رحم أمه، بماذا يحلم؟، ربما يحلم بالضوء مثلي في ظلمته الإجبارية، ولكن من نزل إلى تلك الظلمة باختياره فبماذا يجب أن يحلم؟ في البداية رأيتُ ضوءا مبهرا أسبح فيه أو يسبح من خلالي، ثم تنوعت الأحلام، حلم رأيت نفسي فيه صغيرا في حوش شيخ الكُتاب أغمس لقمتي بضوء الشمس وأضعها في فمي وأمضغ فتتكسر لها أسناني، يمتلئ فمي بالشظايا فألفظها جانبا وأستمر، مستمرا رغم إرادة اليقظة المبثوثة في أطرافي ورغم الشظايا وطعم الدم المالح، رغم أني في حقيقة طفولتي ما أكثر ما أكلت لقمتي خفية عارية من الغموس غير ما نبش عنه في رمال الصحراء بعد سقوط المطر.

المطر، متى سمعت المطر يدق سطح الأرض فوقي؟ في أول مرة اندهشت وشعرت بالماء يتسرب من أعلى، ولكنني لم أجد عطشا يحمسني لغرف الماء إلى فمي..

أحلام الضوء التي أتتني كانت توقظني، مثل فرخ حيس كلس بيضه، رغم أنه لا ضوء يستطيع أن يصل إلى حيث دُفنت، كان الماء يصل ولكن الضوء لا..

ثم شعرت أن الماء مرتبط بالضوء بصورة ما، يأتي الماء حقيقة فيوقظني الضوء في الحلم، أفتح عينيّ فلا أرى إلا ظلاما، ولكني أشعر بالماء يبلل ما حولي فآخذ من الطين وأمصه حتى يتفكك جوفي، ثم أنبش بأصابعي بعض ما نبت حولي وأمضغه وأمتص عصارته ثم ألفظه، وكثيرا ما كنت أميز حركة ديدان الأرض في الطين الذي أمتصه فأستخلصه، أمضغه وأبتلعه..

عندما خرجت لم أكن أعلم كم من الوقت مر عليّ وأنا تحت الأرض، انحسر عني التراب، وشعرت برأسي قريبا من وهج الشمس، تسحبت خارجا بجسدي بعد جهد شديد ومكثت مستلقيا حتى دبت الحركة في أعضائي بفعل الحرارة فقمت أسير، ملابسي قد ذابت على جسدي فكنت عاريا، عثرت على بعض من قماش خيمة قديمة فسترت به نفسي، مشيت كثيرا حتى غابت الشمس، أين الناس والبيوت؟

إذا خرجتَ من الأرض بعد نوم طويل ستشعر بالامتنان لكل البشر الذين لم يكونوا في طريقك، ستكون سعيدا إذا لم يصادفك إلا خيمة، وحيدة منفردة تلعب بجوانبها رياح المساء المقبل، ويرتعد ضوء النار أمامها ليدفىء يدي وصدر راعي أغنام منطو على نفسه، في هذه الخيمة بتُّ أول ليلة لي خارج الأرض، سألني الراعي وهو يصب لي الشاي الساخن عن وجهتي فأخبرته أنني زاهد أسيح في الأرض، سألته بحذر عن بن تومرت فقال لي: الكذاب، اندهشت من بساطة الكلمة وهي تخرج من فمه، هذه الكلمة كانت سبب حروب طويلة، قال لي إن بن تومرت

مـات منـذ زمن بعيـد ولكن عبد المؤمن بـن عليّ أقام دولـة على أنقاض دولـة المرابطين، سـألته، كم مر على موت بن تومـرت، فقال: كثير جدا، نحن الآن في عصر عمر المرتضى «أبو حفص».

سـألته ببقايا اتزان: وكيف عرف الناس بأمر بن تومرت، فقال مندهشـا وقـد بـدأ الشـك يصبص بذبولـه في عينيـه مع ألسـنة النار التـي نجلـس أمامها:

- لقد أعلن ذلك خليفته عبدالمؤمن على المنبر بعد موت بن تومرت ..

ارتجّ لسـاني في فمي فلم أنطق، حسـبني الراعي متعبا فأخذ مصباحه وذهـب ليطمئـن على أغنامه بعد أن ألقى السـلام، بقية الليل لـم أسـتطيع النـوم، كنـت أشـعر بالخـوف والدهشـة، والرغبـة فـي البـكاء، ولكنـي لم أبك..

لم أستيقظ في الصباح لأني لم أنم، قدم لي الراعي لبنا وخبزا، جرعت اللبن بسـرعة ولكني لم أستطع مضغ الخبز فلفظته، في قعب الماء الذي قدمه لي الراعي تفحصـت داخل فمي، كانت أسـناني صغيرة جدا كأنها أسنان طفل لم تستكمل نموها، ما الذي حدث لي طيلة كل هذه السـنوات تحـت الأرض، هل تحولت مـن معجزة كاذبة لابن تومـرت إلى معجزة صادقة لله كالعزير وأصحاب الكهف.

طيلة عمري الثاني لم أكلم مغربيا إلا هذا الراعي ودرويشا مباركا في صحراء مصر، مكثت مع الراعي أعاونـه لا أجر لي إلا طعام فمي، نبتت

أسناني سريعا مع بعض الألم وصار الراعي يطمئن إلى أمانتي يوما بعد يوم حتى بدأ يتركني الأيام الطوال ويذهب إلى أهله ثم يعود إليَّ، بعد معرفتي بموت بن تومرت وعبد المؤمن بن علي لم أعد مهتما بسماع أخبار أحد، كنت قليل الكلام بصورة أدهشتني، محبا للصمت لدرجة أنني صرت أضع قطعتين من صوف الغنم مع الشمع في أذنيّ لكي لا أسمع ثرثرة الراعي بأحوال دنياه، لو يعلم الناس كم من الحكمة والأسرار تكمن في العزلة والصمت، لم أكن أفكر في ماضيَّ إلا قليلا ولكني أيضا لم أعد أفكر في المستقبل بطريقتي الأولى، ولكن بقايا حنين قديم وحزن لبقاياي الأولى اكتشفت خلال التفكير فيها أنني نسيت اسم أبي وأمي رغم أني لم أنس وجهيهما، نسيت مكان قريتي واسم قبيلتي، ولكني لم أنس بن تومرت وعبد المؤمن والونشريشي ومصدق، رجوت الراعي أن يأتيني بدواة حبر وقلم، وانتهزت فرصة نفوق إحدى الماعز فسلختها وأزلت عن الجلد بقايا الشعر واللحم بحرص، ثم دعكته بالليمون، وبسطته على صخرة مستوية في كهف بعيد، وعندما أصبح الجلد قابلا للكتابة عليه بدأت بتدوين أحداث حياتي الأولى..

بعد سنة واحدة ضاقت بي عشرة الراعي فاستأذنته في الرحيل فغضب وترجاني أن أبقى ثم مكث ثلاثة أيام لا يكلمني عسى أن أعود في قراري حتى تأكد من رغبتي في تركه فوهبني ثلاث غنمات وقميصا جديدا وآنيتين من الفخار الجيد وتركني أرحل..

سـرت ناحية الشرق، بعد أيام من السـير شعرت برغبة في العودة إلى عمق الأرض وانتظار الموت، ولكني أشفقت على الغنمات الثلاث من أسـنان الذئب، فواصلت السـير أرعاها وتسـقيني، أعدُّ الأيام تمر سـريعا أتعلم من الصحراء والصمت والرمال، أصلي وأعبد الله، ماتت إحدى الغنمات فسلختها بعد أن غممت أعين رفيقتيها رحمة واقتداءً بالنبي وسلختها وفعلت كما فعلت في الكاغد الأول وحفظته معي، عبرت النيل مع غنمتيّ في مركب صياد مصري حسبني أخرسَ ولم يرض أن يأخذ مني أجرا، مررت بصحراء مصر السفلى شرق النيل، ولم يردني في سيري إلا البحر العظيم، هناك بنيت لي ولغنمتيّ مأوى من أحجار صغيرة وأفرع الشجر وجعلت السقف من الطحالب التي لفظتها المياه على الشاطئ وجففتها الشمس...

....

ما الذي كنت أنتظره على شاطئ البحر، أن ينشق لي كما انشق لسيدنا موسى وقومه فأعبر إلى الجانب الآخر دون أن أبتل، أم تدب الحياة في سمكاتي الميتة فتقفز في الماء دليلا على اقتراب سيدنا الخضر مني فأصاحبه ليحيرني بألغازه كما حيَّر سيدنا موسى بها، ولكني لم أقابل سيدنا الخضر بل قابلت من كان سببا في شفاء روحي، شيخا كفيفا رأيته يتريض على الشاطئ دون هاد يهديه ولا عصا يتحسس بها مواضع خطواته، لم أعلم أنه كفيف إلا بعد أن اقترب مني ورأيت رأسه مشرعة في الهواء كأنه يتلمس إشعاعات وجود الأشياء من حوله، ناداني يا عبد الله

فأجته وذهبت اليه، كان ضيفي لنهار كامل شرب من لبن غنمتيّ وبرا على ظهريهما وأخبرني بوجهته ولكنه لم يخبرني باسمه..

أخبرني أنه ينتظر هو ورفاقه السفينة التي ستنقلهم ليؤدوا فريضة الحج في الجانب الآخر من البحر، هناك حيث البيت الحرام والمسجد النبوي وصحراء مثل الصحراء التي تقع خلفنا، رفاقه الذين أتوا للبحث عنه كانوا ينادونه بأبي الحسن ويكنونه بالشاذلي، سألتهم عنه وعرفت أنه إمامهم، وأنه مغربي مثلي، من شاذلة من قبيلة الأخماس الغمارية، ربما كان ذلك هو السبب في ارتياحي للحديث إليه في اليوم الثاني عندما زارني، الوحيد الذي أخبرته بحكايتي كاملة لأني شعرت أنه أكبر مني سنا وحكمة رغم أنني ولدت قبله، قال لي:

- إن الله قد ابتعثك لحكمة لا يعلمها إلا هو، ويجب عليك أن تكتشف هذه الحكمة لكي لا تحتقر نعمة الله عليك.

- أنا متعب يا إمام وأريد الموت.

- لأنك تبحث كثيرا في الماضي، لأنك تبحث عن مصدق ولكنك لن تجده أبدا فقد مات.

لماذا نصبح أكثر شفقة عندما نستيقظ من أحلامنا، كانت حياتي السابقة تبدو لي الآن كحلم طويل ولكن رغم ذلك عندما ذُكر مصدق أمامي جرح أفق رؤيتي دائرة بئر سوداء موغلة مثل تلك البقعة السوداء التي تظهر من إدمان النظر طويلا إلى الشمس، علمت الآن لماذا

سكنت جوار البحر كل هذه الفترة، لماذا لم أجد هدوء نفسي وسكينتها إلا هنا، صوت البحر ورائحة الماء المالح ينسياني صمت البئر ورائحة الماء العذب...

في اليوم الثالث جاء الإمام الشاذلي مبكرا ومعه رفاقه، ولكنهم مكثوا خارج الخيمة حتى ننهي حديثنا احتراما لخلوتنا، جلس قبالتي وأخذ يسألني عن كثير مما تعلمته من بن تومرت وأنا أجيبه، انتصفت الشمس سقف السماء فأمرني أن أؤذن وصلينا الظهر جماعة كبيرة على شاطئ البحر ثم عدنا لخلوتنا وللحوار والمناقشة، مالت الشمس وانكسرت حدتها فصلينا العصر وعدنا لجلستنا الأولى، مع غروب الشمس وقبل أن أقوم لأؤذن أمسك ركبتي وصاح مندهشا:

- كيف حفظ صدرك كل هذا العلم ونسيت مع ذلك اسم قبيلتك وأبيك وأمك التي كفلتك.

ثم أطرق متفكرا حتى خدشت صمته مستحيا وسألته عن الأخطاء فيما تعلمته من بن تومرت فقال:

- لا شيء مما تعلمته خطأ، ولكن أولى بك أن تسألني عما ينقصك من علم فوق ما تعلمته، فإن العلم يا مؤمن كالريح إذا أتت من ناحية واحدة أهلكت وإذا أتت من الجهات الأربع صارت نسيما لطيفا يسوق السحاب وينقي الهواء من الغبار والهوام، العلم إذا اكتمل أورث التريث في الأمور كلها، والرفق لم يوضع في شيء إلا زانه، إن الأسماك في الماء تستغفر للعالم من فضله عليهم، ألم تسمع قول

النبي ﷺ إذ قال: إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به... إن علامة العلم يا مؤمن هي النفع كما أن علامة استقرار العقيدة في القلب الرضا..

....

ودعته بعد أن أتت السفينة التي ستقله ورفاقه إلى مكة لأداء فريضة الحج، قال لي تعال معنا يا مؤمن فنظرة واحدة إلى الكعبة ستزيل كل هموم صدرك، ولكني قلت له وأنا أبكي على فراقه: لست مستعدا بعد يا إمام، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أخاطب بها أحدا بهذا اللقب بعد بن تومرت...

غادرت شاطئ البحر وعدت إلى الصحراء، صرت أعبد الله ويجتمع صالحو القبائل حولي، أخذت عليهم عهدا بأن لا يرفعوا سيفا ولا حديدة في وجه مسلم ولو كان حاكما ظالما، وأن يلزموا أنفسهم بخدمة الناس قبل أن يدعوهم لعبادة الله، وأن لا يسير اثنان منهم معا بل ويتخفوا عن بعضهم البعض كما يتخفى اللص ويزيل آثاره إذا طاردته الشرطة، كان أكثر ما أخشاه أن يصبحوا جماعة كجماعة بن تومرت.

وفي كل حج كنت أنتظر مجيء الإمام الشاذلي، ماتت غنمتاي المتبقيتان ولكني لم أعد إلى عمق الأرض، فعلى جلود أغنامي الثلاث كان لديَّ كثير لأسجله من حكايتي ومما علمنيه هذا الرجل الصالح الشاذلي الذي كان يكره أن يسجل عنه الناس ما يقول، ذات مرة قال لي:

- أتمنى أن أموت وأدفن هنا في الصحراء، في مكان لم يُعص الله فيه قط.

الاستجابة لدعاء الموت من صفات الولاية، لأن الأولياء لا يدعون على أنفسهم بالموت تسخطا بل شوقا إلى لقاء الله وخوفا من الفتنة، استجاب الله لدعاء الرجل الصالح، مات في رحلة حج ودفن في حُميثرة، مات الشاذلي وكنتُ أنا من غسله وكفنته، ومن شدة حزني ووحشتي لم أنتظر حتى يدفنه رفاقه وسبقته إلى عمق الأرض، أتذكر ليلة أن ذهبت إلى الأرض مرة ثانية مصطحبا معي ماءً ودقيقا والكواغد الأربع، لم تكن تشبه الليلة التي اصطحبت فيها إلى الموت عشرين رجلا ماتوا خنقا، كان يصحبني أكثر من العشرين رجلا حولي فوق الأرض ولكنهم لم يذهبوا معي، أخبرتهم أنني ذاهب للموت ليعظني، وأن الموت لا يأتي مع الضوء، فادفنوني في الظُلمة واتركوا لي ثقبا لأتنفس منه وابنوا عليه شاهدا من الصخور لكي تحجز الرمال أن تسفو فوقي، لا أعلم مصيرهم بعدي، وأي حكاية تناقلوها عني، هل يئسوا من خروجي، هل نادوا عليَّ حتى ظنوا أنني مت، هل انصرفوا أم حفروا عليّ فلما وجدوني ميتا كنائم أو نائما مثل ميت أعادوني إلى عمق الأرض وهم يبكون، هناك تحت شاهد من الصخور ومقام تتبرك به القبائل والقوافل نمت نومتي الثانية...

....

الفصل السابع عشر

لـم تنتـه الجلود، ولكـن ضوء اليـوم الثالـث انتهى، ثلاثـة أيام مرت علـيَّ سـريعا وأنا في الحفرة، أنام وآكل وأشـرب وأقـرأ واقفًا، تصفحت بقية الرقاع بحرص شـديد سريعا قبل أن تعم الظلمة التي تأتي بعد العصر مباشـرة وتصبـح تامـة قبـل الغروب: اسـتيقاظ مؤمـن بعد نومـه الأول، ذهابـه للموت عدة مـرات بنفـس الطريقة الأولى، الأسـنان التي تنمو كل مرة بعد سـقوطها طيلـة فترة مكوثه في حفرته، شـواهد القبور التي نثرها فـي الصحـراء فوق كل حفرة نـام فيها، أو مات فيها فبعثـه الله فأصبحت مقامات..

حكاية لا تصـدَّق ولكـن قِدم الأوراق وتنوع الخطوط فيها دليل كاف على أن من كتب هذه الأوراق ليـس شـخصا واحدا، أو ربما كان شـخصا ولد عدة مرات !!

جنيـن الأرض، ولكـن لمـاذا؟ حتـى الإمام الشـاذلي رغـم تصديقه لقصتـه إلا أنـه لـم يصـل إلى السـبب، صاحـب الأوراق وحـده من كان

يستطيع الوصول إلى إجابة، ولكن الأوراق مليئة بحيرة من كتبها، لقاءات وحكايات في الصحراء مع رومان ومماليك، هاربين من الثأر وباحثين عن الذهب، عرب وأعاجم، بيض وسود، مهندسي تعدين تائهين وجيولوجيين منقبين عن المعادن وعاملين في المناجم، نوبيين وصوفيين، لصوص وعُبّاد، كلهم كان مؤمن يصل بهم إلى بر الأمان في حيرتهم دون أن يصل هو إلى إجابة لسؤاله الأوحد، لماذا لا أموت، ولماذا لا أستطيع أن أحيا؟..

ما هي الحكمة من عودته إلى الحياة في كل مرة، من الذي كان أمامي قبل أن أقع في الحفرة، هل هو بالفعل مؤمن بن تومرت أم شيخ الطريقة التي أسسها مؤمن بن تومرت قبل ستمائة عام، وما غرضه من إسقاطي في الحفرة؟، كانت الأوراق مليئة بالإجابات، إجابات تجعلني أرتعد، ولكن ليس على أسئلتي عن الدرويش ولا على أسئلة الدرويش...

كانت الرعدة تشمل جسدي كله الآن وأنا أفكر، فالإجابات التي حصلت عليها كثيرة، ربما أكثر من الأسئلة ولكنها تحتاج إلى وقت لترتيبها في حياتي، فالإجابات غير المرتبة أكثر خطورة من الأسئلة بدون إجابات، أحتاج إلى هدنة للتفكير والتأمل، كانت بي رغبة جارفة في الحديث مع أخويَّ، مؤمن وخليفة، اشتياق إلى أن آخذ زوجتي في صدري وأجعلها تبكي وأبكي معها لتشقق قشرتنا عن إنسانين جديدين، صرت واثقا الآن من قدرتي على الإجابة على أسئلة مؤمن وخليفة، لقد عثرت على أخويَّ كما أخبرني أبي في الحلم..

أبي؟ ولكن أين هو أبي، في الجلود المكتوبة عثرت عيناي على جزء من حكاية أبي مع الدرويش، ولكني لم أعثر على شيء من حكاية الشيخ خليفة، من المؤكد أن لقاءَيْ أبي والشيخ خليفة بمؤمن بن تومرت كانا في استيقاظ واحد، فما الذي فعله الشيخ خليفة للدرويش فأغضبه للدرجة التي جعلته لا يذكر حكايته التي تعتبر أهم من حكايات أخرى كثيرة تم ذكرها، ربما كانت أهم من حكاية أبي بالمقياس الشخصي للدرويش، الشيخ خليفة كان يبحث عن الاختباء والدرويش ظل مختبئا طيلة سبعمائة عام، الشيخ خليفة كان خلف القافلة عندما خرجت من دراو، عندما التفتُّ لم أجده، الشيخ خليفة يعرفه الناس في دراو والقوافل تعرفه جيدًا، الشيخ خليفة صنع لنفسه قميصا أبيض مثلي وقال لي لا تسأل، كان الشيخ خليفة فوقي الآن ينادي: يا مصدق، وبدون وعي انترت وصحت: شيخ خليفة، انجدني يا شيخ خليفة..

بعد رمال كثيرة سقطت فوقي أطل الشيخ خليفة بوجهه من فتحة الحفرة وهو ينادي:

- هل أنت بخير يا ابن الغالي.

وكأني لم أشعر بسوء حالتي إلا الآن، قلت بفم يفتل الرمال على جانبيه مع خيوط من لعاب جف:

- لا يا شيخ خليفة، لست بخير، اخرجني من هنا.

- سأبحث عن شيء أجدله وأدليه لك، اصبر.

ذهب الشيخ خليفة، نزلت على ركبتيّ أطوي الجلود محاولا ألا أؤذيها، وأنا أفعل ذلك كنت أسأل نفسي: هل يحق لي سرقة أوراق الدرويش، ولكن ألم يقُذني لأسقط في الحفرة وأقرأها، هي ملكي الآن، إنها كنزي الخاص..

وأنا أجمع وأطوي الجلود عثرت يدي على جلد رقيق طري، كان ملمسه طازجا، رفعته إلى أنفي لأشمه، رائحة لاسعة حمضية، ضغطت على زر ساعتي وصوبت الضوء القليل على السطور المكتوبة كلمة كلمة.

كانت رسالة لي من مؤمن بن تومرت أو الدرويش أيا كان، ولكن كيف وصلت، لم أرها من قبل، قرأت:

(أتذكر الآن يا مصدق يا صنو رفيق خيمتي الطيب، أتذكر أشياء من حياتي مرت دون أن أفهمها في وقتها، شجرة وحيدة على أطراف قريتي في الصحراء، كانت أغصانها ممتدة ورفيعة مثل الإبر الصغيرة المتالية، كانت هذه الشجرة تخدع الهواء فيأتي من خلالها ويصفر، كثيرا ما أحببت الجلوس تحتها، أندهش للهواء كيف يأتي هنا ويعربد رغم أن الصحراء قيظ والهواء ساكن ميت، حتى عندما كانت الرياح تهب بقوة وتأتي إلى تلك الشجرة الوحيدة لا تفعل إلا ما تفعله في كل مرة، تهدأ وتغني..

كثيرا ما تخيلت الشجرة امرأة لعوبا تتغنج وتتكلف للهواء في أوقات ضعفه ليأتي إليها ويؤنسها، وتربت على أكتافه في وقت غضبه ليهدأ، الأشجار نساء يا مصدق يحببن للأرض والبقاء فوقها، مهما شتتهن

الريح عُدن فبحثت جذورهن عن البقاء والثبات، النساء أشجار أما الريح فرجال..

أتذكر أيضا، يوم أن رأى الرجال في قريتي طيورا تحوم من بعيد في دائرة حول نقطة ثابتة في الأرض لا نراها، قال الرجال في ثقة إن عين ماء انفجرت في الصحراء عند هذه النقطة وانطلقوا يستطلعون، ولكنهم عادوا بالخيبة تملأ وجوههم والفراغ يملأ قرب الماء في أيديهم، قالوا إن الطيور تعلمت الكذب على البشر، ولكن الشيء الذي لم يفهموه أن الطيور كانت تصنع الأمل كما يصنع الأطفال يوم العيد بضجيجهم..

لماذا لم أكن ريحا، لماذا لم أكن طيرا، لماذا بحثت لنفسي عن روح لا تناسبني وحيرتني الأسئلة عن الضفدعة بنت الماء القليل التي دفنت نفسها في الرمال تنتظر هطول المطر حتى صرت مثلها، من شيخ كُتاب إلى درويش مدفون في الرمال إلى ذقنه، رحلة طويلة قطعتها يا مصدق ولكن ليست كل الرحلات صعودا، لا في الخريطة ولا في الحياة، كنت متوجها إلى الأندلس شمالا وها أنا ذا على حدود مصر السفلى، مرت الأيام سريعًا ولكن كما تعلم، مرورها فوق الأرض ليس كمرورها في باطنها، لا أميز ضوء نهار من ظُلمة ليل، كنت أنحدر من ظلمة معتمة إلى ظلمة أشد إعتاما، ولكني عثرت أخيرا على الحكمة، كل هذه السنوات الطويلة لم أفهم الحكمة، الضوء، حتى ظلام الليل به ضوء، ما كان يجب أن أنزل إلى الحفرة مرة ثانية باختياري حتى لو كان الثمن هو الخلود، الموت على سطح الأرض أفضل بكثير من الخلود في باطنها..

لقد أذهلتني بحكايتك وبحثك عن أبيك يا مصدق، أذهلتني بخياراتك، بهروبك من الاحتمالات المفزعة، بحرصك على نقائك ألا يتلوث حتى وإن كان ما سيلوثه هو الحقيقة، ألم تسأل نفسك لماذا جئت إلى الصحراء في رحلة شاقة خلف مجاز مجهول بينما كان لديك الخيار أن تذهب وتتأكد من موت أبيك أولا، سأخبرك أنا بالسر، السر أنك ظللت دائما تختار أخف الضررين لقلبك، طريقك في الصحراء رغم مشقته كان هروبا بحكايات الشيخ خليفة من احتمال أن يكون أخوك هو المشترك في اختطاف أبيك، أنت اتجهت إلى الصحراء لأنه المكان الوحيد الذي يبرئ الجميع، ولن تعود من الصحراء كما فعلت أنا من قبل عندما اخترت الموت دفنا..

لديك الآن حكايتان عن الدرويش الذي قابلته قدرا في الصحراء، مؤمن الذي خرج من تحت الأرض بعد أن دفنه بن تومرت فهرب على قدميه حتى وصل إلى مصر، وهناك عاش في الصحراء حتى أصبح له اتباع ومريدون ومات كما يموت الجميع بعمر واحد، تاركا مريديه يستنسخون حكايته الأولى ويضيفون إليها كحكاية واحدة، كجسد واحد إذا اشتكى منه جزء تداعى إليه سائر الجسد بالحمى والسهر، والحكاية الثانية عن مؤمن بن تومرت الذي عاش سبعمائة عام، مائة عام فوق الأرض وستمائة في باطنها نائما كأهل الكهف، كلتا الحكايتين حقيقة إن نظرت للأمور من زاوية مختلفة لتصل إلى الحكمة، ليس بالضرورة أن يصبح الشخص جماعة ليصل إلى الحقيقة، وليس بالضرورة أيضا أن يعيش سبعمائة عام ليصل إليها...

كل فرد فينا هو الأخير في سلالته يا مصدق وهو الأول منها في ذات الوقت، ألم تسأل نفسك كثيرا لماذا لم تغادر رتبة المحب في أي انتماء من حياتك؟ ليس لأن الأمور في بداياتها دائما تبدو جيدة ولكن لأنك أنت أنت المحب الذي لا يصح أن يصل إلى نهاية طريقه إلا بنفسه ولا يصح لمن اتبعه ومن مثله إلا أن يبدأ كما بدأ، فيحمل عندئذ الحب الذي حُرم منه إلى العالم، لأن من هم مثلك بلغوا حدا من الرقة والصفاء لا يجب أن يُخدش، مثلهم مثل الفراشات وأرواح الزهور وتيجان الفطر، لا ينبغي أن يعيشوا خديعة العالم، إن مثلك كثير يا مصدق، أكثر مما تتوقع، في البيوت والمساجد والمصانع وحتى البارات والملاهي، أنتم مثل العقد الذي يزين عنق العالم، عقد أخضر ولكن موتكم أو يأسكم أو تلوثكم سيجعل العقد يذبل، سيحول هذا العقد إلى حبل مشنقة مُحكم..

الرقاع ملكك الآن يا مصدق، لأني لن أعود مرة أخرى إلى باطن الأرض، إنها هبتي لك كما وهبت الجِمال لأبيك...).

....

قبل أن يجذبني الشيخ خليفة قمت بدفن رقاع مؤمن عميقا بعد أن لففتها في أكياسها، عدا رسالته الأخيرة التي وضعتها في حلق قميصي ملاصقة لجلد بطني، قال لي الشيخ خليفة عندما خرجت: تصور، وجدت هذا الحبل قريبا من هنا.

جلست على الرمال، الشمس تغرب، لم أر غروبا أجمل منه قبل ذلك.

- كيف عثرت على الحفرة يا شيخ خليفة!

- تتبعت أثر القافلة.

قلت بنفاذ صبر:

- كيف عثرت على الحفرة يا شيخ خليفة؟

- لن تصدقني، كنت أبحث عنك، رأيت الدرويش، رأيته منحنيا عند هذه الحفرة وكأنه يدفن شيئا فيها، ولكنه اختفى قبل أن أصل إلى هنا.

قلت في نفسي: ها قد عرفت كيف وصلت الرسالة..

سألني بفضول:

- ماذا علمك الدرويش؟

- كثير، أكثر مما كنت أتوقع أو توقعت أنت، لقد كنت على حق.

انتفض الشيخ خليفة واقفا، قال لي وهو يشير: انظر هناك، نظرت، عند الأفق رأيت قافلة من الجمال تسير، بالضبط كما وصف لي أبي: دون أي حبل يقيدها، مجموعة كقافلة من الذئاب، وأمامها رجل يمشي وكأنه يرسم للشمس الخط الذي ينبغي أن يخرج منه ضوؤها أو يعود، ولكن المختلف أن أبي كان هناك، يمشي بجوار الدرويش كأنهما يتحادثان، أعرف أبي وطريقة سيره رغم الظلام والمسافة، لم أنادِ، لم أفتح فمي حتى لأجرب، المشهد كان أكبر من قدرتي على تخيله ومن قدرتي على الاندهاش ومن قدرتي على الفرح، ولكن عندما رأيت أبي يلتفت ويلوّح لي بذراعه عاليا كأنه يقول لي: انتبهت لك يا مصدق، وكأن كل مضامين

الفرحة انطلقت ترتع بداخلي، عندما فعل صرت أبكي وأضحك وأجري وأتعثر وأقف دون جهد كأنني في حُلم، ولما أدركت أنني لن أتمكن من اللحاق بهما، وقفت كما يقف الأطفال الصغار وهم يودعون طائرة قريبة جدا في السماء، أملأ عينيّ من المشهد قبل أن يغيب..

قال الشيخ خليفة مؤكدا رؤيتي: هل هذا أبوك يا مصدق؟

لم أجبه، ظللت ألوّح بذراعي حتى أظلمت الدنيا، وعندما التفتُّ إلى الشيخ خليفة لأكلمه انحدرت إلى ظلمة أشد، شعرت بالضربة على رأسي ورأيت عيني الشيخ خليفة وهو ينحني ليرى هل أفلحت ضربته في إغمائي أم لا، قلت بفم ملتاث:

- لماذا فعلت ذلك، لماذا يا شيخ خليفة؟

....

في الصحراء لا ضوء، غارت النجوم والقمر لم يكن موجودا، لكن حتى الظلام به ضوء كما قال مؤمن بن تومرت، أسفل قدمي رأيت بقعة سوداء غائرة في الرمال، تذكرت الحفرة، ثم رأيت الشيخ خليفة، رأيت ما يفعله، طرف حبل في يده والطرف الآخر معقود بعد أن لفه حول جدي الراقد يقيدني به، دون أن ينظر ناحيتي عرف أنني أفقت، كان يقول وهو يتلصص بداخل الحفرة:

- تكذب على عمك الشيخ خليفة يا مصدق، كل هذه العشرة بيننا وتكذب عليّ.

- لماذا تقول ذلك يا شيخ خليفة ولماذا ضربتني وقيدتني؟

- لماذا؟... أنا خلفك منذ خرجت القافلة، لم أر الدرويش إلا في هذه الساعة وتقول إنه علمك، منذ ثلاثة أيام اختفيت من القافلة ليلا، بحثتُ عنك كثيرا حتى رأيت الدرويش، وعثرت عليك..

- أقسم لك، الدرويش كان معي في القافلة، وهو الذي قادني إلى هذه الحفرة، عرفت عنه الكثير، ثلاثة أيام مكثتها في الأسفل ولكنها كانت عمرا كاملا.

- تقول إنك هنا منذ ثلاثة أيام، دعني أصدقك، في هذه الحفرة أسرار يا مصدق ولكنك تعجلت الخروج، لقد أرسلك الدرويش هناك لغرض.

- اسمه مؤمن، الدرويش اسمه مؤمن.

قال ساخرا:

- عفارم عليك، أهذا هو السر الذي اكتشفته في الحفرة؟ أن اسم الدرويش مؤمن؟

- الحفرة بها أسرار كثيرة يا شيخ خليفة ولكنها لا تستحق النزول خلفها.

- سأنزل يا ابن الغالي وستكون أنت علامتي للقوافل المارة إن لم أستطع الخروج.

- هل ستتركني هنا؟ في العراء.

- لا تقلق، لن تموت طالما أنني حي بالأسفل، إلا اذا أكلتك الذئاب..

- ولماذا تريد الأسرار يا شيخ خليفة؟

صاح متعجبا:

- لأننا عميان يا مصدق، أنا أعمى، أنت أعمى، ولكني فتحت عينيّ ذات مرة، مرة واحدة فقط، وأبصرت، وعرفت أن الضوء يملأ العالم حولنا، ولكننا نغلق أعيننا عنه ونحلم بأننا نبصر، من يومها وأنا أتعجل الضوء حتى لو أحرق عينيّ، أنت تريد ألا ترى لأبعد من أنفك، هذا شأنك وتلك رغبتك، بعض الناس يستمتع بوجود أسرار في حياته، رغم أن لغزا واحدا في حياتك كفيل بأن يجعلك أسيرا حيا..

ثم التفت إليّ وجاء ناحيتي وجثا بركبتيه إلى جواري، رأيت الجذل في عينيه، شقاوة عيني التلميذ النجيب الذي جعله المدرس يقف على السبورة وهو يعرف جيدا إجابة السؤال الذي استدعاه من أجله، بل ويعرف أيضا إجابة السؤال الذي سيعجز المدرس عن إجابته.

قال بتلك العينين:

- هل تعرف لماذا كان أبوك يكره خليفة، ليس بسبب الاسم، ولكن ببساطة لأن الآباء لا يستطيعون أن يصرفوا حب الأبناء لغير أبنائهم ولو تكلفوا، خليفة لم يكن أخاك يا مصدق، كان ابن خالك، تزوج خالك في السر خوفا من زوجته الأولى ثم طلق أمّ خليفة فرمت له خليفة فور ولادته، ولم يبق خليفة الرضيع في كنف أبيه الحقيقي أكثر من

ساعتين، حمله خالك إلى أمك، ووجدت أمك في خليفة عزاءها في وحدتها بعد أن كانت قد يئست من عودة أبيك فطلبت منه أن يسجل وليده متسبا لها ولأبيك، عندما عاد أبوك فوجئ وغضب وحرّم على خالك دخول بيته..

- آخر أكاذيبك قبل أن تنزل الحفرة؟

- لا أقول أكاذيبا ولكني أقول أسرارا.

- حتى لو كان كلامك صحيحا، قد لا يكون خليفة أخي من رحم واحد، ولكننا أكلنا من ذات الطبق، أخي بالاسم والانتماء، خليفة أخي مثله مثل مؤمن...

قاطعني وهو يتهيأ للنزول:

- إن نجوتَ من هذه الصحراء لا تنس إذن أن تسأل صاحب المقبرة الفرعونية عن أخيك بالانتماء خليفة، أو اسأله هو إن جرؤت عما كان ينتوي أن يفعله بأبيه الذي هو أبوك على باب المقبرة طمعا في الذهب، ألم أخبرك من قبل، أنت أعمى، وستظل أعمى، أنت الدرويش الحقيقي يا مصدق وليس أنا ولا أخوك ولا أبوك ولا حتى هذا العجوز الغريب، الدراويش هم من يتغافلون عن رؤية وساخات البشر حتى تدهمهم وتغرقهم ويموتوا سعداء بحسن ظنهم بالآخرين...

جذبني ثقل الشيخ خليفة برقة وهو ينزل إلى الحفرة، كان خفيفا جدا، ظل الحبل ينقبض وينبسط حول جسدي حتى سكن ولكنه ظل مشدودا

إلى العمق رغم تأكدي من وصوله إلى قاع الحفرة، مكثت قليلا أنظر إلى السماء، لم أكن أشعر بضغينة ولا خوف ولا فضول لمعرفة القادم، بل تنفست بعمق وأغمضت عيني، عندما فعلت ذلك شعرت بروح طائر صغير تجتاحني وتخلعني من فوق الرمال، شعرت بعزف الهواء على ريش ناعم مثل الإبر الدقيقة المتلاصقة، رأيت بالأسفل نبعا ينفجر في الرمال، ولكن لا يتدفق منه الماء، كان الضوء هو ما يتدفق منه.

ولم أكن نائما أو أحلم عندما شعرت بالحبل يتفكك من حولي، قمت أسير، ليس إلى الناحية التي رأيت أبي بصحبة الدرويش يسيران إليها.. بل سرتُ متوجها إلى الناحية التي ستشرق منها الشمس بعد وقت يطول أو يقصر، أشعر برسالة الدرويش المطوية في طيات تحت ملابسي تحتك ببشرة صدري وأنا أسير، أبصر كلماتها المختزنة فيها، أشعر بالدفء المنبعث منها كأنها قماط يلف طفلا وليدا، وكأنني ولدت من جديد...

2014 - 10 - 5

«كل هذه الأسباب لا تجعلني كخبير متمرس أفقد الثقة في نفسي، فأنا منذ بلغت مبلغ الصبيان أقاتل طبيعة الصحراء عندما تجتمع مع شراسة جمال تشعر بغريزتها أنها مساقة للذبح، ولكن ما جعلني أفقد ثقتي بنفسي هو ذلك الدرويش الصحراوي الغامض، لقاء واحد به يفعل بك ما لم تستطع الصحراء أن تفعله في سنوات، وأنا قابلته ثلاث مرات، لا أدري إن كان قد مات أم لا، ولكن لولاه ما تركت حياة القوافل، باقي خبراء الطريق كانوا يتداولون فيما بينهم مقولة إن ذلك الدرويش يسرق الجمال، ولكني لا أظن ذلك أبدا، لم يره أحد يتسلل إلى متاع أو يقطع حبل جمل مقيد، كل ما رأوه أن الجمال تصاب بالجنون بعد أن يظهر في الأفق، وربما حتى قبل أن يظهر وكأنها تشم رائحته»!

***

هذه رواية الأسئلة والمراوغات الشاقة، والسعي الدؤوب إلى الإدراك، ومن ثمّ الوصول إلى لحظة الاكتشاف وامتلاك الوعي بالذات وبالآخر معًا.

نحن إزاء حالة استثنائية فريدة، حيث يتوغل السرد في عالم بكر وحالات غير مطروقة، يمتزج فيها الواقع المعاش بالوجد الصوفي، وتتقاطع قسوة الراهن مع رغبة الانطلاق في براح الصحراء. يترجّل التاريخ من موقعه في الكتب والمرويات ليصبح فاعلًا في وجدان شخصيات تتحرك وهي تحلم، يخايلها سرٌّ مقدّس، تتغذى على إلهاماته، وتسعى إلى الالتحام به!

ماجد طه شيحة، مواليد 1978، حاصل على بكالوريوس هندسة ميكانيكية من جامعة المنصورة 2002، صدرت له مجموعة قصصية بعنوان: كل "الخبال الرديئة" عام 2011، ورواية "سلفي يكتب الروايات سرًا" عام 2013، والتي بيعت منها ثلاث طبعات في أشهر.

9 789772 937295

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

مكتبة الدار العربية للكتاب